الكتاب الجميل
٣١
كتاب البيان

ABU ABDO ALBAGL

مجاناً مع البيان

أو. هنـــري

الملايين الأربعة

ترجمة

د. سعيد عبده

5684

مجاناً مع جريدة البيان

■

المدير العام ورئيس التحرير التنفيذي

خالد محمد احمد

نائب رئيس التحرير التنفيذي

ظاعن شاهين

■

هاتف ٤٠٦٤٢٥٦
فاكس ٣٤٤٥٢٥٧-٣٤٤٧٨٤٦
ص.ب: ٢٧١٠-دبي- الإمارات
انترنت http://www.albayan.co.ae
e-mail:book@albayan.co.ae

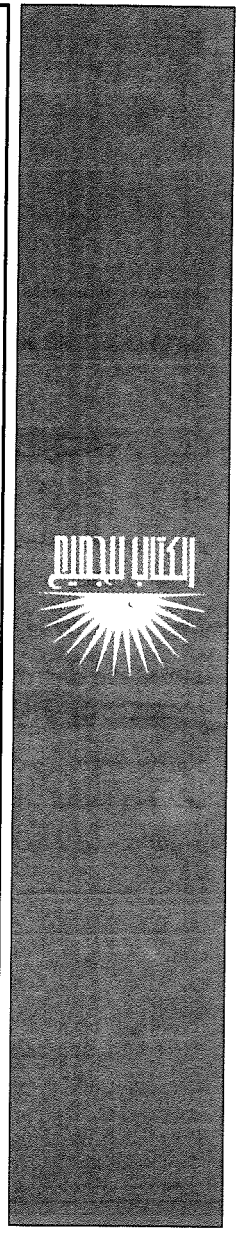

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

تلفاكس. ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير

E-mail:almada112@yahoo.com

الهيئة الاستشارية

المنجي بو سنينة

تركي الحمد

جابر عصفور

خالد محمد احمد

خلدون النقيب

سيد ياسين

طلال سلمان

علي الشوك

فؤاد بلاط

محمد الماغوط

محمد برادة

الكتاب للجميع

٣١

أو. هنري

الملايين الأربعة

ترجمة

د. سعيد عبده

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (البيان)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٤

الطبعة الاولى
١٩٥٤

تمهيد

ABDO ALBASEL

أعترف أني لم أكن قرأت شيئاً من قصص «أو . هنري» مؤلف هذا الكتاب ، قبل أن يعهد إلي في ترجمته ، اللهم إلا قصة وقعت لي عفواً في بداية حياتي ، فحاولت أن أقرأها ، فأعيتني لغتها ، واستعصت علي ، فرميت الكتاب من يدي ، ولم أعد إلى هذه التجربة ثانية.

وعندما عهدت إلي «مؤسسة فرانكلين» كتاب «الملايين الأربعة» لأترجمه ، عاودتني هذه الخشية القديمة من وعورة «أو . هنري» ، واستثقلت المهمة ، وكدت أرفضها ، لولا أني عندما قرأت قصة «هدايا المجوس» عرضا ، ثم عدت فدرستها دراسة مترجم ، ألفيت نفسي أمام عملاق من عمالقة القصة القصيرة ، تلذ التلمذة عليه وتفيد .

وتابعت قراءة الكتاب ودراسته في لهفة وتشوق ، ووقفت طويلاً أمام تلك الجمل القصار العامرة بالحياة والعاطفة ودقة التصوير ، عمرانها بألوان الاستعارة والكناية والتشبيه التي أولع بها أو . هنري ، والتي تبدو في بعض حالاتها ، وفي بداية أمرها ، بالنسبة للقارئ غير الضليع في اللغة الأمريكية ، أشبه ما تكون بالأحاجي والألغاز ، فإذا استوعبها القارئ تكشفت له عن روائع .

وهالتني لأول وهلة تلك المفاجآت التي يعمر بها أو . هنري معظم قصصه ، فينتقل بك من صورة إلى صورة ، ومن معنى إلى آخر ، لا يبدو

مدونة أبو عبدو

أن بين أحدهما والآخر أي ارتباط ، فإذا مضيت في القراءة قليلاً ، بدأ شعاع من نور باهر يشرق على تلك الصور والمعاني المتفرقة ، فيؤلف من مجموعها هيكلاً فنياً رائعاً منسجماً لقصة بديعة من قصص الحياة ، تكاد ترى لون الدم في عروقها النابضة .

إن الملايين الأربعة ليست عنوان قصة من قصص هذا الكتاب ، وإنما هي الرقم الذي يدل على سكان نيويورك ، في بداية هذا القرن ، أو في عقده الأول على التقريب ، حيث عاش أو . هنري أخصب ثماني سنوات من حياته القصيرة ، وحيث بلغ الأوج من مجده الأدبي ، وحيث استوحى قصص هذا الكتاب من حيطان السفن الغارقة أو المشرفة على الغرق في هذا الخضم البشري المتلاطم .

***

ولد أو . هنري سنة ١٨٦٢ ، بولاية كارولينا الشمالية ، ومات سنة ١٩١٠ ، ولم يلمع ككاتب قصصي إلا سنة ١٩٠٢ . أما الأربعون عاماً التي مرت من عمره قبل ذلك ، فقد قضاها في قطاف التجارب التي ترى آثارها في كتاباته ، من حقل المحن والمآسي التي صادفها في الحياة .

ماتت أمه بالسل وهو في الثالثة من عمره .

ووقف تعليمه في الخامسة عشرة ، ولكن عمته التي كانت تدير مدرسة حرة حفزته على القراءة ، على قراءة القصص بنوع خاص ، وهيأ له عمه وسيلة للعمل في مخزن كان يملكه لبيع العقاقير .

واشتغل رساماً في مصلحة الأملاك ، وكان زملاؤه يتوقعون له مستقبلاً في التصوير الكاريكاتوري .

ثم تزوج من فتاة مات أبوها بالسل ، وكان مقرراً أن تموت هي الأخرى في بضع سنوات .

ومات أول طفل أنجباه .

وفشلت محاولة قام بها لانشاء مجلة أسبوعية فكاهية .

واشتغل صرافاً في بنك ، فظهر في حساباته عجز وصل إلى ألف دولار ، فطرد ، وحوكم بعد سنوات ، ففر من المحاكمة .

واضطره مرض زوجته إلى العودة ، فضبط ، وأعيدت محاكمته ، واتخذ قراره قرينة عليه ، فسجن بضع سنوات .

وبدأ في السجن كتابة قصصه الرشيدة ، التي كان يمزج فيها بين تجاربه وما يتلقفه من أفواه السجناء .

ولم تجد هذه القصص طريقها إلى الصحافة إلا في سنة ١٨٩٩ ، وهو يعيش في إحدى الغرف المفروشة الحقيرة ، التي يجد القارئ في قصص هذا الكتاب وصفاً لمثيلاتها في نيويورك ، فعرضت عليه إحدى صحف هذه المدينة دخلاً ثابتاً إذا قدم إلى نيويورك ، فنزح إليها في ربيع ١٩٠٢ .

***

وما تبع ذلك كان قصة نجاح فذ أشبه ما تكون بالأساطير .

ففي أقل من ثماني سنوات أصبح أو . هنري أكبر قصاص مقروء في أمريكا ، وسبى ألباب قرائه بقصصه التي التقط أكثر أفكارها من الأزقة المنسية ، والغرف المفروشة في أحقر بيوت الكراء .

ومن أشهر كتبه في هذه السنوات الثمان : «الكرنب والملوك» و«الملايين الأربعة» ، وأصدر في ١٩٠٧ «المصباح المزركش» و«قلب الغرب» وفي ١٩٠٨ «صوت المدينة» وفي ١٩٠٩ «طرق المقادير» ، و«العروض» وفي ١٩١٠ «عمل ليس إلا» ، و«أعاصير» ، وصدرت له بعد وفاته كتب «البستاني الرقيق» ، و«الحجارة الدوارة» و«أبناء السبيل» .

***

سئل أو . هنري ذات مرة وهو يجلس في مطعم مع بعض الصحفيين : «من أين يستمد أفكار قصصه» فقال : «من كل مكان ، فقلما تجد شيئاً لاينطوي على قصة» . وأمسك بقائمة الطعام في يده ، وقال : «إليكم هذه القائمة مثلاً ، ان من الممكن أن تجدوا قصة وراء حروفها الخرساء» . ثم راح يضع الخطوط الرئيسية لقصته : «ربيع تحت الطلب» المنشورة في هذا الكتاب .

إن طريقته في القصة أن يمسك بالشيء التافه المألوف في الحياة ، فيمزج بينه وبين تجربة من تجارب حياته الخاصة ، ثم يضفي على هذا المزيج بعض الألوان من ريشته الفلسفية المازحة ، فإذا بالشيء التافه المألوف يستحيل إلى خلق جديد ، وإذا الصدفة الفارغة المهملة على ساحل الحياة ، قد عمرت - من حرارة أنفاسه ، وعواطف قلبه الوديع - بلؤلؤة تحار في جمالها الألباب .

***

لقد قال عنه أحد معاصريه إنه كان شخصاً أشبه ما يكون بالطفل ، قليل الحيلة ، مبرأ من كل دوافع الغدر والخداع .

وقال عنه آخر : إنه كان رصيناً هادئاً ممتلئ القلب بالرحمة ، يهوى التجول ليلا في المدينة ليدرس عن كثب وجوه الناس ، ويستبيه الجلوس في مطعم ما في رفقة صديق لا يتكلم .

ولعل المرض الذي استودعته أمه اياه ، يوم ماتت عنه ، وهو طفل شاحب هزيل ، والذي اخترمه في ريعان العمر وفي السابعة والأربعين ، كان له فضل كبير في تلك اللمحة الإنسانية المشرقة التي تسطع من قصصه جميعاً ، وتجعل منها متحفاً للحياة في وقته ، تكاد تنطق وتتحرك فيه المدى والتماثيل .

لقد تقاضى أو . هنري عن إحدى قصصه ٢٥٠ ريالاً ، واشترى منه حق تحويلها إلى مسرحية بخمسمائة ريال ، وكسب منها الذي حولها إلى المسرح مائة ألف ريال! . . وسبحان من قسم الحظوظ .

إن مرارة تجارب أو . هنري في الحياة ، وعاطفته الإنسانية الشفافة ، وإيمانه الراسخ في المقادير والمصادفات ، واقتصاده العجيب في كسو المعاني الضخمة بأبسط وأقل الجمل والألفاظ ، كل هذا يضفي على قصصه روحاً تمنحه بجدارة لقب المعلم في فن القصص القصير .

سعيد عبده

الشرطي والأرغن

تقلق سوبى على دكته في ميدان ماديسون . وعندما يعلو ثغاء الأوز ليلا ، وعندما تصبح النساء اللائي لا يملكن معاطف الفرو أشد ترفقاً بأزواجهن ، وعندما يتقلق سوبى على دكته في المتنزه العام ، فاعلم أن الشتاء على الأبواب .

ووقعت ورقة ذاوية في حجر سوبى ، فكانت ايذانا بمقدم فصل الجليد . إن هذا الفصل رءوف بالنزلاء الدائمين لميدان ماديسون ، يتلطف في انذارهم بمقدمه كل عام . وعلى نواصي الشوارع المتقاطعة يسلم بطاقته لريح الشمال الباردة ، وهي وصيفة قصر الخلاء ، حتى يتأهب للقائه نزلاء هذا القصر .

وأدرك سوبى الحقيقة الواقعة أنه قد آن له أن يحيل نفسه على لجنة فوق العادة من لجان الطرق والوسائل ، لتدبر له أمر الهول المقبل . ومن أجل ذلك تقلق في مقعده .

إن مطامع سوبى المستكنة لم تكن شامخة ، فما كان بها موضع لنزهة في البحر المتوسط ، أو إغفاءة تحت سماء الجنوب ، أو رحلة في خليج فيزوف . إن روحه كانت ظمأى إلى قضاء ثلاثة أشهر في الليمان ، ثلاثة أشهر يضمن فيها المأكل والمنام ، والرفقة الصالحة ، والنجاة من ريح الشمال وأصحاب الكسى الزرقاء ، وقد بدت لسوبى هذه الأشهر الثلاثة كصفوة ما ينشد من آمال .

كان سجن بلاكويل مشتاه منذ سنوات ، وكما كان السعداء من مواطنيه النيويوركيين يتأهبون الرحيل إلى بالم بيتش والريفييرا كل شتاء ، كان سوبى يهيئ خططه المتواضعة لهذه الهجرة السنوية إلى الليمان . وها هوذا الوقت يأزف ، فقد فشلت في الليلة السابقة ثلاث من صحف يوم السبت المسائية ، تلفع بها تحت سترته وحول كعبيه وفوق خصره ، في حمايته من البرد ، وهو راقد فوق دكته ، على مقربة من النافورة المتدفقة في الميدان العجوز . لذلك لاح السجن في خاطر سوبى فخما وفي أوانه . لقد كان يزدري ما يقدم من عون لفقراء المدينة باسم الاحسان . والقانون في رأيه كان أرحم بهم من هذا الجود . وعلى أن المدينة بها عدد لا حصر له من الملاجئ البلدية والخيرية ، وكان في استطاعته أن يستضيف أحدها وينال المأوى والطعام الصالحين لحياة بسيطة فإن كبرياء سوبى أنفت من هذه الصدقات . فأنت وان لم تؤد بالدرهم ثمن ما تأخذ من هذه الملاجئ ، فانك لابد مؤد بالذل والمهانة ثمن كل مزية تنالها من أيدي المحسنين . وكما ابتلى قيصر ببروتس فان كل سرير من أسرة الصدقات يبتلى بضريبة الاستحمام ، وكل رغيف من الخبز لا ينال بغير استجواب عن المسائل الشخصية والخصوصيات . ومن أجل ذلك كان السجن خبيراً وأبقى ، لأن السجن وان أخضع لبعض القيود نزيله الفاضل ، فانه لا يتدخل في أموره الشخصية .

ومنذ عقد سوبى عزمه على الذهاب إلى السجن بادر بالتأهب لتحقيق بغيته ، وعلى تعدد ما يؤدى لهذا الغرض من وسائل ، فقد كان ألذها لديه أن يتعشى عشوة فاخرة في مطعم كبير ، ثم بعد أن يشهر افلاسه ، يسلم نفسه للشرطة بوقار ودون حاجة إلى هياج ، وعلى القاضي أن يقوم بما تبقى .

وترك سوبى الدكة وبارح الميدان ، عابراً هذا البحر المنبسط من الاسفلت إلى حيث يلتقي الشارع الخامس بشارع برودواي ، فصعد في شارع برودواي حتى وقف على مطعم يتلألأ بالأنوار ، ويضم كل ليلة صفوة ما تنتج الكروم ، ودود القز ، والمادة الحية في الأجسام .

كان سوبى مطمئناً إلى مظهره من أدنى زرار في صداره إلى قمة رأسه ، فوجهه حليق ، وسترته لائقة ، وربطة عنقه النظيفة السوداء ذات العقدة الثابتة مهداة إليه من راهبة عيد الشكران . ولو أنه استطاع الوصول إلى مائدة في المطعم ، لنجح نجاحاً لا ريب فيه ، لأن الجزء الظاهر منه فوق مستوى المائدة لن يبعث الشك إلى نفوس النزول . وجال في خاطر سوبى أن بطة مشوية تفي بالغرض إذا آزرتها زجاجة النبيذ ، وقطعة من الجبن الأصفر وقدح من القهوة ، وسيجار يكفي فيه أن يكون بدولار . ومن ثم فلن تبلغ جملة التكاليف مبلغاً يثير حفيظة الإدارة ، ويدفعها إلى اتخاذ إجراء شاذ . ويكون قد التمس من اللحم في نفس الوقت شعوراً بالشبع والسعادة يهيئه لرحلته إلى منفاه .

ولكن سوبى لم تكد قدمه تطأ داخل المطعم ، حتى وقعت عين رئيس الندل على بنطلونه المهلهل وحذائه البالي ، وسرعان ما كانت أيد قوية متأهبة ترده القهقرى إلى عرض الطريق في سرعة وسكون ، وتغير ما كان يتوقع للبطة في مصير ذليل .

وانصرف سوبى عن برودواي بعدما اتضح له أن سلوك هذا السبيل الابيقوري لن يصل به إلى السجن المرموق ، وأن عليه أن يفكر في وسيلة أخرى للدخول .

وكشفت له الأنوار الكهربائية ، والسلع المعروضة بخبث وراء ألواح الزجاج ، عن معرض حانوت في ناصية من نواصي الشارع السادس ، فالتقط سوبى حجراً وقذف به الزجاج فحطمه ، وتراكض إليه جمع من الناس على رأسهم شرطي ، فوقف سوبى هادئاً ، واضعاً يديه في جيوبه ، باسماً لمرأى الزرائر الصفراء .

وقال الشرطي في قلق : « من فعل هذا ؟ »

قال سوبى : « ألا يمكن أن تستنتج أن لي علاقة بالموضوع ؟ »

ولكن الشرطي رفض أن يتقبل سوبى حتى كدليل . فإن الذين يحطمون زجاج المعارض التجارية ، لا يقفون للتحدث مع حماة القانون ، وإنما يولون الادبار . ولمح الشرطي رجلاً يجري عن كثب ليلحق بسيارة

أوتوبيس ، فأشهر عصاه وهب للطراد ، وانصرف سوبى والغيظ مالئ قلبه من فشله مرتين .

ووجد على الجانب المقابل من الطريق مطعماً جم التواضع ، فيه شبع للشهوات الجشعة والمحافظ الخاشعة ، ثقيل الأدوات والجو ، خفيف المفارش والحساء ، فاحتمل سوبى حذاءه الداعي إلى التهم ، وبنطلونه الراوية عن قصص الزمان ، ويمم إليه آمناً شر التحدي . وجلس إلى مائدة ، وأكل لحماً وكعكاً ، وفطائر وحلوى ، ثم اعترف للخادم بأنه هو والدانق نقيضان لا يلتقيان ، وقال :

– «هيا الآن واستدع شرطياً ، ولا تدع سيداً فاضلاً ينتظر»

وقال الخادم بصوت منتفش وعين أشبه ما تكون بكرزة في كأس من كوكتيل مانهاتن :

– لا شرطي لمثلك . . . هيلا هوب!

وبخفة قذف به خادمان إلى الطوار الحجري ، فارتمى منبطحاً على أذنه اليسرى ، ومن ثم تماثل للنهوض قطعة قطعة كما ينفتح متر النجار ، وراح ينفض عن نفسه التراب ، وخيل إليه أن القبض عليه أصبح كالحلم الجميل ، وأن السجن يتناءى عنه إلى أبعد مما كان ، وضحك منه شرطي كان يقف على مدخل مطعم على مسافة بابين ، وتولى إلى سبيله .

وقطع سوبى خمس نواص من الطريق قبل أن تثوب إليه جرأة التفكير في طريقة للقبض عليه من جديد . وفي هذه المرة أتيح له ماهيأه الوهم انه فرصة فريدة ، فقد وجد امرأة فتية تقف على معرض حانوت ، مرتدية ثياباً جذابة متواضعة ، وتشخص بشغف شديد إلى المحابر ومصابن الحلاقة المعروضة ، وقد وقف على بعد مترين منها شرطي ضخم متجهم الأسارير ، متكئ على سدادة صنبور من صنابير الحريق .

ودار في خلد سوبى أن يلعب دور المتيم الخسيس الممقوت ، وشجعه منظر فريسته الأنيق الرشيق ، وقرب الشرطي الواعي ، على الاعتقاد بأنه لن يلبث حتى يحس قبضة القانون الحلوة مطبقة على عضده ، كافلة له الذهاب إلى مشتاه الحبيب .

وعدل سوبى ربطة عنقه الثابتة العقدة والمهداة له من الراهبة ، وأخرج أساور القميص من حيث انكمشت تحت الأكمام ، وأمال قبعته إلى زاوية قاتلة ، وتنحنح ، ثم ابتسم وغمز بعينه ، واندفع برقاعة إلى وقاحة المتيم السليط ، والشرطي - كما رآه سوبي بركن عينيه - يرقبه لا يريم . وتحركت الفتاة بضع خطوات ، ثم عادت إلى مصابن الحلاقة تركز عليها اهتمامها المستغرق ، فتبعها سوبى وخطا إلى جانبها بجرأة ، ورفع قبعته قائلاً :

- « أنت يا بادليا! ألا تحبين أن تصحبيني لنلعب معاً في ساحة بيتي ؟ »

وكان الشرطي ما زال يتبعه بعينه ، وما كان على الفتاة المطاردة لو شاءت إلا أن تشير بأصبعها ، فينال سوبى كل بغيته من مشتاه ، وتصور فعلاً أنه يحس الدفء اللذيذ في مركز الشرطة سارياً في أوصاله . بيد أن الفتاة واجهته ملقية إحدى يديها على كمه ، وقالت له في ابتهاج :

- « بالتأكيد يا مايك ، إذا كان في قدرتك أن تعطيني حماماً مملوءاً برغوة الصابون . . لقد كنت على وشك أن أجاذبك الحديث من نفسي ، لولا أن رأيت الشرطي ينظر إلينا » .

واجتاز سوبى موقف الشرطي ، والفتاة متعلقة بذراعه تعلق اللبلابة بشجرة البلوط ، وهو غارق في اليأس كأنه محكوم عليه بالحرية .

وعند الناصية التالية نصل من رفيقته ، وفر منها راكضاً ، لم يقف إلا في الحي الذي تتلألأ الأنوار فيه بالليل ، وتخف القلوب ، والعهود والأغاني ، وتطفر النساء بفرائهن ، والرجال بمعاطفهم ، مرحين في برد الشتاء . . . واستبد بسوبى ذعر مفاجئ من أن تكون رقية مروعة قد زودته بمناعة من القبض عليه!! وجال هذا الخاطر في نفسه محفوفاً بآثاره من العذاب . وعندما قادته قدماه إلى شرطي آخر يسترخي بوقار أمام مسرح يتلألأ بالأضواء ، قام في نفسه بغتة أن يتعلق تعلق الغريق بقشة « الفعل الفاضح »!

ومن حيث وقف في منعطف الطريق بدأ سوبى يصرخ صراخ الثمل

بأعلى طبقة من صوته الخشن ، ثم راح ينبح ويهذي ، ويقلق حتى سكان السماء .

وهز الشرطي عصاه ، ثم أدار ظهره لسوبى وقال لشخص ما مر به :

– « إنه صبي من صبيان جامعة ييل يحتفل ببيضة الأوزة التي يمنحونها لكلية هارتفورد . يضوضى ، نعم ، ولكنه لا يؤذي ، ولدينا أوامر بتركهم أحراراً » .

وشف سوبى الأسى ، فكف عن عربدته غير المجدية ، وساءل نفسه : أما من شرطي يقبض عليه ؟ وخيل إليه أن السجن أصبح جنة لا سبيل إليها ، وزر سترته الرقيقة ليدرأ بها عن نفسه الزمهرير .

وفي أحد حوانيت السجائر رأى رجلاً أنيق الثياب يشعل سيجاراً من شعلة تتراقص ، وقد ترك مظلته الحريرية بجوار الباب عندما دخل . فاقتحم سوبى الحانوت ، وأخذ المظلة ، ومشى يتسكع بها على مهل ، فجرى وراءه الرجل بالشعلة ، وصاح به في جفاء :

– « هذه مظلتي! »

وقال سوبى في تهكم أضاف فيه الوقاحة إلى هذا الاختلاس الصغير :

– « آه! أتظنها كذلك ؟ حسناً فلم لا تستنصر الشرطي . إني أخذتها . أخذت مظلتك! فلم لا تستغيث ؟ ها هو ذا شرطي على ناصية الطريق » .

وطامن صاحب المظلة من خطاه ، وكذلك فعل سوبى ، يخالجه شعور خفي أن الحظ سيعاود الوقوف في سبيله . . وتطلع الشرطي فيهما بفضول . .

قال صاحب المظلة :

– « طبعاً . . هذه كثيراً ما تحدث مثل هذه الأخطاء . وآمل ما دامت مظلتك أن تعذرني ، فقد أخذتها من المطعم في الصباح ، وما دمت تبينت فيها مظلتك ، فأرجو أن . . . »

قال سوبى في خبث :

– طبعاً هي مظلتي!

وانسحب صاحب المظلة السابق ، وأسرع الشرطي ليعين شقراء فارعة ، تلبس معطف سهرة فاخراً ، على عبور الشارع أمام سيارة أوتوبيس مقبلة من بعيد .

ومشى سوبى شرقاً في طريق عامر بحفائر الاصلاح ، فرمى المظلة محنقاً في حفيرة منها ، ولعن حاملي العصى ولابسي الخوذات ، أولئك الذين يحسبونه – لأنه يشتهي الوقوع في قبضتهم – ملكاً معصوماً ، ذاته لا تمس .

ووصل سوبى في النهاية إلى شارع من شوارع المدينة الشرقية خبا فيه الضوء ، وهدأت الحركة ، فمشى فيه صوب ميدان ماديسون ، لأن غريزة المأوى تحيا ولو كان البيت دكة في متنزه عام .

ولكن قدميه كفتا عن الحركة تماماً عندما أتى ركناً استتب الهدوء فيه على حال غير مألوف ، وكانت ثمة كنيسة قديمة ، غريبة الطراز ، كثيرة المنحنيات ، هرمية السقف . ومن خلال الزجاج البنفسجي المصدوع في إحدى نوافذها ، لاح ضوء ضئيل ، من حيث كان عازف الارغن دون شك ، يغازل مفاتيح النغم فيه بهدوء ، ليستوثق من قدرته على عزف نشيد السبت المقبل ، فقد استقبلت أذن سوبى انغاماً حلوة ملكت عليه لبه ، وسمرته في تعاريج السياج الحديدي .

كان القمر مشرقاً يتلألأ في صفاء ، والسيارات والمشاة ندرة في الطريق ، والعصافير تزقزق غافية على أطناب البناء ، وكاد المنظر ينم عن كنيسة قروية . ولقد شد اللحن الذي كان يعزفه عازف الارغن سوبى إلى السياج شداً ، لأنه عرف هذا اللحن يوم كانت تعمر حياته تلك الأشياء التي تسمى الأمهات ، والورد ، والطموح ، والأصدقاء ، والأفكار ، والأوشحة النظيفة .

واستطاع اختلاط هذه الحالة العقلية المتفتحة ، بالمؤثرات التي هزت نفس سوبى من الكنيسة القديمة ، أن تحدث في روحه تطوراً فجائياً

عجيباً ، عرض فيه تحت ومضة من ومضات الذعر الهوة التي تردى فيها ، وأيام الهوان ، والشهوات الدنيئة ، والآمال الميتة ، والمواهب المصدوعة ، والنزوات الوضيعة التي تألف منها وجوده . . .

وفي لحظة كذلك استجاب قلبه بعنف لهذا الشعور الجديد ، وثارت في نفسه نزعة جارفة مباغتة لمصارعة حظه المغرق في القنوط . إنه سيجذب نفسه من الوحل ، وسيقهر نوازع السوء التي ملكت قياده . . وما زال في الوقت متسع ، وفيه بقية من شباب . . وسيبعث من أكفانها مطامع صباه الوثابة ، ويجاهد في سبيلها بلا تعثر . إن ألحان الأرغن الحلوة الخاشعة قد أنشبت فيه ثورة ، وسيذهب غداً إلى حي المدينة الصاخب يبحث فيه عن عمل . لقد عرض عليه مستورد للفراء ذات يوم أن يعمل له سائقاً ، وسيجده في الغد ، ويلتمس منه أن يلحقه بهذا العمل ، وسيصبح كائناً له أثره في الحياة وسيكون . . .

وأحس سوبى بيد توضع على ساعده ، فتلفت على عجل ، فوقع بصره على وجه عريض ، وجه شرطي يسأله :

– « ماذا تصنع هنا ؟ »

قال سوبى : « لا شيء »!

قال الشرطي : « إذن فتعال معي »

وقال قاضي المحكمة في صباح اليوم التالي : « ثلاثة أشهر في الليمان! »

هدايا المجوس[1]

كان كل ما معها دولاراً وسبعة وثمانين دانقاً ، منها ستون دانقاً فرادى ، اقتطعتها بالدانق والدانقين من الشجار مع البدال والبقال والقصاب ، إلى أن تحمر وجنتاها خجلاً مما تلقى على شحها من الاتهامات الصامتة التي لابد منها في مثل هذه المساومات . . ولقد عدتها ديلا ثلاث مرات دولاراً وسبعة وثمانين دانقاً . واليوم التالي عيد الميلاد . .

واتضح لها أنه ما من شيء تستطيع عمله ، إلا أن تنحط على الكنبة الصغيرة الرثة وتبكي! وكذلك فعلت ديلا ، وذلك ما يعزز الرأي القائل بأن الحياة تتكون من الدموع والتنهدات والبسمات ، وللتنهدات الغلبة .

فلندع ربة البيت تفش غلها رويداً ، ولنلق نظرة على البيت : إنه مسكن مؤنث ، إيجاره ثمانية دولارات في الأسبوع ، فقره لا يعجز الوصف تماماً ، وإن سهل على أي متسول أن يرى طابعه على الباب .

وكان في دهليزه الأسفل صندوق للرسائل لم يحظ برسالة قط ، وزر جرس كهربائي لا تستطيع أصبع بشرية أن تروضه على الرنين . وعلى مقربة منه كانت بطاقة تحمل اسم «السيد جيمس ديلنجهام يونج» .

ان اسم ديلنجهام كان يلتمع في عهد سعيد سلف ، يوم كان صاحبه يتقاضى ثلاثين ريالاً في الأسبوع . فأما وقد انكمش الدخل

---

١ - المجوس: قوم جاءوا إلى السيد المسيح وهو رضيع في المهد، فأغدقوا عليه الهدايا بين ذهب ومر ولبان.

اليوم إلى عشرين ريالاً ، فإن أحرف الاسم كادت تنطمس كما لو كانت تفكر جدياً في الاختزال إلى حرف (د .) المتواضع . . بيد أن السيد جيمس ديلنجهام يونج ما كان يعود إلى البيت ويصل إلى مسكنه في الطابق الأعلى حتى يدعى « جيم » ، وتتلقاه بالعناق السيدة جيمس ديلنجهام يونج التي سبق تقديمها إليك باسم ديلا . وياله كله من حال جميل .

فرغت ديلا من بكائها ، وأزالت على وجنتيها أثر الدموع بالذرور ، ووقفت إلى النافذة تنظر منها بكآبة إلى قطة رمادية ، تمشي على سور رمادي ، في رحبة رمادية . غداً عيد الميلاد ، وليس معها أكثر من دولار وسبعة وثمانين دانقاً ، لتشتري هدية لجيم . لقد ادخرت كل دانق استطاعت ادخاره خلال شهور ، وهذا هو الرصيد . . إن عشرين ريالاً في الأسبوع لا تغني . والنفقات زادت على ما كانت تقدر . وكذلك الحال على الدوام . وعليها أن تشتري من الدولار والسبعة والثمانين دانقاً هدية لجيم – لحبيبها جيم – ولكم قضت من ساعات حلوة تفكر في شيء جميل تقدمه إليه ، شيء أنيق ، نادر ، أصيل . . شيء يمكن ببعض التجاوز أن يحظى بشرف الانتماء إلى جيم .

وكانت مرايا مضلعة الزجاج تكسو الجزء الواقع بين نوافذ الحجرة من الجدار . ولعلك رأيت هذه المرايا المضلعة في مسكن إيجاره ثمانية دولارات . ان جسماً نحيلاً على غاية من المرونة والقدرة على التثني قد يستطيع أن يتبين صورته عليها في مزق مستطيلة تتوالى بعضها وراء بعض . ولما كانت ديلا نحيفة القوام فقد حذقت هذا الفن .

واندفعت بغتة من النافذة ووقفت أمام المرآة بعينين تتلألآن . . ولكن ما هي إلا ثوان حتى امتقع لونها ، وما أسرع ما حلت شعرها وتركته يتهاوى حولها على طوله .

إن جيمس ديلنجهام يونج وامرأته كان لهما ملكان[1] ، وكانا لكليهما مصدر فخار عظيم : الأول ساعة جيم الذهبية التي ورثها عن

---

١ – الملك، بضم الميم، ما يملكه الإنسان.

أبيه ، وورثها أبوه عن جده . والثاني شعر ديلا . ولو أن بلقيس ملكة سبأ كانت تعيش في المسكن المقابل من المنور ، لأرسلت ديلا يوماً ما شعرها من النافذة ليجف ، لا لشيء إلا لتكايد جواهر جلالتها ، وتزرى بما عليها من نفائس . ولو أن الملك سليمان كان قيم البيت ، وكانت كنوزه مكدسة في القبو ، لأخرج جيم ساعته كلما مر به لا لشيء إلا ليراه ينتف لحيته من الحسرة والكمد .

كذلك تساقط شعر ديلا الفاتن من حولها ، مائجاً براقاً كينبوع من عسل ، واصلاً إلى ما تحت ركبتيها ، كاسياً إياها بمثل القباء أو يكاد . ثم لم تلبث أن عقدته فوق رأسها باضطراب ، وغمغمت لحظة ، ثم وقفت كالصنم ، تتساقط منها عبرة أو عبرتان على البساط الأحمر البالي .

وفي لحظة ارتدت سترتها الرثة البنية اللون ، واتبعتها على عجل بقبعتها الرثة البنية اللون ، ورمت قمصانها حيثما اتفق ، واندفعت كالسهم إلى الباب فصفقته من خلفها بعنف ، وهبطت السلم إلى الطريق ، وبريق عينيها يتلألأ كما كان .

ووقفت عند باب كتب في لافتة عليه « مدام سوفروني - لوازم شعر من كل نوع » ، فصعدت ديلا إلى الطابق الثاني ركضاً ، واستردت أنفاسها من أثر اللهاث ، وألفت نفسها أمام مدام سوفروني البدينة البيضاء كالشمع ، الباردة كالثلج ، التي لا تشبه من قريب اسم سوفروني الرقيق .

وقالت ديلا : « ألك في شراء شعري . . ؟ »

قالت السيدة : « إني أشتري الشعر . . أخلعي قبعتك ودعيني أنظر إليه . . »

وسال ينبوع العسل!

قالت السيدة وهي ترفع غدائر الشعر بيد خبيرة :

- عشرون دولاراً .

قالت ديلا : « الي بها على عجل » .

ورفعت الساعتان التاليتان بأجنحة من غلائل الورد - وتناس هذه

الاستعارة المهلهلة - فإن ديلا كانت تنقب في الدكاكين عن هدية جيم ، ووجدتها في النهاية . . وفي الحق أنها كانت كأنما صنعت لجيم دون سواه ، فما كان لها شبيه في السوق التي قلبتها ظهراً لبطن . وتتألف من سلسلة من البلاتين لساعة جيب ، بسيطة أنيقة في تصميمها البديع . ينم عن نفاستها جوهرها وحده ، لا ما يحليها من زخارف ، كما ينبغي أن تكون كل الأشياء الطيبة . بل انها كانت من النفاسة بحيث تليق بالساعة . وهي شبيهة به ، يجمع بينهما جامع النفاسة والهدوء . ولقد دفعت فيها واحداً وعشرين دولاراً ، وأسرعت إلى البيت ومعها الدوانق السبعة والثمانون . إن جيم وهذه السلسلة في ساعته قد يشوقه أن يعرف الوقت في أي مجلس يضمه . فلطالما نظر إلى الساعة على فخامتها خفية ، بسبب تلك القطعة من الجلد التي كان يعلقها بها في مكان السلسلة . .

وعندما عادت ديلا إلى البيت كانت نشوتها قد ثابت إلى شيء من الفطنة والعقل ، فأخرجت مكواة الشعر ، وأوقدت النار ، وشغلت نفسها باصلاح ما غال منها الجود والحب ، وما أشقه من عمل ينوء به فيل . .!

وفي أربعين دقيقة تغطى رأسها بوفرة[1] من خصل الشعر الصغيرة المتضامة ، جعلتها أشبه ما تكون بغلام في اصلاحية أحداث ، وراحت تتأمل بنظرات طويلة ناقدة صورتها في المرآة!

وقالت لنفسها : « إن لم يقتلني جيم لأول وهلة ، فسيشبهني بمغنية نكرة في مدينة الملاهي . ولكن ماذا كان في قدرتي أن أصنع بدولار وسبعة وثمانين دانقاً . . ؟ »

وفي الساعة السابعة أعدت القهوة ، وكانت المقلاة على مقربة من الموقد المشتعل ، مهيأة لقلي شرائح اللحم النيء . .

إن جيم لم يكن يخلف ميعاده قط . فطوت ديلا السلسلة في يدها وجلست على حافة المائدة المواجهة للباب الذي يدخل منه على الدوام ،

---

١ - الوفرة، ما بلغ شحمة الأذن من الشعر.

وما لبثت أن سمعت وقع أقدامه على سلم الطابق الأول ، وامتقع لونها لحظة ، وكان من عادتها أن تصلي صلاة قصيرة صامتة كلما همت بشيء مهما تفه ، فتضرعت هامسة : « يا رب ألهمه من فضلك أن يراني جميلة كما كنت » .

وفتح الباب ، ودخل جيم ، بادياً عليه النحول والكآبة ، وياله من مسكين يحمل أعباء أسرة في الثانية والعشرين ، معطفه الرث في حاجة إلى التغيير ، ويداه بلا قفاز .

وقف جيم خلف الباب مشلول الحركة ، ككلب يتنسم رائحة الطريدة ، وتركزت على ديلا عيناه ، في نظرة لم تدرك كنهها ، ملأتها رعباً . نظرة ليس فيها غضب ولا دهشة ولا انكار ولا ذعر ولا أية عاطفة تهيأت لملاقاتها . كان شاخصاً إليها وحسب بتلك النظرة الخرساء .

ونحت ديلا المائدة وهرعت إليه صائحة :

« حبيبي جيم . . لا تنظر إلي هكذا . وقد قصصت شعري وبعته ، لأني لم أجرؤ أن أواجه عيد الميلاد بلا هدية لك . . لا عليك ، سيكبر من جديد . . لقد كان حتماً علي أن فعل . . أن شعري ينمو بسرعة مدهشة . جيم . قل لي : عيد ميلاد سعيد . ولنسعد بالعيد ، انك لا تعلم بأية هدية جميلة حلوة سأهديك » . .

وتساءل جيم في عسر : « أقصصت شعرك . . ؟ » وكأنما أعياه ادراك هذه الحقيقة الجلية حتى بعد ما بذل من جهد عقلي عنيف .

قالت ديلا : « أجل قصصته وبعته . ألست تحبني الآن كما كنت تحبني من قبل . . ؟ على أية حال . إنني أنا أنا ولكن بلا شعر ، ألست كذلك . . ؟ »

وأدار جيم طرفه في الحجرة على منوال غريب ثم قال ، وكأنما بله أو كاد : « تقولين أن شعرك زال . . ؟ »

قالت ديلا : « أبك من حاجة لأن تنظر إليه . . ؟ لقد قلت لك إنه بيع ، بيع وانتهى كذلك . هذه ليلة عيد الميلاد ، يا رجل أرفق بي فقد أضعته من أجلك . . ! »

ثم طافت بصوتها بغتة حلاوة هائلة وهي تقول : «لعل شعر رأسي كان يمكن أن يعد أو يحصى ، ولكن حبي لك لا يقبل العد والإحصاء . هل أضع المقلاة على النار . . ؟»

وأفاق جيم من ذهوله بغتة فعانق ديلاه .

ودعونا في عشر ثوان نمعن النظر في شيء طفيف وقع للطرف الثاني . أي فرق بين ثمانية دولارات في الأسبوع ومليون دولار في العام . . ؟ إن الحسابة أو سريع الخاطر سيخطئان حتماً في الإجابة عن هذا السؤال . ولقد حمل المجوس هدايا نفيسة للسيد المسيح ، ولكن الشيء الطفيف الذي نعنيه لم يكن بين هذه الهدايا .

ودعونا نلقى شعاعاً من الضوء على هذا الابهام .

أخرج جيم من جيب معطفه لفافة وألقى بها على المائدة ثم قال : «لا تسيئي بي الظن يا ديلا ، فلست أحسب أن قص شعرك أو غسله أو تهذيبه ، أو شيئاً مما يجري في هذا المجرى يستطيع أن يزعزع حبي إياك ، ولكن لعلك لو حللت هذه اللفافة لأدركت لماذا انتابني الذهول»!

وعملت الأصابع البيضاء في فك اللفافة بخفة ، وتلت ذلك صيحة فرح نشوان ، ثم وا أسفاه : انقلاب أنثوي سريع على البكاء والنحيب ، تطلب من رب البيت أن يحشد له على عجل كل مواهبه في التعزية والترفيه . .

وقد كان في اللفافة طاقم من الأمشاط في علبة يتجاوز فيها ظهراً لبطن . . أمشاط كانت ديلا تتعبد لها منذ زمن طويل في معرض من معارض التحف بشارع برودواي . .! أمشاط جميلة من صدف السلاحف النقي ، ذات حواش مطعمة بالجوهر بلون ينسجم مع جمال الشعر المقصوص . ولقد كانت تدرك نفاسة هذه الأمشاط ، ومن أجل ذلك كان قلبها يحن إليها ، ويتلهف دون لمحة أمل في أن تكون لها . وهي الآن ملكها ، ولكن غدائر الشعر التي كان ينبغي أن تزين هذه الحلية المشتهاة لم يعد لها وجود .

ومع ذلك فقد ضمتها إلى صدرها ، واستطاعت بعد لأي أن تنظر إليها بعيون خابية ، وتقول باسمة : «إن شعري سريع النمو يا جيم» . .

ثم وثبت ديلا وثبة هرة محرقة وصاحت : «أوه . . أوه»

إن جيم لم ير هديته بعد ، فرفعتها له على راحتها المبسوطة . . وبدا المعدن النفيس الخابي ، وكأنه يتوهج بشعاع ينعكس عليه من روحها الوهاجة الوامقة .

– «أليست جميلة يا جيم ؟ لقد ذرعت المدينة في سبيلها . إنك تستطيع الآن أن تتعرف الوقت مائة مرة في اليوم . هات الساعة . أريد أن أعرف كيف تنسجم معها» .

وبدلاً من أن يلبي النداء تهالك جيم على الكنبة ، وشبك راحتيه على قفاه ، وضحك ثم قال : «ديلا . . . دعينا ننحي هدايا العيد جانباً إلى حين . . إنهما أجمل من أن يصلحا للوقت الحاضر . لقد بعت الساعة لأحصل على ثمن الأمشاط . والآن أليس الأوفق أن تضعي اللحم في المقلاة . . ؟»

***

إن المجوس كما تعلمون عندما جلبوا هداياهم للسيد المسيح وهو طفل في المزود ، كانوا حكماء حكمة بالغة ، وهم الذين ابتدعوا فن الاهداء في عيد الميلاد . ولما كانوا حكماء جاءت هداياهم حكيمة دون ريب ، ولعل مزيتها كانت إمكان المبادلة عليها بسواها . . إذا كان لدى المهدي إليه مثلها . وهأنذا قد رويت لكم قدر ما يوسع قلمي العاجز ، التاريخ السلس لطفلين أحمقين ضحى كل منهما بطيش في سبيل الآخر ، بأغلى ما يملكان من كنوز!! وليكن الختام كلمة نقولها لحكماء هذا الزمن : إن هذين الاثنين أحكم من أهدى ومن أهدي إليه في كل زمان ومكان ، إنهما هما المجوس .

كف توبين : طالع السعد

ذهبنا معاً - توبين وأنا - إلى مدرسة الملاهي ، فقد كنا نمتلك أربعة دولارات ، وكان توبين في حاجة إلى السلوى ، إذ أن حبيبته كاتي ماهورنر من أقليم سليجو ، انقطعت أخبارها عنه منذ بدأت رحلتها إلى أمريكا قبل ثلاثة أشهر ، حاملة مائتي دولار كانت كل ما ادخرته ، ومائة أخرى باعت بها ما ورثه توبين من ممتلكات على مستنقعات شانو (بايرلندة) . ويتكون هذا الميراث من كوخ لطيف وخنزير . ومنذ أن تسلم رسالتها التي أعلمته فيها أنها قادمة إليه ، لم يسمع عنها خبراً ، ولا اكتحلت له برؤيتها عين . ولجأ توبين إلى الإعلان في الصحف ، ولكنه لم يقف على أثر للفتاة .

وكذلك ذهبنا إلى الملاهي أنا وتوبين ، وكلي أمل أن زلقة على الزوارق المنزلجة ، إذا أضيف إليها عبق «الفشار» ، قد تبعث إلى قلبه نسمة عزاء . ولكن توبين كان صعب المراس ، وكان الأسى يملأ اهابه ، فقرع السن غيظاً من صوت المزامير ، وقابل أشباح خيال الظل باللعنات ، ورغم أنه لم يرفض دعوة إلى كأس ، فان نشوة الخمر لم تزده إلا حردا على شخوص «الاراجوز» ، يكاد يتحرش بها كلما ظهرت .

لذلك نحيته إلى منعطف جانبي من المدينة ، مكسو بألواح الخشب ، كانت الملاهي فيه أقل صخبا . فما أن مررنا بصومعة لا تزيد

مساحتها على ستة في ثمانية أقدام ، حتى وقف منفرج الأسارير عن نظرة ، أقرب إلى نظرات البشر ، ثم قال :

– «هنا أستطيع أن أتسلى . . هذه عرافة النيل العجيبة ، سأقرئها كفي ، وأرى أيكون ما قدر لي فيها أن يكون» .

كان توبين يؤمن بالآيات والخوارق ، وكان عقله مكتظاً بالعقائد الشاذة حول القطط السوداء ، والأرقام المحظوظة ، ونبوءات الطقس في الصحف .

ودخلنا عش الدجاج المسحور ، وقد هول بسجف حمراء ، موشاة بصور الاكف تقاطعت خطوطها وتشابكت ، كأنها ملتقى طرق حديدية ، وكتب على لافتة ببابه «مدام زوزو – العرافة المصرية» .

وألفينا بالداخل امرأة بدينة ترتدي صداراً أحمر مطرزاً بالشصوص المعقوفة وصور الوحوش ، فأعطاها توبين عشرة دوانق ، وبسط لها كفاً كأنها حافر البغل ، فراحت تطالعها له لنرى أتتكشف عن لؤلؤة في الشبكة أم عن نعل قديم .

وقالت مدام زوزو :

– «يا رجل . . . إن خط الحظ عندك يدل على قدم[1]» .

فقاطعها توبين :

– «وهذه ليست قدمي البتة ، وما هي جميلة عن يقين ، ولكنها يدي ما تمسكين» .

واستأنفت السيدة :

– «ويقول الخط ان حياتك حتى اليوم لم تكن مفروشة بالورود . لقد صادفتك نحوس ، وما زالت أمامك نحوس . ويدل نتوء الابهام .

– أو لعل هذا ندبة جرح قديم – على انك وقعت في غرام ، وانك لقيت في حياتك نصباً من معقد هواك . .»

وأمال توبين رأسه نحوي ، وهمس بصوت هادر مسموع :

– «إنها تشير إلى كاتي ماهورنر . . .»

---

١ – القدم، السابقة في الأمر خيراً كان أم شراً.

قالت العرافة :

– « وأرى كثيراً من الأحزان والخطوب ترتبط بشخص لا تستطيع أن تنساه ، وأرى في خطوط الدلالة إشارة إلى حرفين في اسمها : الكاف والميم » .

قال توبين في دهشة : « هست! . . . أتسمع ما تقول ؟ »

ومضت العرافة فيما كانت تقول :

« حذار من رجل أسمر ، وامرأة شقراء ، كلاهما سيجلبان لك متاعب . وستركب البحروشيكا ، وتمنى بخسارة في المال . بيد أني أرى خطا فيه لك حظ سعيد . إن رجلاً سيدخل في حياتك يأتيك منه خير كثير ، وستعرفه بأنفه الأعوج عندما تراه » .

وساءلها توبين :

« هل تجدين اسمه مكتوباً ؟ سيعين هذا على بدئه بالتحية ، عندما يظهر ، ليملأ وطابي بالخير الكثير » .

قالت العرافة ناظرة نظرة المتأمل :

« خطوط كفك لا تبوح باسمه ، ولكنها تدل على انه اسم طويل ، وينبغي أن يكون فيه حرف واو ، وليس ثمة شيء آخر يقال . عم مساء ، ولا تغلق الباب » .

وبينما نتمشى نحو « الكورنيش » قال توبين : « ما أبرعها عرافة! »

وإذ نعبر باب الرصيف البحري ونشق طريقنا في غمرة الزحام لسع زنجي بسيجاره المشتغل إذن توبين . وبدأت المتاعب ، فإن توبين وكزه في قفاه ، فعلا صراخ النساء ، وببديهة سريعة نحيت الزنجي الضئيل عن الطريق ، قبل أن يحضر الشرطة ، فإن توبين إذا ركب رأسه لم تعرف لفظاظته حدود .

وسمعنا ونحن عائدان من نزهتنا البحرية رجلاً ينادي :

– « من ذا الذي طلب الساقي الرشيق ؟ »

وحاول توبين أن يلقي التهمة على نفسه ، فقد أحس برغبة في نفخ

الرغوة من كأس من الجعة ، ولكنه عندما وضع يده في جيبه ، تبين له أنه بريء لعدم كفاية الأدلة! إن أحداً ما قد سرق الدوانق التي كانت معه خلال ما حدث من هرج ومرج! وكذلك جلسنا في مقاعدنا عطاشاً نصغي إلى الألحان التي كانت تزجيها فرقة داجوس على ظهر السفينة . وما من شيء تغير على هذه الألحان إلا روح توبين التي بدت أتعس مما كانت عندما بدأنا النزهة ، وأشد سخطاً على خطوبه وبلاياه .

وكانت تجلس على مقعد بجوار سياج الزورق امرأة شابة ترتدي ثياباً تفحش في الأناقة ، يكسو رأسها شعر أشقر ذميم الشقرة ، وإذ يمر بها توبين داس قدمها عفواً ، ولما كان الأدب مع النساء من شيمته وهو مخمور ، فقد خلع قبعته ، وحاول أن يديرها بيده في حركة اعتذار ، فهوت منها ، وحملتها الريح فألقت بها في الماء .

وعاد توبين فجلس ، وفي نفسي قلق من توالي شدائده على هذا المنوال ، فقد كان من شيمته إذا بالغ سوء الحظ في تحديه ، أن يصبح عرضة لأن يركل أي رجل يلقاه مهما تأنق في ثيابه ، ولعله قد يحاول أن يهيمن على الزورق اغتصاباً .

ولكنه لم يلبث حتى قبض على ذراعي بقوة ، وقال وهو جذلان :

– «جون . . أتدرك ما نحن فيه ؟ إننا نركب البحر . .»

قلت : «لا عليك . . هدئ من روعك . . في عشر دقائق يرسو بنا الزورق على الشاطئ» .

قال : «وانظر إلى السيدة الشقراء الجالسة على الدكة المقابلة . ولعلك لم تنس الزنجي الذي كوى أذني . ثم ألست أضعت من المال ريالاً وخمسة وستين دانقاً ؟»

وحسبته يحصي مصائبه حتى يتخذ منها مبرراً للعنف ، كما يفعل الناس عندما يخلقون عللاً من هواهم لكل ما يفعلون ، فحاولت أن أفهمه تفاهة مثل هذه الأشياء .

فقال توبين :

– «اسمع يا رجل . . إن في أذنك وقرا لاتفقه موهبة النبوة ، ولا

اعجاز الملهمين . ماذا روت لك السيدة العرافة من أسرار كفي ؟ إنه يتحقق أمام عينيك . لقد قالت حذار من رجل أسمر ، وامرأة شقراء ، فمنهما تأتيك متاعب . فهل نسيت الزنجي ، وإن نال من قبضتي بعض الجزاء ؟ وهل في وسعك أن تريني امرأة أشد شقرة من تلك السيدة التي تسببت في اسقاط قبعتي في الماء ؟ وأين هو الدولار والخمسة والستون دانقاً التي كانت معي عندما غادرنا جناح الرماية ؟ » .

وكأنما الأسلوب الذي صاغ به توبين ما أصابه ، حجة لفن العرافة ، وإن بدا لي أن هذه الحوادث كان يمكن أن تحدث في الملاهي لأي مخلوق دون تدخل العرافة .

ونهض توبين وتجول هنيهة على سطح الزورق ، محملقاً في ركابه بعينيه الصغيرتين المحمرتين ، فسألته تفسير ما يفعل ، فإنك لا تدري ما يدور في خلد توبين ، حتى يضعه موضع التنفيذ .

قال : « ينبغي أن تعلم أني أبحث عن تحقيق ما وعدتني به كفي ، عن ذلك الرجل ذى الأنف الأعوج ، الذي سيجلب لي الخير الكثير . إنه لنا مطلع الرجاء . هل عرفت قط في حياتك يا جون عصبة من الشياطين أشد استقامة أنوف من هؤلاء الركاب ؟ »

لقد كان الزورق الذي ركبناه زورق التاسعة والنصف مساء ، فلما رسا ، تمشينا صعداً في الشارع الثاني والأربعين ، وتوبين مكشوف الرأس .

وفي ركن منعطف من الطريق عثرنا برجل يقف تحت مصباح غازي من مصابيح الشارع ، شاخصاً إلى القمر المشرق فوق الطريق الهندسي الصاعد . وكان رجلاً فارع الطول محتشم الثياب ، بين ثناياه سيجار ، ورأيت أنفه يلتوي من أرنبته إلى أعلى قصبته مرتين ، كأنه ثعبان ، وفي نفس اللحظة وقعت عين توبين على أنف الرجل ، فتنفس الصعداء كجواد متعب أزيح السرج من فوق ظهره ، واندفع إلى الرجل كالسهم ، فتبعته . .

وقال توبين للرجل : « سعدت مساء »

فأخرج الرجل السيجار من فمه ، ورد التحية بسماحة .

وقال توبين : «هل لك أن تلقي باسمك إلينا لنرى إلى أي حد يطول ، فقد يصبح لزاماً علينا أن نتعارف ؟ »

وأجاب الرجل في أدب : « إن اسمي فرايدان هافزمان – ماكسيمس . فرايدان هافزمان »

قال توبين : «هذا هو الطول المراد . فهل يظهر حرف الواو في هجائه بأي مكان ؟ »

قال الرجل : « كلا » . .

فتساءل توبين في قلق : «ألا يمكن أن تتهجاه بالواو ؟ »

فأجاب ذو الأنف : « إذا ضاق ذرعك باللغات الأجنبية ، وشئت أن تفعل بها ما يحلو لك ، فقد يمكن أن احشر الواو حشراً في المقطع الذي يسبق الأخير » .

قال توبين : «هذا حسن ، فاعلم أنك بحضرة جون مانون ودانييل توبين » .

وانحنى الرجل قائلاً : «لي عظيم الشرف ، ولكن ما دمت لا أستطيع أن أجد علة لهذا الاستجواب على قارعة الطريق ، فهل لك أن توضح لي سر هذا التبسط ؟ »

فأجاب توبين محاولاً الإيضاح : «فيك سمتان مما قرأته في كفي العرافة المصرية ، تؤهلانك لأن تكون مطلع السعد في أفق النحس الذي قادني إليه الزنجي الأسود ، والسيدة الشقراء ذات القدمين المتشابكتين على ظهر الزورق ، مضافاً إليهما خسارتي المالية لدولار وخمسة وستين دانقاً . وكلها تنبؤات تحققت بالحرف حتى الآن » .

وكف الرجل عن التدخين ونظر إلي متسائلاً : «ألديك أية تنقيحات لهذا القول ؟ أو لعلك مهفوف[1] آخر ؟ يخيل إلي من نظراتك انك مقدر لما كان يجب عليك من القبض علي! »

وأجبته : «ليس عندي ما أضيفه ، إلا أن شخصك والحظ الطيب الذي تنبأت به كف صاحبي تتشابهان حذوك النعل بالنعل . فإن لم

---

١ – المهفوف، الأحمق.

يصدق ذلك ، فلابد أن الخطوط تشابكت خطأ في كف داني ، وهذا ما ليس لي به علم! »

قال ذو الأنف وهو يذرع الطريق بعينيه باحثاً عن شرطي : « أنتما اثنان إذن . طاب مساؤكما . لقد سعدت بصحبتكما كثيراً » .

ثم وضع السيجار في فمه ، وهرول يعبر الطريق ، ولكن ما أسرع ما لاصقه توبين من جانب ، ولاصقته من الآخر .

ووقف الرجل على الطوار المقابل ، وأزاح قبعته إلى قفاه وصاح : « ما هذا ؟ ألعله طراد ؟ اليكما ما أقول : أني سعدت بلقائكما . نعم ، ولكن لي رغبة في أن أتخلص منكما الآن . . إنني عائد إلى منزلي » .

وقال توبين متكئاً على ذراعه : « عد إلى بيتك . وستراني مقعياً على بابه في الصباح . فعليك اعتمادي كله في محو لعنة الزنجي الأسود والسيدة الشقراء ، والغرم المالي للدولار والدوانق الخمسة والستين » .

قال الرجل وهو يلتفت إلي كمجنون أعقل : « هذا خلط عجيب . أليس الخير أن تعود به إلى بيته ؟ »

فقلت له : « اصغ يا رجل . إن دانييل توبين الآن كأعقل ما كان . لعله مضطرب نوعاً ، فقد شرب ما يكفي لبث الاضطراب ، وان قصر عن إضاعة الرشاد ، وهو لم يعد أن سلك السبيل الذي بسطته له خرافاته ورزاياه ، ذلك السبيل الذي سأصف لك إياه » .

ورحت أروي له ما قالت العرافة ، وكيف أن أصبع الشك يتجه نحوه كمطية للحظ السعيد .

واختتمت حديثي قائلاً : « إنك تدرك الآن موقفي من هذا الشغب . فإني كما أعتقد صديق لصديقي توبين . ومن اليسير أن تكون صديقاً للسعداء ، لأن صداقتهم تفيد ، وليس من العسير أن تصادق الفقراء ، لأنك تستطيع أن تزهو بما تلقى من عرفان الجميل ، وبرؤية صورتك منشورة في الصحف وأنت واقف على باب ربع ، وفي كلتا يديك هبة تنعم بها علي يتيم . ولكن ما أشد ما تمتحن الصداقة إذا قدر عليك أن تكون صديقاً حميماً لأحمق أصيل . وهذا هو ما أفعل

الآن ، لأني موقن أن كفي لا يمكن أن تروي عن حظ لم يكتبه عليها مقبض الفأس . وأنت لو أن لك أنفاً هو أشد الأنوف اعوجاجاً في نيويورك ، فما أشك أن كل العرافين الناجحين أعجز من أن يحتلبوك قطرة من الحظ السعيد ، ولكن كف داني تشير إليك خطوطها دون ريب ، وسأعينه على أن يبلوك حتى يؤمن معي أنك بكئ »[1] .

واستحال عبوس الرجل بغتة إلى بشر ، واستند إلى جدار وراح يضحك ملء شدقيه ، ثم صفقنا أنا وتوبين على ظهرينا وتأبط كلا منا بذراع ، وقال :

– « هذه غلطتي . كيف أتوقع من شيء في هذه الرقة وهذا اللطف أن ينقلب شراً علي! لقد أوشكت أن أصبح لئيماً . إن على مقربة منا مقهى لطيفاً يليق لاستقبال النوازع المتضاربة ، فلنذهب إليه ، ولنبحث على هذه الكأس مدى استحالة هذا الترياق » .

وما أتم كلامه حتى قادني وتوبين إلى المقهى ، وفي غرفة نائية فيه أمر بالكؤوس ، واضعاً على المائدة قيمتها من النقود . وراح يعاملنا أنا وتوبين معاملة الأخوة ، ومنح كلاً منا سيجاراً .

ثم قال رجل المقادير : « ينبغي أن تعلما أن سبيلي في الحياة هو ما يسمونه شرعة الأدب . إني أسري في الليل منقباً عن النزوات المتضاربة في البشر ، وعن الحق الصراح في علياء السماء . وعندما وقعتما علي كنت أتأمل في ذلك الممر الهندسي الصاعد ، وعلاقته بكوكب الظلام . إن هذا الممر الضخم هو الشعر والفن في أعين الأمريكيين ، وليس القمر عندهم غير جماد ممل أجرد يتحرك بناموس عام . بيد أن هذه آراء شخصية ، فإن الأمور تنقلب في دنيا الأدب . وإني لآمل أن أكتب كتاباً عن الغرائب التي اكتشفتها في الحياة » .

قال توبين بادي الغيظ : « إذن تضعني في كتاب ، أتضعني حقاً في كتاب ؟ »

قال الرجل : « كلا . . . فلن تسعك دفتاه . ولم يأن ذلك . وخير

---

١ – الناقة البكئ القليلة اللبن.

ما أفعله من أجلك أن أصطنعك لنفسي ، لأن الوقت لم يتهيأ بعد للقضاء على الطاقة المحدودة للمطابع ، وقد تبدو لغزاً على الورق ، فمن الخير أن أحتسي هذه الكأس من السرور وحدي ، بيد أني في الحق يا أصدقائي ممتن لكما شكور » .

قال توبين وهو يضرب المائدة بقبضته ، وينفخ الكلام نفخاً من خلال شاربيه :

– « إن حديثك وجيعة لصبري . ولقد كان في أنفك الأعوج وعد بالسعد ، ولكن جناك أشبه ما يكون يجعجعة الطبول . إنك لتشبه بضوضاء كتبك الريح العازفة في كهف ، ولقد كنت خليقاً منذ الآن أن أكذب كفي فيك عن يقين ، لولا أنها صدقتني في الزنجي الأسود ، والمرأة الشقراء والـ . . . »

وقاطعه الرجل الطويل : « هست! أتخدعك الفراسة ؟ ان أنفي سيفعل ما يستطيع ، ولكن لا تكلفه ما لا يطيق . دعونا نعد ملء هذه الكؤوس ، فمن الخير أن نندي الأخلاط الروحية ، فقد يعرضها الجو الروحي للانحلال » .

ولقد أحسن رجل الأدب في رأيي ، إذ سدد بسرور ثمن كل شيء ، فقد كان استكشاف الغيب استنفد مالي ومال توبين ، ولكن توبين نفسه كان يتألم ، ويشرب في صمت ، ويتوهج الجمر في عينيه .

وما هي إلا هنيهة حتى خرجنا إذ كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، ووقفنا لحظة على الطوار ، ثم قال الرجل إنه لابد عائد إلى بيته ، ودعاني وتوبين أن نرافقه في الطريق . ووصلنا بعد قليل إلى منعطف على جانبيه سلسلة من المنازل المبنية باللبن ، لها ظلل عالية ، وأسوار من حديد ، فوقف الرجل على منزل منها ، وتطلع إلى نوافذه العليا ، فألفاها مظلمة ، فقال :

– « هذا بيتي المتواضع ، واني لأرى من الدلائل ما يقول لي أن امرأتي قد استسلمت للمنام . ومن أجل ذلك أجازف بقليل من كرم الضيافة ، فأدعو كما للدخول إلى قبو البيت فنتعشى ونتساقى بعض

الشراب ، وسنصيب هناك دجاجة باردة طيبة وجبناً وزجاجة أو زجاجتين من الجعة ، وعلى الرحب تدخلان وتأكلان ، فإني مدين لكما بما لقيت من تسلية هذا المساء » . .

ولقد لاءم هذا الاقتراح شهيتنا أنا وتوبين ، ومزاجينا ، ولو أن خرافات دانى وقف في حلقها ، أن تجد في بضع كؤوس وعشوة باردة ، عوضاً عما وعدته به راحة يده من حظ سعيد .

وقال الرجل ذو الأنف الأعوج :

– « أهبطا هذا الدرج ، وسألج المدخل الأعلى ، وأفتح لكما الباب . وسأسأل الخادمة الجديدة المقيمة في المطبخ أن تصنع لكما تنكة من القهوة تشربانها قبل الخروج . إنها قهوة طيبة تلك التي تصنعها كاتي ماهورنر الصبية التي هبطت هذه الأرض منذ ثلاثة أشهر . . . هيا اهبطا وسأبعث بها إليكما في الحال . . »

تيلدى تواجه السعادة

إذا كنت لا تعرف مطعم بوجل العائلي فهذه غلطتك . فلو انك أحد المحظوظين الذين ينفقون على طعامهم بسخاء ، لشاقك أن تعرف ما يفعله النصف الآخر من مواطنيك في أمور القوت . ولو انك من المنتسبين إلى النصف الثاني الذي يعتبر فواتير الندل في المطاعم من الأمور ذات الخطر ، لوجب عليك أن تعرف مطعم بوجل ، حيث تحصل على ما يكافئ نقودك ، من حيث الكم على الأقل .

إن مطعم بوجل يقوم في حي من أحياء الطبقة المتوسطة بالشارع الثامن ، وبه صفان من المقاعد ، وست مناضد في كل صف ، وعلى كل منضدة حامل يحتوي على أوعية زجاجية للملح والتوابل والمشهيات . فمن وعاء الفلفل يمكنك أن تثير سحابة من شيء لا طعم له ، وان أثار من الدمع ما يثير غبار بركان . ومن الملاحة لا تتوقع شيئاً البتة ، فانك قد تقدر على استخلاص الدم من اللفت الشاحب ، ولكنك عاجز لا محالة عن استخراج الملح من ملاحات بوجل . وعلى كل منضدة كذلك زجاجة بها صلصة زائفة ، قيل انها مأخوذة عن تركيب لأحد الأمراء الهنود .

ويجلس بوجل على مكتب الحساب ، بارداً ، خاملاً ، ضئيلاً ، متئداً ، وهو يأخذ نقودك ، ويرد إليك باقيها خلف تل من مساوك الأسنان ، ويحتفظ بفاتورة الحساب ، ثم يحدثك بكلمة عن الجو في نقيق

كنقيق الضفدع . ويجدر بك ألا تقامر بمناقشته في حالة الجو ، وقد لا تتلاقيان مرة أخرى قبل أن ينفخ ميكائيل في الصور ، فخذ بقية حسابك ، واذهب إذا شئت إلى الشيطان مشيعاً من بوجل بأصدق التمنيات .

وتقوم بتلبية طلبات رواد المطعم نادلتان . . وصوت . فأما أولى النادلتين ففتاة تدعى ايلين ، فارعة القامة ، جميلة ، رشيقة ، فياضة بالحياة ، واسعة الاطلاع في «القفش والتنكيت» واسمها الآخر . . . ولكن مالك واسمها الآخر ، وما ثمة ضرورة لاسم آخر في مطعم بوجل ، كما هو الشأن في طاسات الفاكهة وغسل الأصابع .

وأما النادلة الأخرى فاسمها تيلدى ، ولا تقل ماتيلدا من فضلك ، فان اسمها – وأنصت جيداً في هذه المرة – تيلدى . . . تيلدى ليس إلا ، وهي كئيبة ، ذات وجه ساذج ، تواقة لأن تسر عملاءها على الدوام .

وأما ذلك الصوت في مطعم بوجل ، فقد كان صوتاً خفياً ، ينبعث من المطبخ ، لا يوحي للأذن بالاستماع إليه ، كان صوت صنم لا يفتأ يردد ما تنطق النادلتان من ألوان الطعام .

أتراك يتعبك أن أعيد عليك القول إن ايلين كانت جميلة . . . انها لو ملكت من الثياب ما يساوي بضع مئات من الدولارات ، والتحقت بموكب عرض ، ووقعت عينك عليها هناك ، لسارعت إلى ترديد ما أقول .

كان رواد مطعم بوجل بأسرهم عبيداً لها . وكانت تستطيع تلبية طلبات ست موائد كاملة في نفس واحد . . . وكان بعض المتعجلين من الرواد ، يلتزمون الاناة لكي يتمتعوا بالتطلع إلى قوامها النشط الرشيق ، والذين فرغوا من الأكل ، يطلبون المزيد منه ، حتى يتاح لهم وقت أطول للتمتع ببريق ثغرها البسام . وكان كل رجل يرتاد المطعم – وأغلب رواده من الرجال – يحاول أن يدمغ عليها طابعه .

وكانت ايلين قادرة على تبادل الملح والفكاهات مع اثنى عشر رجلاً في وقت واحد ، وكل ابتسامة ترسلها ، تستقر فيما صادفها من قلوب كطلقات مدفع رشاش . ودون أن يؤثر ذلك أقل أثر ، في تلبيتها لما يطلب منها من كل ما يسلق أو يقلى ، أو يشوى على النار ، أو يؤكل طرياً ، وبأي مقدار كان .

ومع ذلك القصف والغزل والتبادل المرح للفكاهات والنكات ، كاد مطعم بوجل يستحيل إلى صالون ، ايلين كوكبه الساطع ، ومدام ريكامييه فيه . وإذا كان الرواد العابرون تسبيهم ايلين الفاتنة ، فان العملاء الدائمين كانوا منها بمنزلة العشاق ، وكانت المنافسة عليها على أشدها بين هؤلاء العملاء الدائمين . وهي ولو انها كانت تستطيع أن تواعد من شاءت منهم كل ليلة ، فقد كانت تكتفي بقبول دعوتين على الأقل من كل أسبوع ، تذهب في احداهما إلى مرقص ، وفي الأخرى إلى مسرح تمثيل . . وقد أهدى إليها أحد السادة ضخام الأجسام ، وكانت تلقبه هي وتيلدى فيما بينهما بالتيس ، خاتماً من فيروز . . . ووعدها شخص آخر كانتا تلقبانه بالطفل ، وكان يعمل سائقاً لعربة من عربات النقل ، أن يهدي إليها كلباً عندما يفوز أخوه بعطاء النقل في التاسع من الشهر . وسألها مرة ذلك الرجل الذي يطلب دائماً لحم الخنزير والسبانخ ، والذي قال انه سمسار في البورصة ، ان تصحبه إلى أوبرا برسيفال .

وقالت ايلين وهي تدير وجوه الرأي في هذه الدعوة مع تيلدى : أن يكون في أصبعي قبل أن أضع غرزة في ثوب الزفاف ، أليس ذلك من الحكمة ؟ أحسبه كذلك! »

ولكن ما وراء تيلدى ؟

في خلال الدخان واللغط ورائحة الكرنب التي تملأ المعاطس في مطعم بوجل ، كان ثمة ما يمكن بالتقريب أن يسمى مأساة قلب . فتيلدى بأنفها الأفطس ، وشعرها الأصفر المغبر ، وبشرتها التي ترعرع فيها النمش ، وقوامها الشبيه بكيس السماد ، لم تكن قد صادفت معجباً بعد ، فما من رجل واحد تبعها بعينيه وهي تجتاز المطعم رائحة غادية ، اللهم إلا في الحين بعد الحين ، عندما يحملقون فيها بوحشية تحت تأثير الجوع ، واستعجالاً للطعام . وما هم أحد منهم بمداعبتها بفكاهة على الإطلاق . ولم يحدث قط أن تمنى لها رجل صباح الفل كما كانوا يفعلون مع ايلين . وطالما اتهموها إذا ما توانت في احضار

البيض ، بالسهر مع خنزير محظوظ . وما أهدى إليها أحد قط خاتماً من فيروز ، أو دعاها إلى أوبرا برسيفال النائية المجهولة .

لقد كانت تيلدى نادلة طيبة يحتملها الرجل كشر لابد منه ، ويحادثها من يجلس إلى مناضدها في اقتضاب ، وفي حدود ما يقتبسونه من قائمة الطعام ، فإذا بدت ايلين الفاتنة ، رفعوا أصواتهم بألفاظ يتقاطر الشهد منها ويفوح العبير . فإن غابت عن أعينهم لحظة تقلقوا في مقاعدهم ، وأداروا أعينهم بعيداً عن تيلدى وقوامها المتداعي ، إلى حيث تكون ايلين ، لعل قوامها الساحر يضفي على اللحم والبيض لذة ، ويحيلهما إلى رحيق .

وقنعت تيلدى بأن تبقى كادحة مهملة ، ما بقيت ايلين تتلقى الزلفى والمديح . فان أنفها الأفطس ، كان وفياً للأنف الاغريقي الدقيق في وجه ايلين . وكانت تخلص لايلين ، وتسعد برؤيتها مسيطرة على القلوب ، صارفة للرجال على السيجار والحلوى فان أقبحنا شكلاً ، يحلم في أعماقه بأمير أو أميرة ، لا يشاركه فيه أو فيها شريك .

وفي صبيحة أحد الأيام دخلت ايلين إلى المطعم خلسة ، وفي عينها كدم ، فأبدت تيلدى من الجزع عليها ومواساتها ما كان خليقاً أن يبرئ عين الضرير .

وقالت ايلين : «هذا صنع الطفل ، فبينما أنا في طريقي إلى منزلي أمس ، تبعني وقطع علي الطريق ، وصرفته ببرود فتوقح ، واستمر في متابعتي ، وعاد إلى الغزل من جديد ، فصفعته صفعة قوية على خده ، ففعل بعيني ما ترين . أهي بشعة حقاً يا تيل ؟ كم أكره أن يراها مستر نيكولسون عندما يقبل في العاشرة للشاي» .

واستمعت تيلدى إلى هذه المغامرة في لهفة واعجاب ، فان رجلاً ما لم يحاول أن يتبعها قط . وقد كانت آمنة حيثما خرجت في أية ساعة من الساعات الأربع والعشرين . ويالها من سعادة أن يقطر المرأة رجل يؤذي عينها في معركة غرام .

وكان بين عملاء بوجل شاب يدعى سيدرز ، يشتغل عاملاً في

مغسلة ثياب . وكان سيدرز هذا نحيفاً ، أجلح ، يبدو كأنه نازل لفوره من فوق حبل المغسلة ومن تحت المكواة . ولكن فشل في أن يسترعي انتباه ايلين ، فكان يجلس عادة في إحدى مناضد تيلدى ، ويهب نفسه للصمت المطلق والسمك المسلوق!

وذات يوم دخل سيدرز المطعم للغداء ، وفي فمه رائحة الجعة ، ولم يكن بالمطعم من رواده غير اثنين أو ثلاثة ، وعندما فرغ سيدرز من التهام سمكته ، نهض من مقعده ، وأحاط بذراعه خصر تيلدى ، ثم قبلها بقحة وصوت مسموع ، وخرج الشارع مشيراً إلى المغسلة بأصبعه ، ثم هرول إلى مدينة الملاهي بغية التسلية .

وتحجرت تيلدى في مكانها بضع لحظات ، ثم تنبهت إلى ايلين وهي تلوح بسبابتها في وجهها قائلة :

– ماذا دهاك يا تيلدى . . ؟ أيتها الفتاة الشقية الماكرة! إنك تتحولين إلى كائن خطر . ويلوح لي أنك ستسرقين بعض أصحابي ، وقد أصبح لزاماً علي أن أفتح عيني عليك يا سيدتي . . منذ الآن . .!

لقد طفرت في لحظة من مجرد محب يائس متواضع إلى ند لايلين القوية . وانها اليوم لسابية رجال ، وهدف لسهام كيوبيد وملاك خجول في ولیمة من ولائم الرومان . إن الرجل أخيراً قد أحاط خصرها بنجاح ، والتذ قبلة شفتيها ، وها هو ذا سيدوز بحبه المفاجئ قد مثل لها معجزة جمعت في لحظة مجهود غسال في يوم ، عندما أخذ ثوبها القديم القذر فغسله وجففه ونشاه وكواه ، وأعاده إليها مطرزاً بالوشى كأنه ثوب فينوس ربة الهوى والغرام . .

وتورد النمش على وجنات تيلدى ، وأطلت روحها من عينيها البراقتين ، فإن ايلين نفسها لم يسبق لها أن قبلت أو خوصرت في المطعم على رؤوس الاشهاد . . ولم تستطع تيلدى أن تصبر على كتمان هذا السر البهيج ، فانتهزت فرصة من خفة الحركة داخل المطعم ، وذهبت إلى مكتب بوجل ، وعيناها تلتمعان ، وحاولت أن تنفى عن ألفاظها كل أثر للزهو والفخار ، وهي تقول :

– لقد أهانني اليوم أحد السادة فخاصرني وقبلني . .

وقال بوجل وهو يجاهد في فتح مكتبه بعنف :

– أو حدث ذلك . . ؟ لك علاوة ريال على أجرك الأسبوعي منذ الأسبوع التالي . .!

وفي الوجبة الرئيسية التالية كانت تيلدى وهي تقدم الطعام لمعارفها من الرواد ، تقول لكل منهم في استحياء :

– إن سيدا أهانني اليوم في المطعم فخاصرني وقبلني . .

وقد تلقى الرواد هذا الخبر بأساليب مختلفة : فمنهم من شك فيه ، ومنهم من هنأها عليه ، ومنهم من حول إليها مجرى الدعابة التي كانت وقفاً على ايلين . وانتفخ قلب تيلدى بين ضلوعها ، وقد لاحت لها في النهاية ، أبراج الحب شامخة على خط الأفق ، في ذلك السهل المعتم الذي كانت تتجول فيه بلا أمل منذ عهد طويل .

وانقطع مستر سيدرز عن التردد على المطعم يومين نجحت خلالهما تيلدى في إظهار نفسها بمظهر المرأة التي تحب وتغازل . . فاشترت الأشرطة الحريرية ، وصففت شعرها على طريقة ايلين ، وضيقت محيط خصرها خمسة سنتمترات ، وملأ صدرها فزع جارف ولكنه لذيذ ، هيأ لها أن سيدرز قد يقتحم المطعم فجأة ويقتلها رمياً بالرصاص ، فلا بد أنها شغفته حباً ، والحب كثيراً ما يدفع المحب التهور إلى الشطط إذا غار .

حتى ايلين نفسها لم يسبق لها أن أصيبت برصاصة مسدس ، ولذلك تمنت تيلدى ألا يطلق سيدرز عليها النار ، فقد ظلت وفية لايلين ، وهي لا تحب أن تحظى دون صديقتها بهذا الامتياز . .

وفي الساعة الرابعة من عصر اليوم الثالث دخل مستر سيدرز المطعم ، وما به مرتاد سواه ، وكانت تيلدى تملأ أوعية الخردل وايلين تعد الفطائر في مؤخرة المطعم . فسار المستر سيدرز إلى حيث وقفتا ، ورفعت تيلدى عينيها فرأته ، وشهقت ، ثم ضربت صدرها بملعقة الخردل . وكانت ترشق في شعرها مشطاً أحمر ، وتحيط جيدها بعقد أزرق يتدلى على نحرها منه قلب من الفضة .

واحمر وجه المستر سيدرز وظهر عليه الارتباك . فوضع إحدى يديه في جيب البنطلون ، والأخرى على طبق من أطباق الفطائر ، وقال :

– «مس تيلدى . أريد أن أعتذر إليك عما فعلته ذلك المساء ، وأقول لك الحق أني كنت ثملا ، ولولا ذلك لما فعلته . وما كنت لأصنع ما صنعت مع سيدة ، وأنا مفيق . لذلك آمل يا مس تيلدى أن تقبلي عذري ، وان شيئاً من ذلك ما كان يحدث لو كنت أعي ما أفعل ، ولم يكن علي للشراب سلطان »

وبهذا الاعتذار المهذب ، تراجع المستر سيدرز ، وخرج من المطعم ، ورحل شاعراً أنه قد أصلح الأمر .

ولكن تيلدى هوت على إحدى المناضد وراء الحاجز ، بين قطع الزبد وفناجين القهوة ، يكاد قلبها يسيل من صدرها تنهدا وحسرات ، إلى حيث يعود إلى ذلك السهل المعتم الذي يتحول فيه أبدا أصحاب الشعر الأصفر المغبر والأنوف الفطساء . وخلعت مشطها من شعرها وقذفت به إلى الأرض ، وصبت على سيدرز كل ما كانت تنطوي عليه من زراية واحتقار . سيدرز هذا الذي تلقت قبلته كما لو كانت قبلة رائدها أو أمير أحلامها ، في فردوس الخيال ، فاتضح لها أن القبلة قبلة لم تقصد ، ومن فم سكير . وهذا البلاط الخيالي الذي كانت تتبوأ سريره لم يحرك ساكنا ، فلا بد اذن أن تبقى أميرة نائمة إلى الأبد!!

بيد أنها لم تفقد كل شيء . فقد أحاطتها ايلين بذراعها ، بينما كانت تيلدى المحمرة تشق طريقها بين قطع الزبد لتتلقى يد صديقتها .

وقالت ايلين التي لم تدرك الموقف على حقيقته :

– لا داعي للانزعاج يا تيل ، ان سيدرز بوجهه الذي يشبه رأس اللفت لا يستحق منك كل هذا . إنه لا يشبه السادة في شيء ، وإلا لما اعتذر لك على الإطلاق! »

كيوبيد والساعة وهارون الرشيد

جلس الأمير ميشيل - أمير ولاية فاليلونا - على دكته المختارة في المتنزه العام ، يشعل الحياة في عروقه نسيم ليالي سبتمبر البارد ، لأن رواد المتنزه بدمائهم الآسنة كانوا يفرون إلى بيوتهم هرباً من برد الخريف المبكر . وكان القمر يطلع لتوه من وراء أسقف المنازل التي تحد الميدان من الشرق . والأطفال يضحكون ويلعبون حول النافورة ذات الرذاذ الدقيق ، والحشرات تتلاغى حيث تنتشر الظلال دون اكتراث بنظرات البشر ، ونغم يئز كالطنين صادر عن ناي يعزف في منعطف قريب ، وعلى أرباض المتنزه الصغير المسحور كانت السيارات تنش وتموء ، والقطارات الفاخرة تزأر زئير الأسود والنمور باحثة عن مكان تغزوه ، ومن فوق قمم الأشجار أشرق وجه ساعة ضخمة مستديرة مضاءة في برج بناء أثري قديم .

كان نعل الأمير ميشيل قد بلى يتحدى قدرة أي اسكاف ، ولو عرضت ثيابه على تاجر من تجار الخرق ، لأبى أن يساوم عليها بأي ثمن . وكان الوضر الذي خلفه على وجهه اهمال لحيته أسبوعين ، خليطاً من الرمادي والأسمر والأحمر والأخضر المشوب بالصفرة ، كما لو كان يتألف من مجموعة تبرعات من شعر كل فتيات فرقة غنائية هزلية! وما عاش قط رجل بلغ من الغنى الفاحش إلى الحد الذي يلبس فيه قبعة ارث من قبعة الأمير ميشيل .

جلس الأمير على دكته المختارة ، وابتسم ، فقد كانت له فكرة تواسيه : إنه يملك من المال ما يكفي لشراء كل قصر من تلك القصور المواجهة الضخمة المتقاربة ذات النوافذ المضيئة لو شاء ، وانه يستطيع أن ينافس في الذهب والسيارات والجواهر والكنوز الفنية والضياع والأطيان ، أي قارون من ملوك المال في هذا الحي المزهو مانهاتان . وأن مجموع ما يمتلكه لا يدركه العد والاحصاء ، وان في قدرته أن يؤاكل حكاماً من ذوي العروش والتيجان . وان الدنيا بما فيها من زينة وفن ، وصحبة مختارة ، ونفاق ومحاكاة ، وحفاوة غيد ، وتكريم كبراء ، وثناء حكماء ، وملق ، وتقدير ، وحظوة ، ومتعة ، وجاه ، هو وما في الحياة من رحيق يتجمع كله في قرص من شهد الوجود ، ينتظر الأمير ميشيل ، رهن إشارة منه إذا شاء ، ولكن مشيئة سموه اختارت له الجلوس على دكة المتنزه في هذه الاسمال والاوضار! وذلك أن شجرة الحياة لما ذاق ثمارها ، الفاها مرة في فمه ، فآثر أن يهبط من جنته إلى أمد ، يبحث عن سلوى على مقربة من قلب هذه الدنيا الخافق الاعزل .

كانت هذه الأفكار تسبح حالمة في خيال الأمير ميشيل وهو يبسم من خلال أوضار لحيته المختلفة الألوان . وفي جلسته هذه ، وفي أسماله التي لا يحسده عليها أفقر المتسولين ، كان يشغف بدراسة الإنسانية ، ويجد في انكار الذات لذة لا يجدها في الغنى والجاه وكل ما أضفت عليه الحياة من آلاء ، وكانت مسلاته الكبرى أن يخفف من هموم الناس ، وأن يغدق من خيراته على من هم أهل لها إذا مسهم الضر ، وأن يبهر أعين التعساء بما لم يتوقعوه ولا حلموا به من عطاياه ، التي كانت تشبه على الحقيقة عطايا الملوك وأن توخى فيها العدل والحكمة!

وعندما وقعت عين الأمير ميشيل على وجه الساعة الضخمة المضيئة من قمة البرج ، شابت ابتسامته على ما فيها من ايثار لمحة من لمحات الاحتقار . إن الضخامة كانت طابعا لأفكار الأمير ، وكان يقابل بهزة من رأسه خضوع البشر إلى تلك المقاييس الزمنية بما فيها من جور واستبداد ، ولكم كان يحزنه أن يرى الناس يروحون ويغدون حثاثا خائفين تسيطر عليهم تلك العقارب المعدنية الصغيرة في الساعات .

وقدم بعد حين شاب يرتدي ملابس السهرة ، فجلس على الدكة الثالثة من دكة الأمير ، وظل يشد الأنفاس من سيجارة نصف ساعة في سرعة عصبية ، ثم استغرق في النظر إلى وجه الساعة المضيئة من وراء الشجر ، بادي الاضطراب . ولاحظ الأمير في أسى أن علة اضطرابه ترتبط بشكل ما بعقارب الساعة المتحركة في بطء .

ونهض سموه ، فذهب إلى دكة الشاب وخاطبه قائلاً :

– « عفواً إذا تحدثت إليك ، فقد لاحظت أنك مهموم . وقد يلطف من فضولي بعض الشيء أن أقول لك أن أسمي ميشيل وأرث عرض فاليلونا ، وقد جئت متنكراً بالطبع كما لابد أن تدرك من مظهري . ومن سجاياي أن أمد يد العون إلى الآخرين متى آنست أنهم أهل له ، ولعل الكرب الذي أصابك يكون أكثر طواعية للزوال إذا تضافرت عليه جهودنا!! »

ونظر الشاب إلى الأمير مستبشراً ، وان كان بشره لم يمح ما زوى بين عينيه من قطوب ، ثم ضحك له ، وحتى الضحك نفسه لم يبسط أساريره ، وان كان قد تقبل هذه التسلية المؤقتة أحسن قبول ، فقال له بروح طيبة :

– « يسعدني لقاؤك أيها الأمير . أن تنكرك ما فيه ريب ، وأني لأشكرك على تطوعك لمعونتي ، وان كنت لا أرى مجالاً لهذا العون . انها مسألة شخصية ، ولكن هذا لن يقلل من شكري على كل حال! »

وجلس الأمير ميشيل بجوار الشاب . وكان ينهر أحياناً على مثل هذا التصرف ولكن في غير عنف ، فإن وقار سلوكه وألفاظه كان يحول دون ذلك .

وقال الأمير :

– « إن الساعات أغلال تصفد أقدام البشر . لقد رأيتك تلح في النظر إلى الساعة . ان وجهها وجه طاغية ، وأرقامها أشد زيفاً من أرقام ورق اليانصيب ، وعقاربها محتل يواعدك على ما يؤدي بك إلى الخراب . فدعني ألتمس منك أن تحطم عنك أغلالها المهينة ، وأن تكف عن ايكال زمامك إلى هذا الدليل العديم الاحساس ، المصنوع من الصلب والنحاس! »

قال الشاب :

– « ليس من عادتي أن اكل زمامي إليها ، وان كنت أحمل ساعة على الدوام ، اللهم الا عندما ارتدي هذه الأسمال البراقة » .

قال الأمير في تعال شامخ :

– « إني أعرف الطبيعة البشرية كما أعرف العشب والشجر . أنا أستاذ في الفلسفة والآداب ، وفي يدي مفاتح الحظ والسعادة ، وقل من التعاسات البشرية مما يعييني تلطيفه أو قهره . لقد قرأت محياك ووجدت فيه الشرف والنبل ، كما وجدت الهم والضيق ، فأرجوك أن تقبل مني العون أو النصيحة ، ولا تنقض ما أتوسمه في وجهك من ذكاء ، باتخاذ مظهري أداة للشك في قدرتي على دفع ما يؤودك من هموم » .

وتطلع الشاب إلى الساعة من جديد ، ثم عبس حتى اكفهر ، ثم تحولت نظرته الحائرة من الساعة المضيئة فوقعت في اهتمام على بيت مبنى بالآجر الاحمر من أربع طباق ، بين صف الأبنية المواجهة له ، وكانت أستار النوافذ مرخاة ، وبدت من خلالها في كثير من الغرف أضواء خابية ، فقال مؤمنا في يأس وفروغ صبر :

– « التاسعة إلا عشر دقائق! »

ثم أدار إلى البيت ظهره ، ونهض فمشى خطوة أو خطوتين في اتجاه مضاد .

– « انتظر! »

أصدر الأمير ميشيل هذا الأمر إلى الشاب في صوت فيه من السطوة والنفوذ ما جعل الشاب المضطرب يدور على عقبيه ، ويضحك ضحكة حزينة .

وغمغم يحدث نفسه : « سأعطيها هذه الدقائق العشرة ثم انصرف » . وقال للأمير في صوت مسموع :

« إني أنضم إليك في لعن كل الساعات يا صديقي ، وأضيف إليها كل النساء »

وعقب الأمير في هدوء :

– «اجلس . إني لا أقبل منك هذه الإضافة ، فان النساء هن الخصوم الطبيعيون للساعات ، وبذلك يصبحن حلفاء لأولئك الذين يبغون الفكاك من ربقة هؤلاء الشياطين الذين يقيسون حماقاتنا ، ويضيقون علينا مجال اللذات . فان رأيت أن تثق بي فإني أرجوك أن تروي لي قصتك» . .

وألقى الشاب نفسه على الدكة ضاحكاً ضحكة المغامر ، وقال في لهجة المهتم الساخر :

– «أترى هذا البيت الذي بين نوافذه العليا ثلاث بها نور ؟ حسناً . لقد كنت أقف في هذا البيت في الساعة السادسة مع الفتاة التي أنا – أعني التي كنت خطيبها . ولقد أثمت في حقها يا أميري العزيز . فقد كنت شاباً طائشاً ، وسمعت بطيشي ، وسألتها العفو بطبيعة الحال . إننا نحن الرجال نحب أن نلتمس العفو دائماً من النساء . ألسنا كذلك أيها الأمير ؟ . . وقالت هي أن هناك شيئاً واحداً محققاً ، وهو أن أغفر لك تماماً أو لا أرى وجهك أبداً ، وما من وسط بين الغايتين ، ويمكنك أن تتطلع إلى النافذة الوسطى في الطابق الأعلى الساعة الثامنة والنصف تماماً ، فإذا وجدت وشاحاً حريرياً أبيض منشوراً فيها فاعلم أني قررت الغفران لك ، وأن المياه قد عادت إلى مجاريها ، وأنك تستطيع أن تجيء . وإن لم تر الوشاح فاعتبر أن ما بيننا قد انتهى إلى الأبد» .

وأختتم الشاب بمرارة :

– «ومن أجل ذلك كنت أرقب هذه الساعة ، وقد فاتت ثلاث وعشرون دقيقة على الموعد المحدد ، فهل تعجب بعد ذلك من همي يا أميري . . . يا أمير الشوارب والأسمال ؟»

قال الأمير ميشيل في صوته الرصين :

– «دعني أعيد عليك أن النساء هن الخصوم الطبيعيون للساعات ، فالساعة نقمة والمرأة نعمة ، وقد تظهر الإشارة بعد قليل!»

قال الشاب في قنوط :

«محال ، حتى على مالك من سلطان . انك بالطبع لا تعرف

ماريان ، انها تضبط مواعيدها بالدقيقة على الدوام . ولقد كانت هذه الخصلة من خصالها أول مزية جذبتني إليها . وهأنذا بدلاً من أن أجد الوشاح أجد الهواء . وكان من الأحرى أن أدرك منذ الثامنة والدقيقة الحادية والثلاثين أن الأوزة استوت ولا داعي للانتظار . سأهاجر إلى الغرب في قطار الحادية عشرة والخامسة والأربعين الليلة مع جاك ملبورن ، فان الطير قد أفلت ، وسأشتغل في مزرعة جاك حينا ثم انتهي إلى اقليم كلونديك (بالاسكا) . . . فأعمل هنا وأحتسي الويسكي .

وطاب مساؤك يا . . . . يا أيها الأمير! »

أمسك الأمير بكم معطف الشاب ضاحكاً ضحكته الغامضة اللطيفة المملوءة بالادراك ، وفي عينيه بريق متألق يرق حتى تغيم شفافيته ويمتلئ بالأحلام ، وقال له في خشوع :

- « انتظر حتى تدق الساعة ، ان لي من الثروة والنفوذ والمعرفة فوق ما للكثيرين ، ولكني أرهب دقات الساعة ، فابق معي حتى تدق ، ان هذه المرأة ستكون لك ، وهذا ما عد من الوارث الشرعي لعرض فاليلونا ، وفي يوم زواجك سأمنحك مائة ألف ريال وقصراً على نهر الهدسون ، ولكن أشترط ألا يكون في هذا القصر ساعات ، فانها تقيس حماقاتنا وتحد مالنا من لذات . فهل توافق على هذا ؟ »

قال الشاب في مرح :

- « بالطبع - إنها مقلقة على أية حال ، لا تفتأ تنق وتدق وتضطرب إلى تأخير العشاء »

وتطلع مرة أخرى إلى ساعة البرج ، وكانت عقاربها على التاسعة إلا ثلاث دقائق .

قال الأمير ميشيل :

- « أظنني سأغفو قليلاً ، فقد كان اليوم منهكاً! »

ومدد نفسه على الدكة في يسر من تعود ذلك ، وقال والنوم يغالب أجفانه :

- « عندما تحدد يوم زواجك تعال إلي ، فسأعطيك صكا بالمبلغ » .

قال الشاب جاداً :

- «أشكرك يا صاحب السمو ، يبدو أنني لن أحتاج إلى قصر الهدسون ، بيد أني أقدر هبتك على كل حال!»

وأغرق الأمير ميشيل في نوم عميق ، ووقعت قبعته المهلهلة من الدكة إلى الأرض ، فرفعها الشاب ووضعها على الوجه الأشعث ، وحرك جارحة من جوارح الأمير كانت تسترخي وضع أبعث إلى الراحة . ثم قال استرخاء غريباً ، فردها وهو يشد الأسمال الرثة على صدر الأمير :

«يا لك من شيطان مسكين!»

ودقت ساعة البرج تسع دقات في صوت مفزع رنان وتنهد الشاب مرة أخرى ، وتطلع في نظرة أخيرة إلى البيت الذي ضم آماله المنهارة ، ثم صاح صيحة انطلقت من فمه فيها ألفاظ نابية عبر بها عن فرط السرور . .

فمن النافذة الوسط بين النوافذ العليا ازدهر في حمرة الشفق رمز الغفران والفرح الموعود في رايته المائجة الخفاقة الساحرة البيضاء .

ومر في هذه اللحظة رجل قصير بدين كالكرة ، مستريح البال ، حثيث الخطا في طريقه إلى بيته غير عارف بمباهج الأوشحة الحريرية الخفاقة على أرباض المتنزهات ذات الضوء الضئيل ، فسأله الشاب :

- «هل تتفضل بأن تخبرني عن الوقت يا سيدي ؟»

وأخرج الرجل ساعته مبعداً إياها بخبث حتى يطمئن إلى سلامتها وقال :

- «الثامنة وتسع وعشرون دقيقة ونصف يا سيدي»

وبحكم العادة ، نظر إلى ساعة البرج واستأنف يقول :

- «يا لله . .! هذه الساعة فيها تقديم نصف ساعة . .! انها أول مرة تختل فيها منذ عشر سنوات . أما ساعتي فما خالفت قط حتى الآن . .»

ولكن الرجل كان يكلم الهواء : وتلفت فرأى محدثه ظلاً أسود يفنى بسرعة في الظلام صوب بيت أضيئت نوافذه العليا الثلاث .

***

وأقبل شرطيان في الصباح في طريقهما إلى دركيهما ، وكان المتنزه خالياً إلا من شبح مقوض ، مستلق على دكة ، غارق في المنام ، فوقفا ينظران إليه . .

وقال أحدهما :

- «هذا مايك المدمن ، إنه يدخن «الجوزة» كل مساء وهو نزيل المتنزه منذ عشرين عاماً ، وأظنه يهبط من ملكوته الآن . .!»

ومال الآخر ناظراً إلى شيء هش متفتت في يد النائم ، فقال :

- «لقد استهلك ما قيمته خمسون ريالاً على أية حال ، وبودي لو عرفت هذا النوع من المخدر الذي يدخنه . .»

ثم . . طاخ . . طاخ . . طاخ : هوت عصا الحقيقة على نعال البرنس ميشيل أمير فاليلونا . .

هدنة

كان القمر يتألق على النزل الخاص الذي تملكه مسز مورفى والربيع في ابانه ، والرياض منضرة بورق الشجر الجديد ، والزهور تتفتح ، والهواء يرق ، والموسيقى تزدهر في كل مكان .

وكانت نوافذ نزل مسز مورفى مفتحة ، وعدد من النزلاء يجلسون في درج المدخل على حصر مستديرة منبسطة كالفطائر .

وفي نافذة من نوافذ الطابق الثاني المطلة على الطريق ، كانت مسز ماكاسكى تنتظر زوجها ، وقد برد العشاء على المائدة ، فأعدت برودته مسز ماكاسكى .

وعاد السيد ماكاسكى في التاسعة يحمل معطفه على ذراعه ، وغليونه بين ثناياه ، بعد أن اعتذر للنزلاء الجالسين على الدرج لاقلاق راحتهم ، وهو يتلمس بينهم مكاناً على درج السلم لنعله الكبير .

وعندما فتح باب غرفته واجهته مفاجأة ، فبدلاً من أن تستقبله أغطية القدور وأدوات المطبخ كما تعود ، استقبله سيل من الألفاظ ليس إلا .

وأدرك مستر ماكاسكى أن قمر الربيع اللطيف قد رقق صدر زوجته . .

وانطلقت قذائف الابدال الشفية لأدوات المطبخ على الصورة الآتية :

- «لقد سمعتك . . انك تستطيع أن تعتذر لرعاع الطريق عن مس نعلك لحواشي ثيابهم . ولكنك قد تخطو على رقبة زوجتك دون أن تفكر حتى في تقبيل قدمها . لقد رأيتك تفعل ذلك وأنا مطلة من النافذة ، والطعام يبرد . وأي طعام هذا الذي نحصل عليه ، وأنت تنفق أجرك كله على الخمر ، ومحصل الغاز جاء اليوم مرتين مطالباً بما له . . »

قال مستر ماكاسكى وهو يرمي معطفه وقبعته على مقعد :

- «إن ضوضاءك يا امرأة مسبة لشهوتي للطعام ، فأنت عندما تعمدين إلى البذاءة تخلخلين أساس المجتمع ، وانه ليس أكثر من استثارة بفظاظة سيد فاضل عندما تطالبينه بالشجار مع سيدات يزحمن الطريق ، ويحلن دون الخطو بينهن . ألا يمكن أن تدخلي وجهك هذا - وجه الخنزير - من النافذة ، وتعدي الطعام . . ؟ »

ونهضت مسز ماكاسكى متثاقلة فمضت إلى الموقد ، وكان في سحنتها نذير للسيد ماكاسكى ، فان زاويا فمها كانت في العادة عندما تتدلى فجأة ، وتصبح كشعبتي بارومتر ، تنبئ عما لابد من حدوثه من قذف الآنية والملاعق والسكاكين . .

وقالت : «وجه خنزير . .! أهو كذلك . . ؟ »

ثم قذفت وجه سيدها بمقلاة مملوءة بشرائح اللفت ولحم الخنزير . .!

وما كان السيد ماكاسكى حديث العهد بسرعة البديهة ، فقد عرف ما يعقب التمهيد ، فرد الاهانة بقطعة من لحم الخنزير المشوي مزخرفة بورق البرسيم ، وجدها على المائدة ، وكان الجواب الذي تلقاه عليها فطيرة من فطائر الزبيب في صحن من الفخار . وأصابت ما تحت عين السيدة ماكاسكى قطعة ضخمة من الجبن سددها زوجها باحكام . وعندما استجابت بابريق ممتلئ بالقهوة الساخنة ذات العبق الخفيف ، كان المفروض أن تضع الحرب أوزارها بهذا الختام ، تبعاً لتقاليد المائدة .

ولكن السيد ماكاسكى لم يكن من رواد المطاعم الرخيصة . وللبوهيميين الفقراء إذا شاءوا أن يختموا طعامهم بالقهوة ، ويخطئوا

هذا الخطأ الاجتماعي الفاحش ، أما هو فأسمى منهم وأحرص على آداب اللياقة . إن طاسة الماء التي تغسل فيها الأيدي والفاكهة لم تكن غريبة عليه ، ورغم أن مثل هذه الطاسات لم يكن لها وجود في منزل مسز مورفى ، فقد كان لها فيه نظائر ، فكاد يفلق رأس منازلته في بيت الزوجية بحوض الغسيل الحجري ، لولا أنها زاغت منه في الوقت المناسب ، وتناولت هي الأخرى مكواة ناطت بها كل آمالها في أن تكون نشوة الكأس التي تضع حداً لهذه المبارزة الغذائية ، ولكن صرخة عالية معولة متصاعدة من أسفل السلم دفعتها هي وزوجها إلى أن يكفا عن النزال في شبه هدنة عقدت بغير اتفاق .

وعند ركن البيت على ناصية الطريق ، كان الشرطي كليرى يقف ناشراً إحدى أذنيه ، مصغياً لصليل الآنية التي يتقاذفها الخصمان .

وقال الشرطي لنفسه :

– «هذا جون ماكاسكى وقرينته في معمعة القتال من جديد . أتراني أصعد وأفض النزاع . . ؟ كلا . . إنهما زوجان من حقهما أن ينعما بحياة ما أقل فيها ملذات الأزواج . ولن تدوم المعركة طويلاً ، ومن المؤكد أنهما سيتحتم عليهما استعارة صحون أكثر من الجيران ليبقياها مشتعلة الأوار . . »

وفي نفس اللحظة التي كان الشرطي يحدث فيها نفسه هذا الحديث ، شقت أجواز الفضاء تلك الصرخة المتصاعدة من الطابق الأسفل ، منذرة بالويل والثبور ، وقال الشرطي كليرى لنفسه وهو يخطو مسرعاً في الاتجاه المضاد :

– «لعلها هرة تموء » .

وفزع النزلاء الجالسون على سلم المدخل . ولما كان توني محامياً في شركة تأمين ، تولى مهنته فيها وراثة عن أبيه ، وكان التحقيق في دمه ، فقد دخل البيت ليكشف عما وراء هذا الصراخ ، وعاد ينبئ النزلاء أن مايك ابن مسز مورفى قد ضاع ، وأعقبته مسز مورفى نفسها منطلقة من الباب حاملة تسعين كيلو جراماً من الدموع واللوعات ،

ضاربة بقبضتها الهواء ، مستصرخة السماء لضياع أربعة عشر كيلو جراماً من النمش والفساد . . وسمها نذالة إذا شئت ، أن يعمد السيد توني في هذا الوقت الحرج إلى الآنسة بيردى بائعة البرانيط النمسوية ، فيجلس إلى جوارها ، وتتلاقى أيديهما كما تتلاقى أيدي المحبين . . أما العانستان الأختان - ويلش - اللتان كانتا تشكوان على الدوام مما يشيع في مدخل البيت من ضوضاء ، فقد تساءلتا في لهفة عما إذا كان أحد قد بحث عن الغلام الضائع في ساعة الحائط!

ونهض الصاغ جريج من جلسته بجوار زوجته البدينة على أعلى درجة في السلم ، وزر سترته وصاح في تعجب :

- « أضاع الغلام حقاً . . ؟ إني سأقلب عليه المدينة ظهراً لبطن » . .

وكانت زوجته لا تأذن له في مبارحة المنزل إذا جن الليل . . ولكنها الآن قالت له في صوت رجالي عال :

- « اذهب يا لودفيج . إن الذي يستطيع أن ينظر إلى فجيعة هذه الأم دون أن ينهض لنجدتها . لابد أن يكون قلبه قدّ من حجر » .

وقال الصاغ :

« أعطيني يا حبيبتي ثلاثين أو ستين دانقاً . . فإن الطفل إذا ضل فكثيراً ما يبالغ في الشطط ، وقد أحتاج إلى ركوب الأوتوبيس » .

أما العجوز دنى الساكن في البهو الصيفي للطابق الرابع ، والذي جلس على أدنى درجات السلم يحاول قراءة جريدة تحت ضوء مصباح الشارع ، فقد قلب صفحة ليكمل قراءة موضوع إضراب النجارين .

وصرخت السيدة مورفى تخاطب القمر :

- « مايك . . مايك . . أيها القمر . .! بالله ألا أخبرتني أين فلذة كبدي الصغير . . ؟ »

- « متى رأيته آخر مرة ؟ »

وأجابت السيدة مورفى معولة :

- « أوه . . منذ الأمس أو لعله منذ أربع ساعات ، لست أدري ،

ولكنه ضاع ، مايك ولدي الصغير . . إنه كان يلعب في الشارع هذا الصباح أو لعل ذلك كان بالأمس . . ؟ إني مغرقة في العمل ، ومن العسير تذكر الأوقات ، وقد فتشت البيت من السطح إلى القبو فلم أعثر له على أثر . . لقد ضاع . أواه . .! الا بحق السماء الا . . . »

لكم صبرت المدينة شامخة صامتة عابسة منذ الأزل على سباب الشاتمين . انهم يتهمونها انها قاسية كالحديد ، وأن صدرها لا يخفق برحمة ، ويقارنون شوارعها بغابات موحشة ، وصحارى رمالها من حمم البراكين ، ولكن الصدفة الصلبة في جسم السرطان تحتها لحم شهي لذيذ . . ولعل استعارة أخرى كانت تكون أنسب للمقام ، ولكن مع ذلك فما ينبغي لأحد أن يمتعض من هذا التشبيه ، وما كنا لنشبه أحداً بالسرطان لو لم يكن له من المخالب المفترسة ما يبرر هذا الاتهام .

إن قلب الإنسانية لا تمسه كارثة أروع من ضلال طفل صغير ، قدماه ضعيفتان حائرتان ، والطريق موحش وما أكثر ما فيه من مزالق . .

اندفع الصاغ جريج إلى ناصية الطريق ، ومنها إلى الشارع الكبير ، حيث وقع على حان ، وقال للخمار :

– إلي بكأس من الويسكي . . أرأيت شيطاناً صغيراً في السادسة من عمره أعوج الساقين ، قذر الوجه ، ضاع في مكان ما بهذه النواحي . . أرأيته بالله . . ؟ »

وظل السيد تومي محتفظاً بيد الآنسة بيردى وهو يجالسها على السلم! وقالت الآنسة :

– « تصور هذا الطفل الصغير العزيز وهو يضيع من حضن أمه ، ومن يدري فقد يكون وقع تحت سنابك جياد راكضة . أليس هذا فظيعاً . . ؟ »

وقال تومي وهو يعصر يدها مؤيداً :

– « بالضبط . . فما قولك في أن أخرج وأساعد في البحث عنه . . ؟ »

قالت الآنسة بيردى :

- « لا بأس ، ولكن تذكر يا مستر انك مغامر جسور ، فماذا لو أصابك في حماستك حادث . . ؟ وماذا يكون من . . » .

واستمر العجوز داني يقرأ عن اتفاقية التحكيم ، متابعاً السطور بأصبعه . .

وفي واجهة الطابق الثاني كان آل ماكاسكى قد أطلا من النافذة يلتقطان أنفاسهما استعداداً للجولة الثانية ، والسيد ماكاسكى يغترف اللفت المطبوخ من صداره بسبابته المعقوفة ، في حين أن زوجته كانت تدعك عينا لم يفدها لحم الخنزير المشوي وما فيه من ملح الطعام . لقد سمعا الصرخة الصاعدة من تحت ، فأطلا برأسيهما من الشباك .

وقالت السيدة ماكاسكى في صوت رزين :

- « إن مايك الصغير قد ضاع ، ذلك الصبي الحلو الشقي العفريت » . .

قال السيد ماكاسكى وهو يطل من النافذة :

- « لعله نسي في مكان ما . هذا شيء سيء . . إن الأطفال ليختلفون من هذه الناحية عن النساء ، فلو كانت امرأة تلك التي فقدت لما همني شيء ، فانهن يتركن وراءهن الهدوء والسلام . . »

وتجاهلت السيدة ماكاسكى الضربة ، وأمسكت بذراع زوجها وقالت في حنان :

- « إن ابن السيدة مورفى الصغير مفقود . . . وانها لمدينة ضخمة على طفل ضائع ، انه في السادسة من عمره ، وهذا ما كان ينبغي أن يكون عمر ولدنا لو كنا أنجبنا ولداً منذ ستة أعوام » . . .

قال السيد ماكاسكى وهو يتأمل في هذه الحقيقة :

- « بيد أننا لم ننجب قط »

- « هبه اننا فعلنا يا جون ، وفكر فيما كان يغمر قلبينا من الأسى هذه الليلة لو أن ولدنا (فيلان) خرج من البيت فالتقمته المدينة ، فلم يوجد في مكان ؟ » .

قال السيد ماكاسكى :

– « إن هذا الذي تقولين حمق وخرق . . فإن ولدنا كان ينبغي أن يسمى باسم أبي الشيخ المقيم في كانتريم »

قالت السيدة ماكاسكى بلا غضب :

– « أنت كاذب فإن أخي كان يساوي مائة من آل ماكاسكى الفلاحين ، وولدنا يجب أن يسمى باسم خاله . . »

ومدت رأسها من النافذة ونظرت إلى ما يجري تحتها من لغط وضوضاء . ثم قالت بلطف :

– « جون إني آسفة ، لقد تسرعت معك . . »

قال زوجها : « إنما تسرعت الفطائر واللفت والقهوة ، ولعلها كانت تصبيرة ، وعلى أي حال فلا بأس ولا تعودي إلى البهتان »

وزلقت السيدة ماكاسكى ذراعها تحت أبط زوجها ، وشبكت يدها في يده الغليظة . وقالت :

– « أتسمع ولولة السيدة مورفى المسكينة . . ؟ إنه لشيء فظيع أن يفقد طفل صغير في هذه المدينة الضخمة الرهيبة ، ولو كان الضائع ولدنا فيلان لحطمت صدري بيدي حسرات »

وسحب مستر ماكاسكى يده من يدها بغلظة ، وأحاط بها أكتاف زوجته وقال في خشونة :

– « هذا هو الحمق بعينه ، ولو أن ولدنا بات خطف أو حدث له حادث لقتلت نفسي . ولكننا لم ننجب أطفالاً قط ، ولئن كنت عاملتك بفظاظة أحياناً ، وخشونة أحياناً أخرى يا جودي ، فانسي واغفري ما كان » .

وعادا يطلان من النافذة جالسين ، ويشهدان المأساة التي تمثل تحتهما .

وطالت جلستهما هذه ، وماج الشارع الضيق بأفواج من الناس يتساءلون ويملأون الجو شائعات ، وتخمينات متضاربة . . والسيدة مورفى تذرع الطريق بينهم جيئة وذهاباً كجبل ندي يتدفق على سفحه شلال من الدموع ، رائع الهدير ، والرسل يغدون ويروحون . .

وتضاعفت الضوضاء والصياح فجأة . . فتساءل السيد ماكاسكى :

– « لا أدري ماذا جد الآن يا جودي . . ؟ »

– « إنه صوت السيدة مورفى ، تقول انها عثرت بصغيرها مايك نائماً وراء لفة من البساط تحت السرير . . ! »

وقهقه ماكاسكى وهو يقول ساخراً :

– « ها هو ذا ولدك فيلان . . أتظنين ولدي باتْ كان على شقاوته يرضي لنفسه مثل هذه الألاعيب . . إن الولد الذي لم نرزق به قط ، إذا ضل أو سرقته قوى المدينة الخفية ، فلك أن تسميه فيلان ، ما دام يختفي تحت السرير كالجرو الأجرب »

ونهضت السيدة ماكاسكى متثاقلة ومضت نحو صوان الأطباق وزوايا فمها مدلاة . .

وعندما انفض الزحام ظهر الشرطي كليرى من وراء ركن البيت وبدت عليه الدهشة عندما صوب أذنه نحو مسكن آل ماكاسكى ، حيث تعالى كما كان من قبل صليل المكاوي والأطباق ، ورنين أدوات المطبخ ، وأخرج الجاويش كليرى ساعته ، وقال متعجباً :

– « وحق الأفاعي السارحة ، أن ماكاسكى وامرأته يتعاركان منذ ساعة وربع الدقيقة ، انه قد يفوقها قوة عضل ، ولكنها تفوقه قطعا سلاطة لسان » .

وعاد الشرطي كليرى من حيث أتى . . .

وطوى العجوز دانى جريدته وصعد السلم عجولاً ، عندما رأى السيدة مورفى تهم بإغلاق الباب بالمزلاج ، كما كانت تفعل كل ليلة .

ماجي تدخل الدنيا

كان «نادي ورقة البرسيم الاجتماعي» يقيم مرقصاً في مساء السبت من كل أسبوع ، في دار «جمعية خذ وهات الرياضية» ، بالجانب الشرقي من نيويورك . ولكي يباح لك ارتياد هذا المرقص يجب أن تكون عضواً في «جمعية خذ وهات» أو . . إذا كنت منتمياً إلى ذلك الفريق من الراقصين الذي يبدأ الرقص بالقدم اليمنى[1] ، فيكفي أن تكون عاملاً في مصنع راينجولد لصناعة علب الورق ، يضاف إلى ذلك أن كل عضو من أعضاء نادي ورقة البرسيم كان له الحق في أن يصحب معه رفيقاً من الجنس الآخر من غير أعضاء النادي لرقصة واحدة ، وكان أكثر أعضاء «جمعية خذ وهات» يصحب كل منهم الفتاة التي تستجيب له من مصنع الورق ، وقليل من الغرباء عن هؤلاء وهؤلاء من يفخر بأن قدمه وطئت يوماً ما أعتاب هذه المراقص الدورية .

وكانت ماجي تول لا تذهب إلى هذه المراقص إلا بصحبة أنا ماكارثي ورفيقها ، وكانت علة ذلك خمول عينيها ، وسعة فمها ، وقلة خبرتها في الرقص . . وكانت ماجي وأنا تعملان جنباً إلى جنب في مصنع العلب ، وكانتا صديقتين حميمتين ، ومن أجل ذلك كانت أنا تلزم رفيقها جيمي بيرنس بأن يمر على بيت ماجي مساء كل سبت حتى يتاح لصديقها ارتياد المرقص في صحبتهما .

---

١ - كناية عن النساء.

وكانت «جمعية خذ وهات الرياضية» مخلصة لاسمها تمام الاخلاص ، فقد كان بهو الجمعية في شارع أوركارد مزوداً بكل الاختراعات البانية للعضلات . وبهذه العضلات المدربة تعود الأعضاء أن يشتبكوا مع دوائر الشرطة والمؤسسات الاجتماعية والرياضية المنافسة في مباريات ممتعة . وبغض النظر عن العمل الجدي الذي كان بنات مصنع العلب يقمن به ، فقد كان لمراقصهن الاسبوعية عمْل آخر هو الترفيه ، والتستر على ما يجري أحياناً من معارك وراء الجدران . ولو أنك كنت من الصفوة التي يباح لها أن تتهادى في السلم الخلفي المظلم ، فلعلك ترى مباريات بين متلاكمين من الوزن الثقيل ، على أتم وأدق ما يمكن أن تكون عليه هذه الملاكمات في حلبات الصراع المرخص بها من القانون .

وكان مصنع العلب يغلق أبوابه أيام السبت في الثالثة بعد الظهر . وفي عصر يوم من هذه الأيام عادت أنا وماجي إلى بيتيهما معاً . فلما وصلا إلى بيت ماجي قالت أنا كالعادة :

– «كوني مستعدة في السابعة تماماً يا ماجي ، فسنأتي جيمي وأنا لاصطحابك» .

ولكن ما هذا ؟ فعوضاً عن كلمة الشكر المتواضعة المألوفة ، من الفتاة التي لا رفيق لها ، نصبت الفتاة رأسها في الهواء ، وبدت على جانبي فمها الواسع نقرتان ممتلئتان بالزهو ، وفي الأعين العسلية الخابية التمع شيء أقرب ما يكون للبريق ، وقالت ماجي :

– شكراً يا أنا . . لا عليكما مني ، أنت وجيمي ، هذه الليلة ، فلي صديق فاضل سيمر بي ليصحبني إلى المرقص» .

وانقضت أنا الظريفة على صديقتها تهزها ، وتلاغيها ، وتستفسرها بتضرع عما كان . . ماجي تول توفق إلى رفيق ؟ ماجي الساذجة الصغيرة المخلصة غير الفاتنة . . ماجي الحلوة غاية الحلاوة كصديقة ، المنسية أشنع النسيان في الدعوات إلى المرقص ، وفي جلسات الليالي المقمرة على دكك المتنزه العام الصغير! . . كيف حدث هذا ؟ ومتى حدث ؟ ومن هذا الرفيق ؟

قالت ماجي ووجنتاها تتضرجان بحميا أول أعناب تقطفها من كروم كيوبيد :

- «سترين الليلة . إنه آية في الرشاقة والأناقة ، وهو أطول من جيمي بخمسة سنتيمترات ، وسأقدمه لك فور وصولنا إلى المرقص» .

وكانت أنا وجيمي من أوائل أعضاء «نادي ورقة البرسيم» وصولاً إلى المرقص هذه الليلة ، وتركزت عيون أنا المشرقة على باب القاعة لتخطي أول نظرة تلقى على محظى صديقتها المختار .

وفي الثامنة والنصف تهادت مس تول إلى القاعة مع رفيقها ، وسرعان ما اتجهت عيناها إلى صديقتها أنا وهي تتأبط ذراع صاحبها الوفي جيمي :

وصاحت أنا :

- هلا . . هلا! . . الآن ماج لم تقع . . كلا! أليس صاحبها رشيقاً ؟ أظن ذلك . . أليس أنيقاً . . انظر إليه . .»

قال جيمي بصوت محنق كأن فيه (صنفرة) :

- «هيا أرخي لنفسك العنان . . أنشبي فيه أظفارك إن كانت لك رغبة فيه ، ان الوافدين الجدد يكسبون لأول مرة دائماً في غمرة الزحام . لا عليك مني ، فما أظنه يعصر كل الليمون[1] هه!»

- «اخرس يا جيمي . . إنك لتدرك ما أريد . إني فرحة لماجي ليس إلا ، فهو أول صديق تضع يدها عليه ، وها هما ذان قادمان»

وتهادت ماجي عبر القاعة كيخت «محندق» يقطره طراد فخم . فقد كان رفيقها يبرر بحق كل مدائح صديقتها فيه ، فهو أطول خمسة سنتيمترات من الرياضي الوسط من أعضاء (جمعية خذ وهات) وشعره الفاحم جعد ، وعندما يجود بابتسامته المتواترة تسطع عيناه وثناياه . بيد أن شبان «نادي ورقة البرسيم» لم يكن إعجابهم ينصب على محاسن المرء بمقدار ما ينصب على حظه من الشجاعة ، وانتصاراته في الملاكمة ، ومناعته على سطوة القانون التي تهدد الملاكمين على

١ - كناية عن انه لن يستبي كل الفتيات، وانه سيجد غيرها من بينهن.

الدوام . وكان عضو الجماعة الذي يقتاد إلى عجلته عذراء من عذارى مصنع العلب يحتقر مظاهر الرقاعة التي لم تكن تعتبر وسائل شريفة للنزال . لقد كانت ضخامة عضلات العضد ، وتحدي السترة لأزرارها من فوق الصدر ، والايمان الراسخ بسيطرة الرجل في دستور الخليقة ، وحتى العرض الرزين للسيقان المعوجة ، كانت هذه كلها ذخائر الظرفاء في نادي ورقة البرسيم ، وأسلحتهم المعترف بفعلها الساحر في معارك كيوبيد الغرامية . ومن أجل ذلك نظروا إلى انحناءات هذا الزائر الجديد ، ووقفاته المغرية بشيء من الوجوم .

لقد قدمته ماجي لهم على انه «مستر تيرى أو سوليفان . . . صديق من أصدقائي» وراحت تطوف به في البهو ، وتقدمه لكل قادم من أعضاء «نادي ورقة البرسيم» وأوشكت أن تصبح جميلة بذلك البريق العجيب الذي يسرق في عين كل فتاة تصادف أول صديق ، وعين كل هرة تلاقي أول فأر .

ودارت هذه الكلمة من فم إلى فم بين بنات المصنع : «لقد وجدت ماجي تول رفيقاً في النهاية . فدقوا النفير لرفيق ماج» وكذلك عبر أعضاء «جمعية خذ وهات» عما يشعرون به من زراية مشوبة بقلة المبالاة .

كان من عادة ماجي في هذه المراقص الأسبوعية أن تدفئ رقعة بعينها من الجدار من طول ما تلصق بها ظهرها ، وكم كانت تغالي في الاحساس بالامتنان والتعبير عنه كلما دعاها إلى الرقص شخص يؤثر على نفسه ، فترخص متعته وتزعزعها بهذه المغالاة . بل انها تعودت أن ترى أنا وهي تغمز بكوعها جيمي المتردد ، لتدفعه دفعاً إلى دعوة صديقتها لرقصة تدوس فيه قدميه . ولكن بغاثها استنسر الليلة ، فأصبح تيرى أو سوليفان الأمير الساحر الظافر ، وأصبحت ماجي تول الفراشة التي نشرت جناحيها لطيرانها الأول . ولئن الاختلاط لا ينبغي أن يريق قطرة واحدة من رحيق تلك السعادة المكللة بغلائل الورد ، التي توجت ماجي في ليلتها الوحيدة البالغة أوج الكمال .

وحاصرتها الفتيات لتقدمهن إلى صاحبها . وبدأ فجأة شبان «نادي

ورقة البرسيم » يرون فتناً في مس تول عميت عنها عيونهم سنتين ، فراحوا ينحنون لها ، ملتمسين تسجيل أنفسهم للرقصة التالية .

وكتبَ الفوز لماجي ، وإن جفت مباهج الليلة لتيرى أو سوليفان قبل الأوان . لقد صفف شعره الجعد ، ووقف أمام المرآة أمام نافذة حجرته المفتوحة سبع وقفات في عشر دقائق يعرض محاسنه ومزاياه ، وقد رقص كما ترقص الآلهة ، وافتن في التأنق والسلوك وإحاطة نفسه بجو خاص ، وتدافعت من شفتيه الألفاظ . . ورقص رقصتين متواليتين مع فتاة مصنع العلب التي جاءت مع دمبسي دونفان .

إن دمبسي كان رئيس الجمعية وكان يرتدي ملابس السهرة ، وكان في قدرته أن يرفع « البار » إلى مستوى ذقنه بيد واحدة مرتين ، وكان واحداً من أركان حرب « مايك أوسوليفان الكبير » ، وما كان يهوله الهول قط . وما من شرطي جرؤ على القبض عليه يوماً ما . وإنما كان كلما شج رأس بائع فاكهة على عربة يد ، أو كسر ركبة عضو من أعضاء جمعية هنريك سويني للرحلات والآداب ، جاء إليه شرطي يقول : « إن الضابط يحب أن يراك في المكتب بضع دقائق عندما يحلو لك يا ولدي دمبسي » .

وفي المكتب تكون طائفة متنوعة من السادة ، يضعون السلاسل الذهبية على صدورهم ، والسيجار الأسود في أفواههم ، فيروي أحدهم عن الحادث قصة مضحكة ويطلق سراح دمبسي ، فيعود ليمارس في نصف ساعة رفع الأثقال . ثم الرقص إذن على سلك مشدود عبر شلالات نياجارا ، كان أحمد عاقبة من الرقص مرتين مع فتاة دمبسي دونوفان . وتجلى على الباب في الساعة العاشرة « مايك أوسوليفان الكبير » بوجهه المستدير ، حيث وقف خمس دقائق يتأمل المكان . وكان من عادته في كل حفلة أن يقف وقفته هذه يبتسم للفتيات ، ويقدم السيجار الفاخر للشبان المرحين .

وما أن وقف بالباب الليلة حتى كان دمبسي دونوفان بجواره يصب في أذنه سيلاً من الألفاظ ، فنظر مايك إلى الراقصين بإمعان ثم ابتسم ،

وهز رأسه وانسحب ، وسرعان ما وقفت الموسيقى وتبعثر الراقصون على المقاعد المثبتة في الجدران ، وتخلى تيرى أوسوليفان عن فتاة جميلة ، وعاد هو إلى حيث كانت ماجي . . .

وبإحدى الغرائز التي لابد أن نكون قد ورثناها عن الرومان ، تلفت كل من بالقاعة إليهما دون استثناء ، وطاف بالقاعة كلها شعور خفي بأن معركة على الأبواب ، فقد اقترب اثنان أو ثلاثة من أعضاء « جمعية خذ وهات » في أكمامهم التي ضاقت بأذرعهم المفتولة ، من تيرى أوسوليفان .

وقال دمبسي : « لحظة يا مستر أوسوليفان . لعلك سعيد . في أي مكان قلت انك تقيم ؟ »

كان الخصمان كفرسي رهان ، وان بدا أن دمبسي يزيد على منافسه عشرة أرطال . وان كان أوسوليفان أعرض وأسرع فلدمبسي عين في برودة الثلج ، وفم كالشق يدل على السيطرة والسلطان ، وفك يعز على التحطيم ، وسحنة لها جمال الغيد وقلة اكتراث الأبطال . وتسعرت في وجه الزائر نار لم يستطع كتمان ما يشوبها من تهكم واحتقار . وكأنهما كانا خصمين بحكم قانون سن منذ كانت الصخور في كيانها في الفخامة ، آية في القوة ، آية في انعدام النظراء ، حتى ليصعب المصهور . فقد كان كلاهما آية بينهما التفضيل . وما تتسع الدنيا لكليهما ، وما ينبغي إلا لواحد منهما البقاء .

وقال أوسوليفان بوقاحة : « إني أقيم في شارع جراند ، ولا يعسر عليك أن تلقاني في بيتي ، فأين تقيم أنت ؟! »

وتجاهل دمبسي السؤال واستأنف : « تزعم أن اسمك أوسوليفان ، مع أن مايك الكبير يقول أن عينه لم تقع عليك قط »

قال فاتن المرقص : « ما أكثر ما لم تقع عليه عينه! »

وقال دمبسي في بحة حلوة : « ان آل أوسوليفان في هذه البقعة يعرف بعضهم بعضاً في العادة . وقد أتيت مرافقاً لعضو من أعضائنا السيدات . ونحن نطالب بفرصة لإصلاح هذا الوضع ، فإن كانت لك

شجرة نسب فدعنا نر بضعة براعم من آل سوليفان التاريخيين نابتة عليها ، أو لعلك تؤثر أن نقتلعها منك من الجذور ؟ »

وأجاب أوسوليفان في هدوء : « أظن من الخير لك أن تعني بنفسك » .

وبرقت عينا دمبسي ، وأشار إليه بسبابة ملهمة كأنما خطرت له فكرة باهرة ، وقال في لهجة ودية : « لقد فقستها الآن ، انها مجرد هفوة صغيرة ، فلست من آل سوليفيان ، وإنما أنت قرد ذو ذنب ، فسامحنا إن كنا لم نعرفك منذ البداية » .

وومضت عين أوسوليفان ، وتهيأ للقيام بحركة مباغتة ، ولكن آند كوجهان ، كان متأهباً لها فقبض على ذراعه .

وأومأ دمبسي برأسه « لا ندى ووليم ماكماهان سكرتير النادي ، وحث خطاه نحو باب في مؤخرة القاعة ، ولحق بالجمع الصغير عضوان آخران من « جمعية خذ وهات » ، وأصبح تيرى أوسوليفان الآن في قبضة مجلس اللوائح والمراجع الاجتماعية ، فتحدثوا إليه في لطف وايجاز وقادوه من الباب الخلفي .

وتحتاج هذه المناورة من أعضاء « نادي ورقة البرسيم » إلى كلمة ايضاح . فقد كان خلف قاعة الجمعية غرفة صغيرة يستأجرها النادي لتسوية الخلافات الشخصية التي تنشأ في قاعة الرقص ، رجلاً لرجل ، وبأسلحة الطبيعة ، وتحت إشراف المجلس ، وما من سيدة تستطيع أن تزعم أنها شاهدت معركة ما في مرقص « نادي ورقة البرسيم » خلال عدة أعوام ، وقد تكفل بذلك السادة من أعضاء النادي .

قام دمبسي وأعضاء المجلس بهذا الجزء التمهيدي في مهمتهم في يسر وسلاسة جعلا أكثر من في القاعة لا يلحظون خاتمة الظفر الاجتماعي الذي ناله أوسوليفان الفاتن . وكان من بين هؤلاء ماجي التي راحت تبحث عن رفيقها بين الراقصين .

وقال لها روزكاسيدي : « لقد اختفى . ألم تشهدي ما كان ؟ إن دمبسي دونوفان قد تلاحى مع صاحبك ، وساقه في خطوة الراقص إلى

حجرة المذبح . قولي بالله : كيف ترين يا ماجي تصفيف شعري على هذا المنوال ؟ »

ودقت ماجي بيدها على صدرها ثم قالت في أنفاس مضطربة :

– « ذهب ليصارع دمبسي ؟ يجب أن يوقفا . ان دمبسي دونوفان لا يستطيع أن ينازله ، انه قاتله لا محالة »

قال روز :

– « وماذا يهمك ؟ ألا تحدث في كل مرقص معارك ؟ »

ولكن ماجي انطلقت كالسهم تشق طريقها المتعرج بين أفواج الراقصين حتى أتت الباب الخلفي فاقتحمته ، ثم رمت ثقلها على باب المعترك فدان لها ، وتبينت عينها من النظرة الأولى ما يجري هناك . . أعضاء مجلس اللوائح والمراجع واقفون جانباً ممسكين بالساعات ، ودمبسي دونوفان يتراقص بأكمامه المشمورة خفيف الخطو ، حذراً حذر الملاكم العصري على أقل من مرمى ذراع من خصمه في حين أن تيرى أوسوليفان واقف مشبك الذراعين على صدره وفي عيونه السوداء نظرة قاتلة . وبدون أن تطامن ماجي من سرعة دخولها اندفعت صارخة إلى الأمام . . اندفعت في الوقت المناسب لتمسك بذراع أوسوليفان وتتعلق به وهو يرتفع فجأة ، فيطيش منه الخنجر الطويل اللامع الذي سله من صدره . ووقع الخنجر على الأرض فرن عليها . ويالله من حادث أن يشهر سلاح الفولاذ في غرف « جمعية خذ وهات! » إنه حادث لا نظير له من قبل ، وقف له الكل دقيقة دون حراك . ثم ركل آندى كوجان الخنجر ببوز حذائه في ذهول ، فعل العالم الأثري بسلاح تاريخي لا علم له به . وعندئذ لفظ أوسوليفان من بين شفتيه كلمة لم يدرك معناها أحد ، فتبادل دمبسي والمجلس النظرات ، ثم نظر دمبسي إلى أوسوليفام بلا غضب كما ينظر المرء إلى كلب ضال ، وأومأ برأسه إلى الباب قائلاً في اقتضاب :

« إلى السلم الخلفي يا جيوسيبي . . وسيرمي لك أحد ما قبعتك وراءك! »

ومشت ماجي إلى دمبسي دونوفان ، وفي وجنتيها نقطتان حمراوان براقتان تسيل عليهما الدموع ، ثم حدقت في عينيه بشجاعة وقالت وقد خبا ما كان في عينيها من إشراق حتى مع البكاء :

- «لقد كنت أعرف ذلك يا دمبسي . كنت أعرف أنه افريقي ، وان اسمه توني سبينلي ، وقد بادرت بالدخول عندما علمت أنكما ستتلاكمان . ان هؤلاء الافريقيين يتسلحون بالخناجر على الدوام ، ولكنك لن تفهمني يا دمبسي . انني ما كان لي صاحب في حياتي قط ، ولقد مللت القدوم في صحبة أنا وجيمي كل ليلة ، فتآمرت معه على أن يسمي نفسه أوسوليفان ، وأحضرته معي ، وكنت أدرك أن دخوله المرقص كاسباني محال . أظن من الخير أن أستقيل من النادي الآن ؟»

والتفت دمبسي لآندي كوجان وقال مشيراً إلى الخنجر :

- ارم قاطعة الجبن هذه من النافذة ، وقل لهم في الداخل أن مستر أوسوليفان قد تلقى إشارة تليفونية بالذهاب إلى مرقص تاماني!

ثم استدار إلى ماجي يقول :

- وأنت يا ماجي هل لديك مانع من أن أوصلك إلى البيت ؟ ما رأيك في مساء السبت التالي ؟ هل تأتين إلى المرقص في صحبتي إذا جئت إليك ؟

وما أعجب السرعة التي استحالت بها عينا ماجي من الخمول إلى الإشراق من جديد ، وهي تجيبه متلعثمة :

- أصحيح يا دمبسي : هل ترفض البطة أن تعوم ؟

غرفة المنور

أول ما تريك مسز باركر في بيتها ردهاته المزدوجة . وأنت لن تجرؤ على مقاطعتها في وصفها لمحاسن هذه الردهات ، ومزايا السادة الذين سكنوها ثماني سنوات . وقد تحاول أن تعترف لها همهمة انك لست طبيباً ولا جراح أسنان ، فتتلقى مسز باركر هذا الاعتراف بصورة تجعلك تنصرف إلى الأبد عن شعورك الطيب القديم نحو أبويك اللذين أهملا تعليمك مهنة من المهن اللائقة بردهات مسز باركر .

ثم تصعد وراءها في درج السلم إلى الطابق الثاني ، وترى غرفته الخلفية التي ايجارها ثمانية دولارات ، ولكنك مع اقتناعك بوصفها الخاص بغرف الطابق الثاني ، أن الغرفة تساوي الاثني عشر ريالاً التي كان يدفعها فيها على الدوام مستر توزنبري ، حتى غادرها أخيراً ليشرف على مزرعة برتقال لأخيه في فلوريدا ، بالقرب من بالم بيتش ، حيث تشتي دائماً مسز ماكنير ، ساكنة الغرفة الأمامية ذات الحمام الخاص . . مع اقتناعك بكل هذا ، فانك تقول متلعثماً انك تريد غرفة بايجار أقل .

وتقودك مسز باركر - إذا أنت صمدت لاحتقارها - إلى غرفة مستر سكيدر الواسعة في الطابق الثالث . ورغم أن غرفة مستر سكيدر لم تكن خالية ، إذ كان يؤلف فيها مسرحياته ، ويدخن سجائره ، لا يبرحها طوال اليوم ، فان كل راغب في استئجار غرفة كان حتماً عليه أن

يزور غرفة المستر سكيدر ، ليعجب بسجوفها . وفي أعقاب كل زيارة كان مستر سكيدر يضطر بدافع الذعر الناشئ من احتمال طرده ، إلى دفع علاوة جديدة على الايجار .

ثم . . ثم إذا بقيت لك ساق تحملك ، ويدك المحمومة في جيبك متشبثة بالدولارات الثلاثة المنداة بالعرق ، وصوتك المبحوح يعترف بفقرك المذل الشنيع ، فان مسز باركر تنفض يدها من ارشادك ، وتصيح صياح الأوزة البرية منادية « كلارا » ثم توليك ظهرها وتنزل . ومن ثم تقودك كلارا الخادم الزنجية على السلم المكسو بالسجاد ، المؤدي إلى الطابق الرابع ، فتريك غرفة المنور ، التي تشغل سبعة في ثمانية أقدام ، من وسط البهو ، ويقوم على كل من جانبيها مخزن مظلم لسقط المتاع .

كان في الغرفة سرير حديدي ضيق ، وحمالة مغسل ، وكرسي ورف يستعمل صواناً ، وتبدو لك جدرانها الأربعة كأنما تنطبق عليك كجوانب نعش ، وتنساب يدك إلى عنقك ، وتشهق ، وتتطلع إلى أعلاها فتحس أنك تنظر إليه من قرار جب ثم تلتقط أنفاسك ثانية . ومن خلال زجاج المنور الصغير في سقف الحجرة ترى مربعاً صغيراً من اللانهاية الزرقاء .

وتقول كلارا في لهجة نصفها ازدراء ونصفها من ولاية ألاباما : « دولاران . . . . تفو! »

وجاءت مس ليسون ذات يوم تبحث عن غرفة ، وكانت تحمل آلة كاتبة ، صنعت لتحملها سيدة أضخم ، فقد كانت مس ليسون صبية صغيرة القد ، ظل شعرها وعيناها يكبران حتى بعد أن كف نموها ، وكأنما يقولان لها : « يا لله! لماذا لا تكبرين معنا ؟ »

وأرتها مسز باركر ردهتها المزدوجة ، وقالت لها مشيرة إلى مخدع في الجدار : « هنا يستطيع المرء أن يحتفظ بالهيكل العظمي أو المخدرات أو الفحم »!

وقالت مس ليسون وهي ترتعد : « ولكنني لست طبيبة ولا جراحة أسنان »!

وألقت عليها مسز باركر تلك النظرة المنكرة ، الراثية ، الساخرة ، الأشد برودة من الثلج ، والتي تدخرها لأولئك الذين فشلوا في الحصول على اجازات الطب وجراحة الأسنان ، ثم قادتها إلى الغرف الخلفية في الطابق الثاني .

وقالت مس ليسون : « ثمانية دولارات! يا للهول! إني لست أغا خان ، وان بدوت كذلك ، وما أنا إلا عاملة فقيرة ، فاريني شيئاً أعلى وأقل! »

ووثب مستر سكيدر عندما سمع طرقاً على الباب ، ناثراً على الأرض منفضة السجائر بما فيها من أعقاب .

وقالت مسز باركر وهي تبتسم ابتسامتها الشيطانية لملامحه التي شاع فيها الشحوب : « لا تؤاخذني يا مستر سكيدر ، فما كنت أعلم أنك هنا ، وقد سألت السيدة أن تلقي نظرة على سجوف غرفتك »!!

قالت مس ليسون وعلى ثغرها ابتسامة كابتسامة الملائكة : « إنها آية في الجمال » .

وبعد خروجها انهمك مستر سكيدر في تغيير بطلة آخر مسرحية له (لم تمثل) ، وكانت فرعاء سوداء الشعر ، إلى فتاة صغيرة القد ، لعوب لها ملامح مرحة ، وشعر كثيف براق .

وقال مستر سكيدر يحدث نفسه ، ونعلاه تواجهان سجوف الباب ، وقد استخفى في سحابة من الدخان كخنفس بحري يسبح في الهواء :

– « إن الممثلة آنا هيلد سترقص فرحاً بهذا الدور » .

وفي هذا الوقت كان نداء مسز باركر على كلارا يعلن على العالم بناقوسه الرنان حالة مس ليسون المالية ، وكان مارد أسود يقبض على ذراع الآنسة ، ويقودها في السلم المظلم إلى اللحد الذي تنجاب كوته العليا عن شعاع من النور ، ثم يغمغم بالكلمة المحملة بالسخرية والوعيد : « ريالان » .

وتنهدت مس ليسون قائلة :

– سآخذها » ، ثم ألقت بنفسها على السرير الحديدي العالي الصرير .

وكانت مس ليسون تخرج إلى عملها كل يوم ، ثم تعود في المساء حاملة أوراقاً مكتوبة تنسخها على الآلة الكاتبة ، ولكنها كانت تخلو من العمل أحياناً ، فتجلس على درج المدخل مع النزلاء الآخرين .

إن مس ليسون عندما صورت لم يخط لها في اللوح أن تسكن في غرفة منور ، فقد كان قلبها عامراً بالمرح ، وكان خيالها ممتلئاً بألطف وأغرب الأفكار . ولقد سمحت ذات مرة للمستر سكيدر أن يقرأ لها ثلاثة فصول من مهزلته العظيمة (التي لم تطبع) : «ليس هذا خدعة أو وارث الترام» . .!!

وكان الرجل من النزلاء يبتهجون كلما وجدت مس ليسون فسحة من وقتها لتجالسهم ساعة أو ساعتين على السلم ، ولكن المس لونج نكر التي تحتل درجة السلم العليا ، وتشتغل مدرسة في مدرسة شعبية ، وتعلق على كل ما تقوله لها بكلمة «حقاً!» كانت لا تشاطرهم هذا الابتهاج . وكذلك كان شأن مس دورن صاحبة الدرجة السفلى من السلم ، والعاملة في محل تجاري ، والتي تمارس صيد البط في مدينة الملاهي كل يوم أحد . وكانت مس ليسون تحتل الدرجة الوسطى من السلم ، فلا تكاد تأخذ مكانها حتى يتجمع من حولها الرجال .

وكان هذا بنوع خاص ديدن المستر سكيدر الذي اصطفاها خياله لتمثل دور البطلة في تمثيلية غرامية شخصية (لم تكتب) من واقع الحياة . والمستر هوفر البدين الخجول الأحمق الموفى على الخامسة والأربعين . وكذلك المستر ايفانس الشاب الذي يتصنع السعال الأجوف ليدفعها إلى رجائه أن يقلع عن التدخين . وفي الوقت الذي كان الرجال يصفونها بأنها ألطف وأظرف من على ظهر الأرض ، كانت صاحبتا الدرجتين العليا والسفلى يقابلن هذا الرأي بتحفظ شديد .

***

وإني لأتوسل للقارئ أن يترك القصة تتوقف هنيهة ، يظهر فيها

معلن الأشخاص ، أمام الستار ، وتحت أضواء المسرح ، ليسكب دمعة حزينة على بدانة المستر هوفر ، وليقرع الطبول على مأساة السمنة الفاحشة ، ولعنة الضخامة الجسيمة ، وكارثة البدانة الهائلة!! إن الطن من شحم فالستاف[1] قد يشتمل على حب أكثر مما تحويه الأوقيه من هزال روميو . ولكن المحب أن حمد منه التنهد ، فهيهات أن يحمد منه اللهاث . وفي موكب الآلهة يساق البدين في حبائل موماس[2] ، فإن أشد القلوب إخلاصاً في الهوى يخفق سدى فوق كرش قطره متران . فتأخر يا هوفر . . تأخر . . إن هوفر الخجول الأحمق الموفي على الخامسة والأربعين قد يحظى بهيلانه[3] نفسها ، ولكن هوفر الخجول الأحمق الموفى على الخامسة والأربعين ، ببدانته الفاحشة لا يصلح إلا وقوداً للجحيم . تأخر فما من أمل لك قط يا هوفر .

وإذ يجلس نزلاء مسز باركر على السلم ذات أمسية من أمسيات الصيف ، تطلعت مس ليسون إلى السماء ، وصاحت وهي تضحك ضحكتها الصغيرة الطروب :

– هذا «بيلي جاكسون» . إني لأراه من هنا كذلك .

وتطلع الكل إلى الأعالي ، بعضهم ينظر إلى نوافذ ناطحات السماء ، وآخرون يبحثون عن طائرة ، يقودها من يدعي جاكسون .

ووضحت مس ليسون مرادها ، وهي تشير إلى السماء بأصبع صغير : «إنما أعني هذا النجم ، ليس النجم الكبير الساطع ، ولكن النجم الثابت الزرقة الذي بجواره . إني أراه كل ليلة من كوة المنور ، وقد سميته بيلي جاكسون» .

قالت مس لونج نكر : «حقاً! ما كنت أعلم أنك فلكية يا مس ليسون»

وأجابت الصبية المولعة بالتطلع للنجوم : «إني لأعرف ما يعرفه أي فلكي على طراز الأكمام المتوقع ارتداؤها في الخريف القادم بالمريخ» .

---

١ – فالستاف وروميو من شخصيات شكسبير، الأول منهما بدين والثاني نحيف.

٢ – إله السخرية عند الاغريق.

٣ – غادة طروادة المعروفة في الأساطير.

قالت مس لونج نكر : «حقاً!» إن الكوكب الذي تشيرين إليه هو النجم الثالث في مجموعة كاسيوبيا (الثريا ؟) ، وهو بالتقريب في القدر الثاني ، وعبوره في خط الزوال هو . .»

قال مستر ايفانس الشاب : «أوه . . أظن بيلي جاكسون اسماً أفضل» .

وقال مستر هوفر بصوت يتنزى احتقاراً لمس لونج نكر : «أحسب المس ليسون لها من الحق ما لأي من هؤلاء الفلكيين العجائز في تسمية النجوم» .

قالت مس لونج نكر : «حقاً!»

وعلقت مس دورن : «أترى هذا الكوكب من النيازك الراقية ؟ إني أصيب تسع بطات وأرنبا من عشر في مدينة الملاهي كل يوم أحد» .

قالت مس ليسون : «إنه لا يرى جيداً من هنا ، وحبذا لو رأيتموه من كوة غرفتي ، فلعلكم تعلمون أن النجوم قد ترى من قاع جب حتى في وضح النهار . إن غرفتي في الليل أشبه ما تكون بهوة منجم الفحم ، وان بيلي جاكسون ليبدو منها كالماسة الكبرى في دبوس تشبك به غادة الليل غلائل قميصها» .

ومر بعد ذلك حين لم تعد مس ليسون تحضر فيه رزم الأوراق الضخمة لنسخها في البيت . وبدلاً من أن تشتغل كلما خرجت في الصباح ، كانت تدور على المكاتب من واحد إلى آخر تذيب حشاشة قلبها تحت رذاذ الرفض القاسي الذي تتلقاه من غلمان هذه المكاتب بلا رحمة . ودام ذلك طويلاً .

حتى كان ذات مساء صعدت فيه مس ليسون الدرج متعبة ، في الساعة التي كانت تعود فيها إلى بيت مسز باركر على الدوام ، بعد أن تتناول عشاءها في مطعم . بيد أنها لم تكن ذاقت طعاماً هذا المساء .

وعندما دخلت الردهة لاقاها مستر هوفر ، فانتهز الفرصة السانحة وطلب يدها للزواج ، وكانت بدانته تكبس عليها كأنها جرف جليد ينهار ، فترنحت تكاد تسقط لولا أن تعلقت بالسياج ، وحاول أن يضم

يدها إليه ، فنتشتها وصفعته على وجهه في كلال . ومضت تصعد السلم درجة درجة ، تجر نفسها جراً معتمدة على السياج . ومرت بباب مستر سكيدر وهو يعمل في تنقيح الحركة المسرحية لبطلته ميرتل ديلورم (مس ليسون) في هزليته (التي رفضت) بحيث تدخل المسرح من جانبه تتأود حتى تصل إلى جوار الكونت . وزحفت زحفاً على السلم المغطى بالسجاد حتى وصلت في النهاية إلى باب غرفة المنور ففتحته ودخلت .

وكانت من الضعف بحيث عجزت عن أن تشعل النور أو تخلع ثيابها ، فتهالكت على السرير الحديدي ، يكاد بدنها المنهار يعيا عن تحريك لوالب السرير . وفي هذا الجحر المظلم الذي هو مأواها ، فتحت أجفانها الثقيلة ببطء وتبسمت .

ذلك أن «بيلي جاكسون» كان يشرف عليها من كوة المنور في هدوئه وثباته وسناه . ومحا الوجود كله من حولها ، فغرقت في وهدة من الظلمة ، لا ترى فيها إلا ذلك الضوء المربع الخافت ، المحيط بالنجم الذي سمته ذلك الاسم المستغرب العقيم . وحدثت نفسها أن مس لونج نكر لم تجانب الصواب ، وأن هذا النجم ليس «بيلي جاكسون» ولكنه النجم الثالث من نجوم الثريا ، بيد أن نفسها لم تطاوعها أن تطلق عليه هذا الاسم الهزيل .

وبينما هي مستلقية على ظهرها ، حاولت عبثاً ، أن ترفع ذراعها مرتين ، وفي المرة الثالثة نجحت في أن تضع أصبعين نحيلين على شفتيها ، وتذرو قبلة في الهوة المظلمة ، أرسلتها إلى «بيلي جاكسون» ثم هوى ذراعها كليلا إلى حيث كان .

وغمغمت في ضعف :

– «الوداع يا بيلي . إنك تبعد ملايين الأميال ، ولا تسطع حتى مرة واحدة . ومع ذلك فقد بقيت أكثر الوقت حيث أراك في علاك ، الذي انعدم في عيني كل شيء فيه إلا الظلام . ألم تفعل ؟ . . ملايين من الأميال! . . الوداع يا بيلي جاكسون» .

إن كلارا الخادم الزنجية وجدت الباب مغلقاً في الساعة العاشرة من

صباح اليوم التالي ، وفتحوه عنوة ، ولما فشل الخل ، وتدليك المعاصم ، وبخور الريش المحروق في إعادتها للحياة ، طلب أحدهم الاسعاف بالتليفون . . .

***

وقفت سيارة الاسعاف بعد لأى بالباب تعلن عن نفسها بقرع الأجراس ، وصعد السلم طبيب شاب قوي في معطف أبيض ، يبدو على وجهه السمح التأهب والنشاط والثقة ، ويختلط فيه الظرف بالعبوس .

وقال الطبيب باقتضاب :

– « يوجد طلب للاسعاف من رقم ٤٩ . . . هل من مصاب ؟ »

وقالت مسز باركر وهي تشد منخريها ، كما لو كان مصابها في حدوث شيء ببيتها هو أكبر مصاب :

– أجل يا دكتور . لا أستطيع أن أتصور ما بها ، وما من شيء فعلناه ردها إلى الحياة . . إنها صبية تدعى مس اليسى . . نعم مس اليسى ليسون . لم تسبق السكني في منزلي قط » .

وصاح الطبيب في صوت رهيب لم تتعوده مسز باركر :

– « أية غرفة ؟ »

– « غرفة المنور . . إنها »

ومن الواضح أن طبيب الاسعاف كان ملماً بمكان غرف المناور ، فقد صعد السلم أربعاً أربعاً ، وتبعته مسز باركر بالبطء الذي يتلاءم وكبرياءها .

وقابلته على بسطة السلم الأولى ، وهو عائد ، يحمل على ذراعيه عالمة الفلك ، فوقف لحظة ترك فيها لمبضع لسانه المتمرن الحرية في كلمة قالها همساً ، فلم تكد تسمعها مسز باركر حتى انكمشت وتضاءلت كرداء وقع من حيث كان معلقاً على مسمار . ومنذ ذلك اليوم بقيت في بدنها وذهنها من هذه الكلمات غضون . وكثيراً ما كان الفضوليون من نزلائها يسألونها عما قال الطبيب فتجيب :

– « لقد كان ما كان . ولو أني أوتيت مغفرة على مجرد سماع ما قاله لكفاني » .

ومضى الطبيب بحمله يخط طريقه بين شرذمة الكلاب التي اجتذبها حب استطلاع هذا الطراد ، بل انهم فسحوا له في الطريق وتلاصقوا بالجدران مرتبكين ، لأن وجهه كان وجه شخص يحمل ميتاً من موتاه .

ولاحظوا أنه لم يطرح ذلك الهيكل الذي حمله على سرير السيارة المعد ، وكان كل ما قاله للسائق :

- « سق بسرعة الابالسة يا ويلسون » .

هذا كل ما كان . فهل وجدتم قصة فيه أيها القراء ؟ إنني قرأت نبأ صغيراً في صحف الصباح ، لعل آخر جملة فيه تعينكم كما أعانتني على مزج الحوادث بعضها ببعض .

جاء في النبأ أن مستشفى بلفي قد نقلت إليه فتاة شابة من رقم ٤٩ شرق شارع . . تعاني هزالاً شديداً نشأ من الجوع والحرمان . واختتم الخبر بهذه الكلمات :

- « إن الدكتور وليم جاكسون الطبيب الذي أشرف على إسعاف الحالة يقول ان الفتاة تتماثل للشفاء » .

حب بالمراسلة

لم يكن الفصل ولا الساعة مما يسمح بالتردد على الحدائق ، ومن المحتمل أن تكون تلك الفتاة التي أخذت مكانها على مقعد بجوار ممر الحديقة ، إنما استجابت لحافز مفاجئ دعاها للجلوس برهة ، تستمتع فيها باشتهاء مقدم الربيع .

وجلست شاردة لا تتحرك ، وطافت بمحياها مسحة من الكآبة لابد أنها كانت حديثة المولد ، إذ أنها لم تنل بعد من ملاحة وجنتيها ونضرتهما ، ولم تقهر ذلك القوس الذي ينم عن العزم في شفتيها .

وأقبل شاب طويل القامة سريع الخطا ، يذرع الحديقة ، فاجتاز الممر الذي جلست بجواره الفتاة ، وكان يتبعه عن كثب صبي يحمل حقيبة ملابس . . . وما أن وقع بصر الشاب على الفتاة وهو يقترب منها يرقب أسارير وجهها ، ووجهه نفسه مسرح لمزيج من القلق والآلام . وعلى أنه مر من أمامها حتى لم يعد بينه وبينها إلا خطوات قلائل ، فإنه لم ير في ملامحها دليلاً على أنها شعرت بقدومه أو وجوده .

وظل سائراً حتى ابتعد عنها قرابة الخمسين متراً ، ثم توقف فجأة وجلس في مقعد آخر ، وألقى الصبي الحقيبة على الأرض ، وحملق في صاحبه بعينين ملؤهما المكر والحيرة . . وأخرج الشاب منديله فمسح

جبينه ، وكان منديلاً جميلاً ، ولكن الجبين كان أجمل ، فقد كان الشاب وسيماً ترتاح العين لرؤيته . ثم قال للصبي :

– « أريد منك أن تحمل رسالة شفوية مني إلى تلك السيدة الشابة التي تجلس على ذلك المقعد . قل لها انني في طريقي إلى المحطة للرحيل إلى سان فرانسيسكو ، حيث أنضم إلى بعثة لصيد الوعول في آلاسكا . قل لها أنني منذ أمرتني ألا أكتب أو أتحدث إليها ، لم تعد أمامي إلا تلك المحاولة ، أتوسل بها إلى عدالتها ، أن تعيد النظر في قرارها ، ولو من أجل ما يربطنا من ذكريات . قل لها إن إدانة شخص ما ، ولفظه لفظ النواة ، دون أن يرتكب ذنباً ، وبغير أن تواجهه بالاسباب ، أو تمنحه فرصة للايضاح ، مناقض لكل ما يعرفه من سجاياها . قل لها إنني من أجل ذلك عصيت أمرها بعض الشيء . يحدوني الأمل أن تكون قد ظلت على عهدي بها ميالة لأن ترى العدل آخذاً مجراه . اذهب وقل لها كل ذلك . . »

ووضع الشاب نصف ريال في يد الغلام ، فتطلع إليه الغلام لحظة بأعين تلتمع خبثاً في وجه ذكي متسخ ، ثم انطلق يعدو ، حتى أتى السيدة في قليل من الريب ، ولكن دون ارتباك ، فلمس طرف قبعته التي استقرت على قفاه ، ونظرت إليه السيدة في برود لم يشبه أي عطف أو عداء . قال لها :

– « سيدتي . . إن السيد الذي يجلس على المقعد الآخر أرسل معي إليك أغنية ورقصة . . فإذا كانت سيدتي لا تعرف هذا الشاب ، وكان يحاول التطفل ، فلتقل كلمة ، فأنادي الشرطي في دقائق . . وإذا كنت تعرفينه ، وكان على خلق ، نشرت بين يديك طاقة الحب التي أرسلها . . »

وبدا على محيا السيدة أثر طفيف من الشوق ، فقالت في صوت حلو رزين ، يلف ألفاظها في غلالة من التهكم الخفي .

– « أغنية ورقصة . .! هذا نمط جديد في الشعر العاطفي على ما أظن . .! لقد سبق لي أن عرفت هذا السيد الذي أرسلك . لذلك أعتقد

أن استدعاء الشرطي لا محل له ، ولك أن تؤدي رسالتك المغنية الراقصة ، ولكن لا ترفع عقيرتك بالغناء ، فالوقت ما زال مبكراً لمثل هذا العرض في الهواء الطلق ، وقد نسترعى الانتباه » . .

قال الغلام وقد عرته هزة من فرعه إلى قدمه :

– « أنت تعرفين ما أقصد يا سيدتي . . وهو يقول انه قد أعد في هذه الحقيبة كل شيء للرحيل إلى سان فرانسيسكو ، ثم إلى آلسكا لصيد الوعول . . . ويقول انك أمرته ألا يكتب إليك أو يحوم حول بابك ، فاضطر إلى هذه الوسيلة ليوضح لك الأمر . ثم يقول انك أسقطته من حسابك كأنه ماض قديم ، وأنك لم تعطه فرصة للتملص من هذا القرار ، وانك صفعته صفعة لم توضحي أسبابها على الإطلاق! »

ولم ينقص ذلك الشوق الطفيف الذي جد على عيني الفتاة ، ولعل مرده إلى صياد الوعول وابتكاره هذا في التراسل ، واحتياله للتغلب على أوامرها الصريحة بتجنب وسائل الاتصال المألوفة . وثبتت بصرها على تمثال يقف حزيناً في الحديقة المهوشة ، ثم قالت للرسول :

– « قل للسيد إنني لست في حاجة إلى أن أكرر له مثلي العليا! إنه يعلم ماذا كانت عليه ، وما لا تفتأ عليه حتى الآن . وأهم ما فيها – إزاء الموقف الحاضر – الصدق والوفاء المطلق . قل له إني فحصت عن قلبي بقدر ما يستطيع إنسان أن يفحص عن قلبه ، فعرفت حاجاته ، كما عرفت مكامن الضعف فيه . وذلك هو السبب الذي أرفض من أجله الاستماع إلى توسله ، على أي وجه جاء . انني لم أبن إدانته على وشاية أو شبهة ، ولذلك لم أواجهه بأي اتهام . ولكن ما دام مصراً على سماع ما لابد أنه يعرفه تماماً ، فيمكنك أن تنقل إليه تفاصيل الموضوع . .

قل له إنني في تلك الليلة دخلت المشتل من بابه الخلفي لأقطف وردة لأمي ، فرأيته هو والمس أشبرتون تحت شجرة القرنفل ، وكان المنظر بديعاً ، ولكن وضعهما وتلاصقهما كانا من الوضوح والفصاحة بحيث لا يتطلبان أي ايضاح . وتركت المشتل ، وتركت الوردة في الوقت نفسه ، كما تركت من كنت أظنه مثلي الأعلى . وتستطيع الآن

أن تحمل هذه الأغنية والرقصة إلى السيد الذي أرسلك . إلى مستورد المغنيات والراقصات »!!

قال الغلام :

« لقد وعيت كل ما قلت إلا كلمة لم أفهمها . . هذا التلا . . . التلاصق ، ماذا يكون . . ؟ »

– « يمكنك أن تسميه التجاور ، أو إذا شئت الاقتراب من شخص ما أكثر من اللازم ، ولاسيما إذا كان الشخص المقترب يزعم نفسه عنواناً للفضائل! »

وانفلت الحصا تحت أقدام الصبي وهو يركض حتى يقف بجانب المقعد الآخر ، فتسائله عين الشاب في نهم شديد عما كان ، فتلتمع عين الصبي في غيرة المترجم عما لا يهمه ويقول :

– « تقول السيدة إنها تدرك أن الفتيات يستسلمن سريعاً إلى الشبان الذين يديرون رءوسهن بقصص الخيال ، وهذا هو السبب الذي من أجله ترفض الاستماع إلى نعومة أحاديثهم من جديد . وتقول إنها فاجأتك تعانق بغير حق كيسا من القطن الأبيض في مشتل الزهور ، وانها عندما دخلته عفواً لتقطف زهرة وجدتك تعتصر بين ذراعيك الفتاة الأخرى . وتقول إن هذه كانت متعة حلوة لك ولاشك ، ولكنها أصابتها هي بالغثيان . وتقول انه من الأفضل لك أن تنصرف إلى عملك وتلحق بالقطار » .

وصدر عن الشاب صفير خافت ، ثم أشرقت عينه بفكرة طارئة ، فدس يده في جيب سترته الداخلي ، ثم أخرج حفنة من الرسائل ، واختار واحدة منها ، ناولها للصبي ومعها ريال فضي أخرجه من جيب الصدار ، وقال له :

– « أعط هذه الرسالة للسيدة واسألها أن تقرأها ، وقل لها إن هذه الرسالة ستجلو لها الموقف دون شك . وإنها لو أشربت ادراكها للمثل العليا ، بلمحة من الثقة ، لكان من الممكن أن تتجنب كثيراً من الحسرات . قل لها إن الوفاء الذي تؤمن به لم يتزعزع قيد شعرة ، وانني في انتظار الجواب » .

ووقف الرسول أمام السيدة يقول :

- « يقول السيد إن حمل الذنوب قد ألقى على عاتقه دون مبرر . كما يقول إنه ليس فتى رقيعاً يتسكع وراء النساء ، وإنك يا سيدتي عندما تقرأين هذه الرسالة ، ستجدينه مبرءا من كل عيب . . »

ونشرت الفتاة الرسالة في ارتياب ، فقرأت فيها :

- « عزيزي الدكتور أرنولد

أود أن أشكرك على معونتك الكريمة لابنتي ، تلك المعونة التي صادفت وقتها مساء الجمعة الماضي ، عندما خرت مغشياً عليها في مشتل مسز والدرون من علة قلبها القديمة . ولو أنك لم تدركها قبل أن تقع ولم تمنحها الرعاية اللازمة لكان من المحتمل أن نفقدها . وسأكون سعيداً لو زرتنا ، وأخذت على عاتقك العناية بها . .

شاكر فضلك : « روبرت أشبرتون »

وطوت الفتاة الرسالة وناولتها للغلام . .

وقال الرسول على الفور :

- « إن السيد يطلب جواباً . فماذا أقول له . . ؟ »

وومضت عينا الفتاة فجأة ، ومضة مشرقة ، بسامة ، مخضلة بالدموع ، ثم ضحكت ضحكة سعيدة مرتعشة وهي تقول :

- « قل لهذا الفتى الجالس على المقعد الآخر إن فتاته في شوق إليه » . . .

اكسير الحب

يقع «مخزن عقاقير المصباح الأزرق» في حي متواضع في أرباض المدينة . وهذا المخزن لا يعترف بأن مهنة الصيدلة يتسع صدرها لبيع العطور والتحف الصغيرة ، والمياه الغازية[1] . ولو انك طلبت منه دواء شافياً للصداع ، فلن يعطيك بدلاً منه قرصاً من أقراص الحلواء .

ومخزن المصباح الأزرق فوق ذلك يحتقر اتجاهات الصيدلة الحديثة نحو توفير العمل والعامل ، وهو يحضر أدويته بنفسه ، ويستخلص الصبغات من الجواهر بنفسه ، وما زال يصنع حبوب الدواء بطرقه البدائية ، ويجففها بالذرور ، ويعبئها في علب مستديرة من الورق!! ويقع المخزن على ناصية في الشارع يتجمع عندها أسراب من الأطفال في ثياب زينتهم الرثة ، يمرحون ويلعبون ، ويرشحون أنفسهم لأدوية السعال في المخزن المجاور!!

وكان ايكى شوينستين صاحب النوبة المسائية في مخزن المصباح الأزرق ، وكان صديقاً روحياً لعملائه أجمعين ، فإن قلب الصيدلية في هذه الأحياء المتواضعة لم يكن من حجر . وكان صيدلياً كما ينبغي أن يكون ، مستشاراً ، وناصحاً ، ومستودع أسرار ، ومبشراً قادراً ، وصديقاً وفياً ،

١ - مخازن العقاقير في الولايات المتحدة، وهي غير الصيدليات، لا تبيع العقاقير المألوفة فقط، ولكنها تتداول بيع الأطعمة الجافة والحلوى والمستلزمات اليومية للبيت.

علمه يحترم ، وحكمته الخفية توقر ، ودواؤه في الأغلب يدلق في بالوعة الشارع دون أن يذاق ومن أجل ذلك كان ايكى بأنفه المحبب المبقع ، وجسمه الهزيل المقوس تحت حمل العلم والمعرفة ، معروفاً في جوار المصباح الأزرق ، مرغوباً في نصحه وتوجيهه على الدوام .

وكان ايكى يعيش في غرفة مفروشة في مسكن مسز ردلز على بعد ناصيتين من مخزن العقاقير ، ينام فيها ويفطر . وكان لمسز ردلز بنت تدعى روزى . وما من داع للف والدوران ، فان ايكى أحب روزى حب عبادة ، كما لابد أن تكون قد حدست . فقد صبغت كل أفكاره ، وأصبحت في عينه الخلاصة المركبة لكل ما هو نقي ونفيس في عرف الكيميا ولم يعد بين ذخائر عقاقيره ما يمكن أن يناظرها في النفاسة والنقاء . ولكن ايكى كان خجولاً ، والخجل والخوف مطايا لا تنال عليها الآمال ، ومذيبات ضعيفة تستعصي فيها أماني الهوى على الذوبان . لقد كان ايكى في صميم عمله كائناً ممتازاً ، دقيق الوعي للقيم والمعارف ولكنه خارج هذه الدائرة تهن أوصاله ، ويكف بصره ، ويهيم على وجهه بثيابه الفضفاضة المبقعة بالمحاليل الكيميائية ، الفواحة بروائح المر وفاليريانات النوشادر[1] .

وكان شانك ماك جوان هو الذبابة التي وقعت لايكى في طبق العسل . فان مستر ماك جوان كان يجاهد من ناحيته هو الآخر ليحظى بالبسمات المتوهجة التي يلفظها ثغر روزى . ولكنه كان أبصر من صاحبه بالهدف ، وأشد منه توفيقاً في اصابته . وكان مع ذلك صديقاً لايكى وعميلاً من عملائه . وكثيراً ما جاء إلى المصباح الأزرق بكدم أو رض يبتغي علاجه بصبغة اليود ، أو جرح يضمده بالمشمع اللصاق بعد ليلة بهيجة في الأزقة .

وهبط ماك جوان في أصيل يوم من الأيام على المصباح الأزرق بهدوئه وبساطته المألوفين ، فجلس على أحد المقاعد ، مؤدباً ، منبسط الأسارير ، تبدو على وجهه الطيبة في غير ضعف ، والعزم الذي لا يلين .

---

١ - الفاليريانا أو حشيشة النهر مادة طبية لها رائحة كريهة.

وعندما أتى صديقه بهاوونه[1] ، وجلس قبالته يطحن قطعة من الجاوى ، قال له :

«ايكى . أعرني سمعك . يلزمني دواء ، ولعلي أجد عندك ما في حاجة إليه»

وأنعم ايكى النظر في محيا مستر ماك جوان ، باحثاً عما اعتاد أن يجده فيه من آثار الشجار ، ولكنه لم يجد شيئاً . فقال له آمراً :

– «اخلع سترتك ، أظنك طعنت بين ضلوعك بسكين . لقد طالما أخبرتك أن هؤلاء الاسبانيين سيقضون عليك» .

وابتسم مستر ماك جوان ، ثم قال :

– «لا عليك منهم ، فمالي بأي منهم شأن اليوم» .

ولكنك كدت تصيب في تشخيص موضع العلة ، فهي حقيقة تحت السترة ، وبين الضلوع! أتعلم يا ايكى أننا – روزي وأنا – نعتزم الهرب والزواج الليلة ؟»

كانت سبابة ايكى اليسرى مثنية على حافة الهاون لتثبيته ، فدقها دقة عنيفة بيد الهاون ، ولكنه لم يشعر لها بألم ، وما هي إلا لحظة حتى استحالت ابتسامة المستر ماك جوان إلى نظرة تهجم وارتباك ، واستمر فيما كان يقول :

– «هذا إذا ظلت على عزمها إلى أن يحين الموعد ، فنحن منذ أسبوعين نتهيأ للفرار ، وقد تقول لي في صبح اليوم أنها ستفعل ، فإذا أقبل المساء نكصت ، وقد اتفقنا على الهرب الليلة ، وظلت روزى على رأيها يومين كاملين ، ولكن بيننا وبين الموعد خمس ساعات ، وأخشى أن تشطب اسمي في آخر لحظة قبل بدء السباق» .

قال ايكى : «ولكنك ذكرت لي أنك في حاجة إلى دواء» .

وبدا على وجه ماك جوان شيء من الحرج والضيق ، لم يألفه وجهه من قبل ، وراح يلف ورقة إعلان عن دواء ويحيط بها أصبعه دون جدوى وهو يقول :

---

١ – الهاون والهاوون ما يدق فيه الدواء.

- « إنني لن أدع هذه العقبة تقف في سبيلي ولو ضحيت بمليون من الدولارات . لقد استأجرت شقة في هارلم[1] ووضعت فيها الاقحوان على المنضدة ، وتركت قدراً تغلي على النار ، واتفقت مع قسيس أن يستعد لاستقبالنا في منزله في التاسعة والنصف . ويجب أن ينفذ ما قررناه ، وإذا لم تغير روزى رأيها من جديد فـ . . . »

وسكت مستر ماك جوان قبل أن يكمل ، وقد افترسته الشكوك

وقال ايكى معقباً :

- « ولكنني لا أرى حتى الآن موضعاً لهذا الدواء الذي تحدثت عنه ، أو موجباً لتدخلي في الموضوع »!

قال الراغب في الزواج ، منهمك في تنظيم حججه : « إن والد روزى ، ريدل العجوز لا يحبني بعض الشيء ، ومنذ أسبوع وهو يحرم على ابنته أن تخرج من بابها معي ، ولو لم يخش أن يفقد نزيلاً من نزلائه لطردني منذ زمن طويل . إني أكسب عشرين ريالاً في الأسبوع ، وروزى لن تندم أبداً على الهرب من المزبلة التي تعيش فيها مع شانك ماك جوان » .

قال ايكى : « أرجوك معذرة يا شانك ، فعلي أن أحضر دواء سيطلب مني في الحال » .

ورفع ماك جوان نظره إليه فجأة وقال : « قل لي يا ايكى ، أما عندك من دواء ما . . مسحوق ما - مثلاً ، يجعل فتاة تذوب في حبك إذا جرعتها إياه ؟ »

وزم ايكى شفته العليا إلى أنفه باحتقار العالم الممتاز ، ولكن قبل أن يجيب ، استأنف ماك جوان ما كان يقوله :

- « لقد أخبرني تيم لاسى أنه حصل ذات مرة من عطار على دواء لهذا النوع ، وأعطاه لحبيبته في كأس من الشراب ، ومنذ أول جرعة توجته على قلبها ملكا ، ونظرت إلى من سواه نظرتها إلى نكرات ، وتزوجها في أقل من أسبوعين » .

---

١ - حي من أحياء الزنوج في نيويورك.

وما كان أقوى وأشد سذاجة شانك ماك جوان ، ولو أن شخصا آخر في مكان ايكى ، أعرف منه بوزن الرجال لرأى أن هذا الهيكل الغليظ مشدود على خيوط دقاق . وككل قائد حازم مقبل على غزو أرض العدو ، أراد أن يحتاط لكل مظنة من مظان الفشل .

ومضى شانك والامل يراوده : « أحسب لو أنه أتيح لي مسحوق مثل هذا أعطيه لروزى ، عندما أراها الليلة على العشاء ، لحلت بينها وبين أن تنكث ما عاهدتني عليه ، وما أظنها في حاجة إلى ثلة من البغال لجرها إلي ، ولكن النساء أقدر على ركوب المركبات منهن على الجري في ميادين السباق ، ولو أن الدواء يعمل فيها ساعتين ليس إلا ، لبلغت منه ما أريد » .

وتساءل ايكى : « ومتى تكون هذه الحماقة التي تدعوها بالفرار ؟ »

قال مستر ماك جوان : « في التاسعة مساء ، وسيكون العشاء في السابعة . وتذهب روزى إلى غرفتها في الثامنة زاعمة أنها أصيبت بصداع ، وفي التاسعة يسمح لي العجوز بارفنزانو بدخول رحبة بيته الخلفية ، حيث توجد فجوة في سياج بيت ريدل المجاور ، وأقف تحت نافذة روز ، وأعينها على النزول من سلم الحريق . ويجب أن نبكر ما استطعنا حتى لا يفوتنا موعد القسيس . إن الأمر كما ترى يسير إذا لم تحزن روز عند اعطاء إشارة السباق . فهل تستطيع يا ايكى أن تتحفنى بشيء من هذا الدواء ؟ »

وراح ايكى شوبنستين يحك أنفه ببطء ، ثم قال :

– « شانك . ان أدوية من هذه الأنواع لا يتداولها الصيادلة إلا بمنتهى الحرص والاحتياط ، وليس من بين معارفي إلا إياك من أستطيع ائتمانه على هذا النوع من الدواء ، ومن أجلك أنت سأصنعه ، وسترى كيف يجعل روزى تنظر إليك » .

ومضى ايكى إلى ما وراء مائدة التحضير ، فسحق قرصين هشين من أقراص المورفين ، يحتوي كل منهما على ربع قمحة ، وأضاف إلى المسحوق قليلاً من سكر اللبن ليزيد من حجمه ، ولفه بعناية في ورقة

بيضاء . ولو أن شخصاً بالغاً أخذ هذا المقدار لاستغرق في نوم عميق دون خطر على حياته . وأعطى الورقة لماك جوان ، وطلب منه أن يذيبه في سائل ما إذا استطاع ، وتقبل الشكر القلبي من العاشق المغوار .

ويبدو في عمل ايكى من دهاء إذا عرفنا ما فعل في أعقاب ذلك ، فقد أرسل رسولاً إلى مستر ريدل يفشي فيه أسرار الخطة التي أعدها مستر ماك جوان للفرار مع روزى . وكان مستر ريدل رجلا بدينا ، أحمر الوجه ، ناري المزاج .

وقال لايكى :

- « إني شاكر لك ، وسأريك ما أصنع بهذا الارلندي المتسول . إن غرفتي تعلو غرفة روزى تماماً ، وسآوي إليها بعد العشاء ، ومعي بندقيتي عامرة ، وانتظر ما يكون ، وإذا دخل رحبة بيتي فسأخرجه منها في سيارة اسعاف بدلاً من أريكة زفاف » .

وأحس ايكى وهو يتخيل روزى نائمة نومها العميق الطويل تحت سنابك المورفين ، والوالد المتعطش للدم الذي أنذر في الوقت المناسب ينتظر غريمه شاكي السلاح . . أحس أن منافسه قد أشرف على الهزيمة عن يقين .

وظل طوال الليل في « مخزن عقاقير المصباح الأزرق » ساهراً ، يؤدي عمله ، وينتظر ما يتأتى له من أنباء المأساة ، ولكن انتظاره ذهب أدراج الريح .

ولم يكد زميله الذي يشرف على المخازن نهاراً يجيء في الثامنة من صباح اليوم التالي ، حتى أسرع ايكى إلى بيت مستر ريدل ليعرف ما كان . ويا لله! انه ما كاد يغادر باب المخزن حتى وجد شانك ماك جوان يقفز من سيارة عامة ويصافحه بحرارة . . بابتسامة الظافر وفرحة النشوان! » .

وقال شانك بصوت رجل يعيش في الجنة :

- « لقد انتهينا ، وقد هبطت روزى من سلم الحريق في الوقت المحدد بالثانية ، وكنا في بيت القسيس في التاسعة والنصف وربع

الدقيقة ، وهي الآن في مسكننا ، وقد طهت لي البيض هذا الصباح في قميصها الأزرق . يا الهي! كم أنا سعيد! يجب أن تزورنا يا ايكى يوما ما ، وتشاطرنا الطعام . لقد حصلت على عمل بجوار الجسر ، وهأنذا في طريقي إليه الآن » .

وتلعثم ايكى وهو يسأل : «الـ . . الـ . . المسحوق ؟ » .

قال شانك مقطبا :

– «أوه . . هذا المسحوق الذي أعطيتني اياه ، إليك ما حدث : لقد جلست على مائدة العشاء البارحة في منزل ريدل ، ونظرت إلى روزى ، وقلت لنفسي : شانك ، إذا كنت تريد أن تحصل على الفتاة فاسلك إليها الطريق المستقيم ، ولا توقع فتاة مهذبة مثلها في شباك الختل والخداع . واحتفظت باللفافة التي أعطيتنيها في جيبي ، ثم وقعت عيني على طرف ثالث كان حاضرنا ، فقلت لنفسي إنه ينقصه الحب الذي ينبغي أن يشمل صهره المنتظر ، فانتظرت حتى سنحت لي الفرصة ، ووضعت المسحوق في قهوة ريدل العجوز ، وهذا كل شيء »!

اله المال

نظر أنتونى روكوول العجوز المتقاعد ، وصاحب مصانع روكوول لصابون أريكا ، من نافذة المكتبة ، في قصره القائم بالشارع الخامس ، وتجهم ، فقد كان جاره من الجانب الأيمن : ج . فان شلايايت سافولك جونز النبيل المعروف في الأندية ، خارجاً من بيته متجهاً إلى سيارته المنتظرة ، رافعاً أنفه في حركة اشمئزاز وهو ينظر إلى الواجهة الأمامية من قصر الصابون ، وتماثيلها ذات الطراز الايطالي العتيق .

وعلق ملك الصابون السابق على هذه النظرة قائلاً : « حذار أيها الصنم العاطل! إن آلهة الفنون التسعة سيمسخونك أيها العجوز المجفف المتجمد ان لم تلزم حدك ، وسأطلي هذا البيت بالأحمر والأبيض والأزرق في الصيف التالي ، وأرى إن كان ذلك سيرفع أنفك الهولاندي إلى أعلى وأعلى! »

ثم اتجه انتونى روكوول الذي لم يعترف بالأجراس قط إلى باب مكتبته ، وصاح « مايك . .! » بنفس الصوت الذي كان يوماً ما يسقط السماء كسفا في مراعي كناس .

وقال انتونى للخادم الذي لبى نداءه :

– « قل لولدي أن يمر بي قبل أن يغادر البيت » .

وعندما حضر روكوول الشاب إلى المكتبة نحى العجوز الجريدة التي

كان يقرؤها ، ونظر إلى ولده وعلى وجهه الضخم الناعم الأحمر عبوس مشوب بالعطف ، ثم سوى شعره الأبيض بيد ، وشخشخ المفاتيح في جيبه بالأخرى ، وقال :

- « رتشارد . . كم تدفع في الصابون الذي تستعمله ؟ »

كان رتشارد قد عاد من كليته ، ولما يمض عليه أكثر من ستة أشهر ، ولم يكن قد وضع بعد في الميزان أباه هذا الممتلئ بالمفاجآت ، شأن العذراء في أول حفل تشترك فيه ، فأذهله السؤال نوعاً ما وأجاب :

- « أظنني أدفع في الدستة ستة دولارات يا أبي »

- « وملابسك . . ؟ »

- « أعتقد أنها تكلفني في العادة ستين ريالا » .

قال أنتوني في حزم : « إذن فأنت مهذب . لقد سمعت عن شبان يستهلكون صابوناً بأربعة وعشرين دولاراً ، وأكثر من مائة في الثياب . انك تستطيع أن تنفق من المال مثل ما ينفق أي واحد منهم ، ولكنك تلزم نفسك بالحزم والتوسط . . إنني أستعمل صابون اريكا المعروف ، لا عن عاطفة وحسب ، ولكن لأنه كذلك أنقى صابون صنع . . وأنت متى دفعت في القطعة الواحدة أكثر من عشرة دوانق ، فإنك لا تشتري إلا الرديء من العطور والأسماء ، ولكن مع ذلك فالخمسون دانقا التي تدفعها في القطعة تلائم شابا من جيلك ، ومركزك وظروفك . . وكما قلت لك أنت شاب مهذب . إنهم يقولون إن خلق شاب من هذا النوع يحتاج إلى ثلاثة أجيال ، وهم على ضلال ، فإن المال قادر على خلقه بسرعة الصابون في محو الاوضار ، وقد خلق منك واحدا ، وكاد يفعل معي ، لولا أني أقارب في البذاءة والفظاظة وسوء الخلق جاري العجوزين الهولنديين اللذين يؤرق لياليهما اني اشتريت بيتاً من بيتيهما . . »

وقال روكوول الصغير في شيء من الوجوم :

- « ثمة أشياء لا يمكن نيلها بالمال . . »

وصعق انتوني العجوز من ملاحظة ولده فقال :

- « لا تقل هذا . إني أراهن بكل مالي وفي كل وقت على قدرة

المال . ولقد قرأت دائرة المعارف من الألف إلى الياء ، باحثاً عن شيء لا يمكن أن تشتريه بالمال . ولما كنت أتوقع استئصال زائدتي الدودية في الأسبوع المقبل ، فإنني أراهن على المال ضد مبضع الجراح . قل لي شيئاً واحداً يعجز المال عن شرائه . . ؟ »

وأجاب رتشارد في شيء من الضيق :

– « كمثل أقول إن المال لا يستطيع أن يدخل المرء في الدوائر العليا للمجتمع . . »

وصرخ بطل أصل الشرور (المال) قائلاً :

– « أو . . هو . . ! أتظن ذلك . . ؟ أتستطيع أن تقول لي أين كانت دوائرك هذه تكون ، لو أن آستور[1] لم يجد أجرة سفره إلى أمريكا على ظهر سفينة » ؟

وتنهد ريتشارد .

فقال العجوز بأقل حدة وقد لاحظ تنهد ولده :

– « هذا الذي كنت أعنيه ، وما سألتك الحضور إلا من أجله . إن شيئاً ما يجري على غير هواك يا بني ، واني لألمحه منذ أسبوعين ، فقل لي ما هو . وأظن أني أستطيع أن أضع يدي على أحد عشر مليوناً في سواد ليلة وبياض نهار ، بخلاف الأملاك الثابتة بطبيعة الحال . فان كان كبدك ما يضنيك ، فثمت سفينة في الخليج تحت أمرك مستعدة للسفر إلى جزر الهند الغربية في الحال . . »

– « إن ظنك لم يخطئ يا أبي ، ولم تبعد عن كبد الحقيقة بكثير . . »

قال أتنوني بلهفة : « آه . . ما اسمها . . . ؟ »

وراح ريتشارد يذرع المكتبة جيئة وذهاباً ، فقد آنس من هذا الاب الفظ العجوز من الصداقة والعطف ما بعث الثقة في نفسه . .

وتساءل أنتوني العجوز :

– « لم لا تخطبها . . ؟ إنها ستدفع إليك ، فلديك المال والوجه

١ – من كبار أصحاب رؤوس الأموال وتجار الفراء في أمريكا في القرن الثامن عشر.

الحسن ، وأنت شاب مهذب ، ويداك طاهرتان ، وليس عليهما من صابون أريكا أثر ، ثم أنك متعلم تعليما عاليا ، وما أظنها تضع ذلك في الحساب » .

قال ريتشارد : « لم تتح لي فرصة لخطبتها . . »

قال أنتوني : « عليك أن تخلق الفرصة . خذها إلى نزهة في حديقة ، أو على عربة قش ، أو تمش معها من الكنيسة إلى البيت . . فرصة . . ! هه . . ! »

– « إنك قد لا تعرف الطاحونة الاجتماعية يا أبي ، إنها جزء من مجرى الماء الذي يحركها . ان كل ساعة وكل دقيقة من وقتها تخضع لنظام مقرر قبل أيام . يجب أن أنال هذه الفتاة يا أبي ، أو تصبح هذه المدينة في عيني مستنقع وحول إلى الأبد! وحتى الكتابة إليها لا قبل لي بها . . ! »

قال العجوز : « أتريد أن تقول لي أنك ، مع كل ما أملكه من مال لا تستطيع أن تحصل لنفسك على ساعة أو ساعتين من وقت فتاة . . ؟

– « لقد أهملت الأمر مدة طويلة ، وهي تزمع السفر إلى أوروبا ظهر بعد غد ، لتقيم هناك سنتين . ولن أراها لبضع دقائق في الغد ، فهي الآن عند عمتها في لارشمونت ، ولا أستطيع الذهاب إليها هناك ، ولكنهم سمحوا لي أن أنتظرها بعربة في المحطة المركزية الكبرى ، مساء غد في قطار الثامنة والنصف ، فنسير خببا في شارع برودواى إلى مسرح والاك ، حيث تكون أمها في انتظارها بردهة المسرح ، هي وجماعة يرافقونها إلى مقصورة . أفتظن انها تصغي لي إذا أعلنت لها حبي في ست دقائق أو ثمان تحت مثل هذه الظروف . . ؟ كلا . . وأية فرصة أستطيع خلقها في المسرح أو فيما بعده . . ؟ لا شيء . . كلا يا أبي ، هذه عقدة لا يستطيع حلها مالك . محال أن نشتري دقيقة واحدة من الزمن بالمال ، والا فلو أمكن ذلك لكان الأغنياء أطول الناس أعماراً . ان الأمل مقطوع في التحدث إلى مس لانترى قبل أن تبحر . . »

قال أنتوني العجوز في بشر :

« ليكن يا ولدي . . تستطيع أن تذهب الآن إلى ناديك ، وإني لسعيد انه ليس كبدك ما يضنيك ، ولكن لا تنس أن تحرق بعض أعواد من الصندل في هيكل الاله العظيم « مازوما » بين الحين والحين . انك تقول ان المال لا يشتري الزمن . وأنت لا تستطيع بالبداهة أيا كان الثمن أن تأمر تاجر الجلود أن يرسله إليك على عنوانك في علبة ، بيد أني رأيت الوقت – هذا الأب العجوز – تصاب أعقابه برضوض شنيعة وهو يمشي بين حفائر الذهب . . ! »

وفي تلك الليلة جاءت العمة ايلين ، بكل رقتها وعواطفها وتجاعيدها وتنهداتها وضيقها بما تحمل من كنوز المال ، جاءت إلى بيت أخيها أنتوني ، فوجدته يقرأ جريدته المسائية ، وبدآ يتباحثان في موضوع متاعب المحبين .

قال الأخ أنتوني وهو يتثاءب :

– « لقد قال لي كل شيء فأنبأته أن رصيدي كله تحت أمره . . ولكنه راح يحتقر المال ، وقال انه لا يغنى ، وأن قواعد المجتمع لا يمكن زحزحتها متراً بفريق مكون من عشرة من أصحاب الملايين . . »

وتنهدت العمة ايلين وهي تقول :

– « أنتوني . . ليتك تقل من هذا التفكير الشديد في المال . . إن الثروة تنعدم قيمتها عندما توضع مع الحب الأكيد في الميزان . فالحب أقوى الأقوياء . لو انه فقط بكر في مفاتحتها بالأمر ، لما استطاعت أن ترفض ولدنا ريتشارد ، ولكني أخشى الآن أن يكون الوقت قد فات ، فانه لن يجد فرصة لخطبتها ، ولن يستطيع ذهبك كله أن يجلب السعادة لولدك . . »

وفي الثامنة من مساء اليوم التالي أخذت العمة ايلين خاتماً ذهبياً قديماً غريب الشكل من كيس نخره العث ، وأعطته لريتشارد ، قائلة في توسل :

– « ألبسه الليلة يا ابن أخي ، فقد أعطتني أمك إياه ، قائلة انه

يجلب الحظ السعيد في الحب ، وسألتني أن أسلمه إليك يوم تجد الفتاة التي تصادف هواك . . »

وتناول روكوول الشاب الخاتم باحترام ، وحاول أن يلبسه في خنصره فانزلق عليه حتى المفصل الثاني ووقف ، فخلعه ووضعه في جيب صداره ، فعل الرجل الرشيد ، ثم طلب عربته بالتليفون .

وفي الثامنة والثانية والثلاثين ، استخلص مس لانترى من وسط الزحام المتدفق في المحطة وقالت له :

– « يجب ألا نترك أمي والآخرين ينتظرون »

فقال ريتشارد للسائق في اخلاص :

– « إلى مسرح والاك بأسرع ما تستطيع . . ! »

وانسابوا كالريح في الشارع الثاني والأربعين إلى برودواى ، ومنها إلى منعطف يتلألأ بالأنوار ، يفصل بين مجالي الليل الهادئ ومغاني الفجر الوضاح . .

وفي الشارع الثالث والأربعين فتح ريتشارد أكرة الباب بسرعة ، وطلب من السائق الوقوف ، وقال معتذراً وهو يقفز إلى الشارع :

– « لقد وقع مني خاتم هو خاتم أمي وأكره أن أضيعه ، ولن أعوقك أكثر من دقيقة . . فقد رأيت أين وقع . . »

وفي أقل من الدقيقة عاد إلى العربة ومعه الخاتم .

ولكن خلال هذه الدقيقة ، وقفت أمام العربة سيارة أوتوبيس ، وحاول السائق أن يمرق من يسارها ، فوجد عربة نقل كبيرة تقطع عليه الطريق ، وعالج اليمين ولكن عربة نقل أثاث لم يكن لها محل هناك ، أعادته إلى حيث كان . وحاول أن يتقهقر فلم يجد مجالا ، فألقى الأعنة بين يديه ، وأدى من اللعنات ما يمليه عليه الواجب ، عندما وجد نفسه محاصراً بعدد لا أول له ولا آخر من العربات والخيول .

إن انسداد الطريق على هذه الوتيرة يحدث أحياناً في المدينة الكبيرة فيشل الحركة والتجارة .

وقالت مس لانترى بصبر نافد :

- «لماذا لا تسير . . ؟ إننا سنتأخر . .»

ووقف ريتشارد في العربة ، وأدار عينيه فوجد سيلا هائلا من العربات وعربات النقل وسيارات الاوتوبيس تملأ الفضاء الشاسع الذي يلتقي فيه الافينو السادس ببرودواى والشارع الثالث والأربعون ، وتزحمه بنفس الطريقة التي تزحم بها فتاة قطرها خمسة وستون سنتيمترا مشدا لا يزيد على خمسين . ومن كل الشوارع الجانبية كانت العربات ماضية بأقصى سرعتها وجعجعة عجلاتها ، لتلقي بنفسها في هذا البحر المتلاطم من العجل المشلول . . وتضاعف الضجيج بلعنات السائقين . وبدا أن حركة المرور في مانهاتان قد وقفت تماماً من هول الزحام ، ولاحظ أكبر معمر من سكان نيويورك ، الذين شهدوا الانسداد من منعطفات الطرق ، انه لم ير مثيلا له من قبل .

وقال ريتشارد وهو يعود إلى الجلوس :

- «إني آسف أشد الأسف ، ويبدو لي أننا انزرعنا هنا ، فلن ينفض هذا الزحام قبل ساعة ، إنها غلطتي ، فلو لم يقع مني الخاتم لـ . . . »

قالت مس لانترى : «دعني أرَ هذا الخاتم ما دام لا حيلة لنا فيما كان ، وما يهمني الأمر ، فاني أظن المسارح سخيفة على أي حال . .»

وفي الساعة الحادية عشرة من هذا المساء قرع شخص ما باب انتونى روكوول قرعاً خفيفا . . .

وكان أنتونى يرتدي قباء أحمر ويقرأ كتاباً عن مغامرات القرصان ، فصاح : «أدخل»

وكان الشخص هو العمة ايلين ، وقد بدت كملاك أشيب ، تخلف خطأ على وجه الأرض ، وقالت في حنان :

- «لقد انتهى الأمر يا أنتونى وأصبحا خطيبين ، وقد وعدت أن تتزوج من ولدنا ريتشارد . وقد حدث وهما ذاهبان إلى المسرح أن انسد الطريق ، فلم يخرجا منه إلا بعد ساعتين . . فلا تعد إلى الزهو بقوة المال مرة أخرى يا أخي . .! ان تميمة صغيرة من تمائم الحب الأكيد

- خاتماً صغيراً يرمز إلى المحبة القدسية الخالدة - كان مفتاح السعادة لولدنا ريتشارد . . فقد وقع منه في الطريق ، وخرج يلتمسه ، وقبل أن يستأنفا المسير حدث الانسداد ، وكلم حبيبته ، وظفر بها في الوقت الذي انسد فيه الطريق . ان المال يا انتونى إذا قورن بالحب أصبح هباء »!!

وقال أنتونى العجوز :

- « حسنا . . اني سعيد بحصول الولد على ما أراد . . ولقد قلت له أني لن أبخل بالمال مهما بلغ في سبيل . . . »

- « ولكن أي خير يا أخي كان يرتجى من مالك . . ؟ »

قال أنتونى روكوول :

- « اسمعي يا أختي . . اني تركت القرصان في ورطة شنيعة ، فقد تخرقت سفينته ، وهو في قوة ادراكه لقيمة المال لا يريد أن يدعها تغرق ، فأرجوك أن تتركيني أكمل قراءة هذا الفصل »!

***

ولقد كان ينبغي أن تنتهي القصة عند هذا الحد ، وان شوقي إلى انهائها هنا يعادل شوقكم أيها القراء ، ولكن يجب قبل ذلك أن نغوص إلى قرار البئر بحثا عن الحقيقة .

ففي اليوم التالي جاء شخص أحمر اليدين ، بربطة عنق زرقاء ذات نقط بيضاء ، يسمي نفسه كيلى يطلب مقابلة أنتونى روكوول ، فقابله في المكتبة في الحال . .

وقال أنتونى ويده تمتد إلى دفتر الشيكات :

- « حسنا . . لقد كانت معجنة صابون أصيلة ، فدعنا نتحاسب ، لقد وصلك خمسة آلاف ريال . . ؟ »

قال كيلى :

- « وقد دفعت ثلثمائة فوقها من مالي الخالص ، وقد اضطررت اضطرارا إلى مجاوزة الاعتماد . . وقد استأجرت معظم عربات النقل وعربات الركوب بخمسة ريالات للواحدة ، ولكن العربات الكبرى

أخذت كل منها عشرة ريالات . وقد أصرت السيارات على عشرة والعربات ذوات الزوجين من الخيول على عشرين أو خمسة وعشرين . وقد ابتهجت لأن وليم برادى لم يشهد هذا الزحام ، وإلا لتمزق قلبه حسدا وكمدا ، وتصور أن هذا كله يحدث دون «بروفات» وان كل سائق يلتزم موعده إلى كسر الثانية . . ولو أن ثعبانا شاء أن يزحف إلى قاعدة التمثال القائم في الميدان لاقتضاه ذلك ساعتين» . .

قال أنتوني وهو يفصل الشيك :

– «إليك ألفا وثلثمائة دولار يا كيلى ، الألف الذي لك ، والثلثمائة التي دفعتها . . انك لا تحتقر المال يا كيلى . . أليس كذلك . . ؟»

قال كيلى : «أنا . . ؟ اني لو رأيت الرجل الذي اخترع الفقر لعلوته بالسوط» .

وعندما وصل كيلى إلى الباب ناداه أنتونى قائلاً :

– «هل رأيت خلال الزحام ، في أي مكان منه غلاما بدينا ، لا يرتدي ثيابا ما ، في يده قوس يريش منه السهام . . ؟»

قال كيلى في حيرة :

– «كلا لم أر أحدا على هذه الصورة ، ولئن كان كما تصف ، فلعل شرطيا قبض عليه قبل وصولي» . .

وقهقه أنتونى وهو يقول :

– «كنت واثقا أن الوغد الصغير لن يكون هناك ، وداعا يا كيلى . .!»

ربيع تحت الطلب

كان هذا في يوم من أيام مارس .

ولم توجد قط بداية لقصة أسوأ من هذه البداية ، فاياك اياك أن تبدأ قصة تكتبها بمثل هذا الاستهلال ، فانه استهلال مائع ، جاف ، مجرد من سبحات الخيال ، خليق ألا ينطوى على أكثر من الهواء . غير أنه في قصتنا هذه مسموح به ، فان الفقرة التالية التي كان يجب أن تكون فاتحة القصة ، من الاغراق في الغرابة ، واستحالة التصور ، بحيث لا يليق أن يواجه بها القارئ دون تمهيد!!

***

كانت سارة تبكي فوق البطاقة التي تعطيها الحق في الحصول على القوت! وتصور فتاة نيويوركية تسكب دموعها على قائمة طعام .

ولتعليل ذلك سيباح لك أن تفترض أن الجنبري نفد كله ، فبكت عليه ، أو أنها كانت نذرت الصوم عن المثلجات في الصيام الأكبر ، أو أنها طلبت بصلا فآذاها ، أو أنها قادمة من فورها من الحفلة النهارية في مسرح هاكيت . فأما وهذه الفروض كلها ضلال في ضلال ، فتفضل ودع القصة تجري في مجراها!

***

إن السيد الذي زعم الدنيا صدفة وأنه سيشقها بسيفه ، نال من

الشهرة ما لم يستحق ، فان شق الصدفة بسيف أمر يسير . ولكن أعرفت يوما ما أحد افلق محارة المعمورة بآلة كاتبة ؟

لقد استطاعت سارة أن تفتح شقي المحارة بسلاحها هذا الكليل ، إلى الحد الذي أتاح لها أن تقضم من لحم الحياة الطيب الشاوي بداخلها قضمة . انها ما كانت تعرف عن الاختزال ، أكثر مما يعرف عنه خريج مدرسة تجارة متوسطة أطلق على العالم لتوه ، ولعجزها هذا استحال عليها أن تقتحم ذلك الفلك الوضاء للكتاب الموهوبين ، وبقيت كاتبة غشيمة على الآلة الكاتبة ، تتصيد عملا من أعمال النسخ من هنا وعملا من هناك .

وكان الانتصار الأكبر الذي توج كل انتصارات سارا في نضالها مع الحياة هو الاتفاق الذي عقدته مع مطعم شولنبرج الصغير ، وكان هذا المطعم مجاوراً لبناء الآجر الاحمر الذي كانت غرفتها فيه . وقد حدث ذات ليلة بعد أن انتهت سارا من عشائها الرخيص بالمطعم أن حملت معها قائمة الطعام ، وكانت مكتوبة بخط يد لا يقرأ ولا يعرف منه ان كان مكتوبا بالانجليزية أو الألمانية ، ومن الفوضى في ترتيب ألوان الطعام بحيث إذا لم تكن حريصا فقد تبدأ من حيث لا تشعر بأعواد تسليك الأسنان ثم بالحلوى ثم تختم بالحساء وتاريخ اليوم الذي تأكل فيه من الأسبوع!!

وأخذ شولنبرج بجمال القائمة ، وقبل أن تبارح سارا المطعم تعاقد معها طائعاً مختاراً على أن تكتب له إحدى وعشرين قائمة عشاء ، بعدد موائد المطعم كل يوم ، ثم إحدى وعشرين قائمة فطور وغداء ، تتجدد كلما تغيرت ألوان الطعام ، أو استدعى تغييرها طول الاستعمال!

وفي مقابل ذلك كان على شولنبرج أن يرسل كل يوم ثلاث أكلات إلى حجرة سارا ، على يد خادم - يشترط أن يكون مهذبا ما أمكن - وأن يمدها كل أصيل بمسودة مكتوبة بالقلم الرصاص ، يبين عليها ما تختزنه المقادير لعملاء شولنبرج في اليوم التالي .

وقوبل الاتفاق بالرضى المشترك من الطرفين ، وكان من نتائجه أن

قصاد شولنبرج أصبحوا يدركون اسم الطعام الذي يزدردونه حتى ولو غمض عليهم كنهه في بعض الأحيان ، وان سارا ضمنت قوتها خلال شتاء كئيب مرير ، وكان هذا أهم ما تصبو إليه .

ثم كذب التقويم ، وأعلن عن مقدم الربيع الذي لا يأتي إلا عندما يريد . لقد كانت ثلوج الشتاء ما فتئت تجلل مسالك المدينة بطبقة من الجليد في صلابة الحجر ، وكانت الموسيقى اليدوية الجوالة ما زالت تعزف أنشودة « في الصيف الحلو الذي ولى » بنفس بهجتها وطلاوتها في قلب الشتاء . وراح الرجال يوصون على ثياب عيد الفصح بمهلة أيام ثلاثين ، وبدأ القوامون على المنازل يوقفون البخار في المدافىء . وعندما تحدث هذه الأشياء ، فقد يدرك المرء أن المدينة مازالت تئن تحت سنابك الشتاء!

وحدث ذات أصيل أن أحست سارا قشعريرة البرد في حجرتها ذات التدفئة المحلية ، والنظافة المثلى ، والمرافق الكاملة . . وما راء كمن سمع! وما كان لديها عمل تعمله خلا بطاقات شولنبرج ، فجلست في كرسيها الهزاز الصارخ ، وراحت تنظر من النافذة ، والتقويم المعلق على الحائط يهتف بها دائبا : « الربيع هنا يا سارا ، أؤكد لك أن الربيع على الأبواب . أنظري إلي ترى صوري قد اصطبغت بألوان الربيع ، وأن لك أنت صورة حلوة يا سارا ، صورة خلابة كأطياف الربيع ، فلماذا تنظرين إلى النافذة بهذا الوجه الحزين ؟ »

كانت غرفة سارا في مؤخرة البيت ، وكانت نظرتها من النافذة تقع على الجدار الأصم الذي يكون ظهر مصنع الصناديق الواقع على الشارع المتاخم ، ولكن الجدار كان مصنوعاً من البلور الصافي ، ووقعت عينها على ممشى مغطى بالحشائش ، ومظلل بأشجار الكريز والتوت والورود .

إن بشائر الربيع الحقيقية شديدة الختل للعيون والآذان ، فمن الناس من لا يفتح أحضانه ليعانق الربيع المقبل إلا إذا رأى أزهارا بعينها تتفتح ، أو أشجارا بذاتها تورق ، أو طيورا خاصة تغرد ، أو ألوانا معينة من الطعام تنسحب مودعة من الوجود – ويا له من نذير – فإن الأرض

التي تعرس للربيع كل عام تتلقى من الزوج المنتظر رسالة رقيقة ، يعلن فيها أن بنى العلات[1] لا مكان لهم في البيت الجديد ، إلا أن يختاروا هم أنفسهم البقاء فيه!

وكانت سارا في الصيف الماضي قد ذهبت إلى الريف وأحبت فلاحا هناك .

(وإياك وأنت تكتب قصتك أن تنكص هكذا على عقبيك ، فإن في ذلك مساءة للفن ومضيعة للتشويق ، ولكن دع القصة تسير في انسجام ، إلى الأمام!)

ومكثت سارا أسبوعين في مزرعة سنى بروك ، تعلمت خلالهما كيف تغرم بوولتر ابن فرانكلين الفلاح العجوز . ولقد عرف عن الفلاح من قديم أنه يحب ويتزوج ويستحيل إلى مداس في وقت أقصر ، ولكن وولتر فرانكلين الشاب كان زراعياً حديثا ، له في حظيرة بقره تليفون ، ويستطيع أن يتكهن بغاية الدقة عن مدى تأثير محصول القمح القادم بكندا في محصوله هو من البطاطس المزروعة والقمر في المحاق .

ولقد غازلها وولتر وسبى فؤادها في ذلك الممشى المظلل بأشجار الكريز ، حيث جلسا معا يضفران لشعرها اكليلا من الهندباء ، وهو يتغزل بسخاء في موقع زهره الاصفر من جدائلها العسلية ، وقد تركت الاكليل هناك وعادت إلى البيت ترقص دميتها على يديها!

وكانا على أن يتزوجا في الربيع ، عند أول باكورة من بواكيره كما قال وولتر ، وعادت سارا من المزرعة لتطقطق على آلتها الكاتبة!

وسمعت نقرة على الباب بعثرت في خيال سارا أحلام ذلك اليوم السعيد ، فقد جاء خادم من خدم المطعم بمسودة قائمة اليوم التالي في مطعم شولنبرج . . .

وجلست سارا إلى العمل ، ووضعت ورقة بين شقي الجهاز ، وكانت خفيفة الحركة في عملها ، تنتهي عادة من كتابة القوائم الاحدى والعشرين في ساعة ونصف!

---

١ - العلة الضرة، وبنو العلات بنو أمهات شتى من رجل واحد.

ولكنها اليوم وجدت تحويراً في قوائم الطعام أكثر من المعتاد ، فقد كانت أنواع الحساء أقل ، وحذف لحم الخنزير ، واستعيض عنه باللفت على الطريقة الروسية وبدا أن روح الربيع الحلوة تدب على أعطاف القائمة ، فاختلط لحم الضأن[1] الذي كان يطفر منذ قليل على المروج الخضراء ، بالصلصة التي أحيت ذكرى طفراته هناك ، وعلى أن الجنبري لم يخرس ، فإن صوته خفت ، وتخلفت المقلاة في كسل وراء الأسياخ الطيبة للمشواة[2] ، وتضخم نصيب الفطائر واختفت الحلواء ، واختال المبار في الأطباق .

وتراقصت أصابع سارا على الأحرف ، تراقص الطير على صفحة غدير ، وما زالت تنتقل من لون إلى لون من أصناف الطعام ، واضعة كلا منها بدقة في موضعه الصحيح من حيث الطول والقصر .

وقبل أن تصل إلى الحلوى أتت على الخضر من الجزر والبازلاء إلى الاسباراجاس بالخبز القديد ، إلى الطماطم في غير الأوان ، والفريك ، والفوك ، والكرنب ثم . . .

إن سارا كانت تبكي الآن على قائمة الطعام ، فقد انبثقت من أعماق قلبها اليائس عبرات تجمعت في عينيها ، وتهاوى رأسها على قائم الآلة الكاتبة ، واستجابت الأحرف بطقطقتها الجافة لتنهداتها الرطاب .

فهي منذ أسبوعين لم تتلق من وولتر رسائل ، وكانت الهندباء بالبيض هي الصنف التالي من أصناف الطعام ، ولا عليك من البيض الآن ، فإن الهندباء هي التي ضفر وولتر من زهورها الذهبية الاكليل الذي جعلها به ملكة فؤاده ، وعروسه المستقبلة ، وهي بشائر الربيع التي أصبحت تاج أحزانها وتذكار أسعد أيامها الخوالي .

***

أيتها السيدة القارئة : اضحكي ما شئت إلى أن تكابدي هذا الامتحان! دعي الورد الذي أهداه إليك خطيبك يوم وهب لك حبه ، يقدم

---

١ - يعتبر لحم الضأن في أمريكا من أرخص وأردأ أنواع اللحوم.

٢ - عندما يدفأ الجو نوعاً لا تكون الحاجة إلى قلي اللحوم في الدهن شديدة كما كانت في الشتاء.

إليك « سلطة » تحت سمعك وبصرك في مطعم كمطعم شولنبرج الوضيع . إن جولييت لو رأت شارات حبها تبتذل على هذه الصورة لاستعجلت الحصول على السم من تاجر عقاقيرها الطيب .

ولكن يا له من ساحر ذلك الربيع . .!

إن رسالة ما يجب أن ترسل إلى قلب المدينة المدرع بالحجر والحديد ، ولكن ما من رسول يحملها سوى هذا الرسول الباسل الصغير النابت في الحقول ، بمعطفه الأخضر وأريجه الهادئ . إنه جندي من جنود الأقدار ذلك الزهر المسمى بأسنان الأسد (الهندباء) ، فهو عندما يزهر يصبح على رؤوس العذارى دلال غرام ، وهو قبل أن يزهر يمكن أن يصبح في طبق الطعام سفيرا للهوى بين المحبين .

***

وما هو إلا قليل حتى كفكفت سارا دموعها قسرا ، فان البطاقات يجب أن تكتب على أي حال ، بيد أن خيالها كان لا يزال سابحا في أحلام الهندباء ، وهي تدق على الأحرف بلا وعي لحظة من الزمان ، تاركة قلبها وعقلها يتجولان في المروج مع حبيبها الفلاح . ولكن سرعان ما جرفها الواقع على عجل إلى صخور مانهاتان ، وراحت أحرف الآلة تطقطق وتتواثب كسيارة قديمة!

وأتى لها الخادم بعشائها في السادسة ، وأخذ منها قوائم الطعام . وبعد أن أكلت سارا تنهدت وهي تنحى جانبا طبق الهندباء بما فيه . وكما استحالت هذه الكتلة السوداء من الزهور اليانعة الممهورة بالحب إلى طبق مشين من الخضر المأكولة ، ذوت كذلك آمال الصيف في قلبها ، وذهبت هباء ، وعلى أن الهوى كما يقول شكسبير قد يأكل بعضه بعضا ، فإن سارا لم يطاوعها قلبها على أن تأكل الهندباء التي وشت يوما ما أول وليمة غرام حقيقية دعى إليها قلبها الكسير!

وفي الساعة السابعة والنصف بدأ جاراها الزوجان يتعاركان ، وأخذ الساكن الذي فوقها يعزف أعلى صوت على الناي ، وخبت بعض الشيء قوة النور ، وراحت ثلاث عربات من عربات الفحم تلقى شحنتها على

الباب بصوت هو الصوت الوحيد الذي يغار منه الحاكي ، وارتفع مواء القطط على الأسوار الخلفية للبناء ، وأدركت سارا من كل هذه الآيات أن وقت القراءة قد أزف ، فانتقت كتابا كان أقل كتب الشهر انتشارا ، وأسندت قدميها إلى حقيبتها ، وراحت تسرح مع المؤلف .

ودق جرس الباب الخارجي ، وفتحته قيمة البيت ، وتركت سارا الكتاب وأنصتت ، وكذلك كنت تفعل لو كنت في مكانها .

وسمع من الردهة السفلى صوت قوى ، فقفزت سارا إلى الباب تاركة كتابها على الأرض .

ولعلك تكهنت بما حدث ، فقد وصلت إلى بسطة السلم العليا في نفس اللحظة التي وصلها فيها فلاحها الحبيب صاعدا السلم ثلاثا ثلاثا ، وألفت نفسها بين أحضانه .

وصاحت سارا :

– لماذا لم تكتب ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

قال وولتر :

– إن نيويورك مدينة ضخمة ، وقد أتيت إليك في عنوانك القديم منذ أسبوع ، فوجدتك قد انتقلت منه في يوم الخميس . وعزاني هذا بعض الشيء ، فقد وقاني من الشك المحتمل في نحس أيام الجمع ، وان كان لم يمنعني من البحث عنك بكل الوسائل الممكنة منذ ذلك اليوم ، حتى بوساطة الشرطة .

قالت سارا بحدة :

– لقد كتبت لك . .

– لم يصلني شيء قط . .

– فكيف وجدتني إذن ؟

وتبسم الفلاح الشاب ابتسامة مصطبغة بألوان الربيع ، ثم قال :

– لقد وقعت الليلة عفوا على المطعم الصغير المجاور ، وما يهمني أن يعرف ذلك عني أحد ، فاني أحب نوعا معينا من الخضر في هذا الموسم من العام ، فأجريت عيني على قائمة الطعام الجميلة باحثا عنه ، فلم أكد

أنتقل من الكرنب حتى قلبت مقعدي وأنا أنادي على صاحب المطعم ، وقد أخبرني أين تسكنين .

قالت سارا في بشر :

– أجل . أتذكر أن الكرنب أعقبته الهندباء ؟

قال وولتر :

– إن الواو التي يكتبها جهازك مرتفعة على السطر تدلني عليك أينما كنت من أقطار العالم ؟

فقالت سارا مندهشة :

– ولكن أين الواو في كلمة الهندباء ؟

فأخرج الشاب القائمة من جيبه ، وأشار إلى سطر فيها . . .

وعرفت سارا في البطاقة أول قائمة كتبتها في ذلك الأصيل . . فقد كان أثر العبرة التي سالت على ركنها الأيمن ما زال ظاهراً هناك . ولكن حيث كان ينبغي أن يظهر اسم الهندباء ، فان الذكرى المراودة لزهورها الذهبية جعلت أناملها تقع من اللوحة على أحرف غريبة في مجموعها على قائمة الطعام .

فبين الكرنب ، ومحشى الفلفل الأخضر ، ظهرت في القائمة هذه الكلمات : « حبيبي وولتر بالبيض المسلوق! »

إضاعة الأناقة

كان مستر تاورز تشاندلر يكوي بدلة سهرته في غرفته المتواضعة ، واضعاً مكواة تسخن على نار الموقد الغازي ، ومتكئاً على الأخرى بقوة وهي تروح وتجيء على البنطلون ، لتحدث فيه الثنية التي سنراها فيما بعد بين حذائه وصداره كالخط المستقيم . . ولن نخوض أكثر من ذلك في زينة المستر تشاندلر ، ولن نراه بعد ذلك إلا وهو يهبط درج السلم في البيت الذي يسكنه ، هادئاً ، أنيقاً ، واثقاً بنفسه ، منسجم الهندام ، يوحي مظهره بأنه شاب نيويوركي من رواد الأندية ، يبدأ مباهجه الليلية في قليل من الضجر .

كان مرتب تشاندلر في الأسبوع ثمانية عشر ريالا ، وكان يعمل في مكتب مهندس معماري ، وكان في الثانية والعشرين من العمر ، وله رأي في المعمار أنه فن خالص ، وأن هندسة الكاتدرائية الكبرى في ميلان أسمى وأروع من هندسة ناطحات السحاب في نيويورك ، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يجاهر بذلك .

وكان تشاندلر يدخر من دخله ريالا كل أسبوع ، فيتجمع لديه كل عشرة أسابيع رصيد ، يشتري به ليلة ممتعة من تاجر الزمن الشحيح ، فيرتدي من الحل ما يرتديه النبلاء وأصحاب الملايين ، ويرتاد من الاحياء ما تتبرج فيه الحياة وتتألق ، حيث يتعشى كما يتعشى

المترفون ، وأن المرء ليستطيع بعشرة ريالات أن يمثل دور العاطل الثري ولو لبضع ساعات ، فإن المبلغ يتسع لاكلة شهية ، ولزجاجة شراب طيب ، ولمنحة الندل ، وللسيجار ، والعربة ، وما يتبع ذلك من الملحقات .

وكان هذا المساء البهيج المقتطف من شقاء سبعين ليلة ، مصدر سعادة تتجدد لتشاندلر على الدوام . إن كل زهرة من زهور المجتمع تتفتح مرة واحدة ، وهذا الازدهار الواحد تظل ذكراه الحلوة ناضرة في خيالها حتى يدركها المشيب ، ولكن تشاندلر كانت له كل عشرة أسابيع فرحة ، لها جدة الفرحة الأولى ونشوتها ، وأي شيء أبهج في الحياة من أن تجلس بين السعداء ، تحت النخيل ، مغرقاً في دوامة من الموسيقى الشجية ، يتطلع إليك نزلاء هذا الفردوس كما كنت تتطلع إليهم ؟ إن سعادة الفتاة بقبلتها الأولى ، وبثوب زفافها الناصع ، هيهات أن تضارع هذه السعادة .

وتلجه تشاندلر صوب برودواى في هذه المظاهرة من الأناقة وجمال الهندام ، فالليلة ليلته في نظر الناس إليه كما كان ينظر إليهم ، وستعقبها تسع وستون ليلة ، يرتدي فيها الثوب الرخيص ، ويتعشى حيثما اتفق ، ويقف في غمرة الزحام ليحصل على غداء ، ويقتات في بيته المتواضع على الجعة والشطائر . وما كان يكره ذلك ، فقد كان ابنا مخلصاً لفوضى المدينة الكبرى ، وكانت الليلة التي يقضيها في الضوء تغنيه عن لياليه الطويلة في الظلام .

واتأد تشاندلر في مشيته حتى أتى الاحياء الساطعة في المدينة ، لأن الليل كان في بدايته ، ولأن المرء إذا كانت لا تتاح له السعادة إلا ليلة كل سبعين ليلة ، كان حريا أن يؤجل متعته ما استطاع . وراحت الأعين تنتاشه ما بين براقة ، وشريرة ، ومستطلعة ، ومعجبة ، ومغرية ، وفاتنة ، لأن ثيابه وهندامه نما عليه كمستسلم لنوازع المتعة والسرور .

وأتى ناصية من نواصي الطريق وقف عندها بغتة ، يفكر في أن يعود القهقرى إلى مطعم أنيق فخم سبق له أن تعشى فيه في بعض أعياده

الماضية ، وحدث في نفس اللحظة ، أن ظهرت فتاة من ركن الطريق ، فزلت قدمها على قطعة من الجليد ، فخرت هاوية على الطوار .

ونفر تشاندلر لنجدتها في جزع واحترام حتى أعانها على الوقوف ، ومشت الفتاة تظلع حتى أتت الجدار فاستندت إليه ، وشكرته في احتشام ، ثم قالت :

- « أظن كعبي قد حدث به رض ، فقد التوى وأنا أقع » .

وتساءل تشاندلر :

- « هل يوجعك كثيرا ؟ »

فقالت :

« كلا إلا إذا ركزت ثقلي عليه ، وأحسبني قادرة على استئناف المشي في دقيقة أو دقيقتين »

وقال الشاب :

« هل من خدمة أستطيع أن أؤديها ؟ هل أنادي عربة أو . . . »

قالت الفتاة في لطف وحرارة :

« شكراً ، ولا داعي لهذا التعب ، لقد كان ما كان سخفاً مني ، فإن أعقاب حذائي أوطأ ما تكون ، ولا أستطيع لومها على ما كان »

ونظر تشاندلر إلى الفتاة ، فارتد إليه البصر وهو مشوق ، فقد كانت على جمال مهذب ، وكانت عينها تشع بالرفق والحبور ، وكانت ترتدي ثوباً بسيطاً أسود ، من النوع الذي ترتديه العاملات ، وقبعة رخيصة من القش الأسود ، ليس عليها من أثر الزينة إلا شريط معقود من المخمل ، تبدو من تحتها غدائر شعرها العسلي اللماع . وكأنها مثل طيب لعاملة تحترم نفسها بوجه عام .

ونبتت فكرة مفاجئة في خاطر المعماري الشاب . ماذا لو سأل هذه الفتاة أن تشاطره العشاء ؟ إنها عنصر كان ينقص أعياده الدورية الفخمة . وما من شك أن صحبة سيدة ، ستضاعف متعته ببهجة هذه الأعياد القصار . وهذه الفتاة سيدة ولا ريب ، ينم على جوهرها سلوكها وأسلوبها في الحديث . وقد أيقن أنه على الرغم من بساطة ثيابها سيستمتع بمشاطرتها اياه العشاء .

مرت هذه الخواطر بفكره في لمحة ، فقرر أن يدعوها ، وكان ذلك بالبداهة خرقا للتقاليد ، ولكن العاملة التي تحصل على قوتها من عرق الجبين خليقة أن تتغاضى أحياناً عن صوت التقاليد في مثل هذه الأمور . إنهن في العادة ذكيات في حكمهن على الرجال ، وقد نلن بحكومتهن هذه من الخير ما لم ينلن بالتقاليد العقيمة . والعشرة الدولارات التي معه إذا أنفقها بحكمة يمكن أن تكفل عشاء طيباً لاثنين . وسيكون هذا العشاء لا محالة تجربة جديدة باهرة للفتاة في حياتها الخاملة ، وسيضاعف من ظفره ومتعته ، تقديرها العظيم لما أسبغ عليها من آلاء .

وقال لها في وقار :

– « أظن قدمك ستحتاج إلى راحة أطول مما تقدرين . وهأنذا أعرض عليك حلاً يكفل لها ذلك ، ويوليني منك فضلاً في نفس الوقت . لقد كنت في طريقي إلى العشاء وحيداً ، عندما عثرت قدمك على ركن الطريق ، فتعالي معي نتعش سوياً ، عشاء شهياً ، ونتجاذب أطراف الحديث حتى يزول عن كعبك ما يضنيه » .

ونظرت الفتاة نظرة خاطفة إلى وجه تشاندلر السمح اللطيف ، فبرقت في عينها بارقة ، وشاعت في ثغرها ابتسامة صريحة ، ثم قالت مستريبة :

– « ولكننا لم نكد نتعارف ، وما أظن ذلك من الحكمة ، أترى أنت غير ذلك ؟ »

قال الشاب في حماسة :

– « لا حرج البتة ، ودعيني أقدم لك نفسي : مستر تاورز تشاندلر . وإذا فرغنا من عشائنا الذي سأحاول جهدي أن أجعله ممتعاً ، سأتمنى لك ليلة سعيدة ، أو أصحبك إلى بابك ، أيهما تختارين ؟ »

وقالت الفتاة وهي تلقي نظرة على ثياب تشاندلر المبرأة من العيب :

– « ولكن ماذا أصنع بهذه القبعة والثوب القديم ؟ »

قال تشاندلر في ابتهاج :

– «لا عليك من ذلك ، واني لأجزم أنك فيهما أفتن من أي امرأة نلقاها من أبهى ما أعدت لسهرتها من زينة»

وقالت الفتاة وهي تتعارج :

– «إن كعبي مازال يؤلمني ، وسأقبل دعوتك ، وتستطيع أن تناديني : مس ماريان» .

وقال المعماري الشاب في فرح وقور :

«إذن فهيا بنا يا مس ماريان ، ولن تمشي طويلاً ، ففي المبنى التالي مطعم فاخر محترم ، واعتمدي على ذراعي ، أجل هكذا ، واتئدى في خطاك . إن عشاء المرء وهو وحيد مدعاة للضجر ، واني لسعيد نوعاً ما – بتعثرك في قطعة الجليد» .

وعندما استقر الاثنان على مائدة مختارة ، تحوم عليها نادلة واعدة ، بدأ تشانزلر يحس نشوة الفرح الأصيل ، الذي تمده به أعياده المنتظمة على الدوام .

ولم يكن المطعم في أناقة أو فخامة ذلك المطعم الذي كان يختاره لأعياده في برودواى ، ولكنه مع ذلك لم يكن أدنى منه كثيراً ، فقد كانت الموائد عامرة بآكلين يرفلون في ثياب العز ، والموسيقى شجية لا تعكر بهدوئها متعة الحديث ، والطهي والخدمة فوق النقد والتشبيهات . وصاحبته – حتى في ثوبها وقبعتها الرخيصين – تبدو في مظهر ممتاز ، يضاعف ما تسم به وجهها وسمتها من جمال أصيل . ومن المؤكد أنها كانت تنظر إلى تشاندلر ، في مرحه المشرب بضبط النفس ، وفي عيونه الصريحة ، الزرقاء ، نظرة تداني نظرة الاعجاب ، تشيع في وجهها الفاتن الخلاب .

وسيطرت نشوة الغرور والفرح على فؤاد تشاندلر ، في هذا الجو المغرق في الفخامة والانس ، وتطلع الاعين الجميلة إليه ، فراودته نفسه أن يمثل على مسرح هذه المهزلة – ولو لليلة واحدة – دور الثري العاطل المفتون ، وأعانته ثيابه على تمثيله ، وعجز كل حراسه من الملائكة الأبرار أن يثنوه عن تمثيل هذا الدور .

وراح يثرثر لمس ماريان عن الأندية ، وحفلات الشاي ، وملاعب الجولف ، وحلبات السباق ، وحظائر الكلاب ، وبهجة المراقص ، ومغاني السياحة في العالم ، ويشير من طرف خفي ، إلى وجود يخت ينتظره في الميناء . ورآها تستغرق في الانصات لحديثه الغامض ، فألح في تزييف الأكاذيب عن ثروته ، وراح يذكر بلا كلفة أسماء بعض أصحاب رؤوس الأموال المعروفين بين سواد العمال . لقد كان اليوم لتشاندلر يوم عيد ، وقد صمم على أن يعتصر منه كل قطرة من الرحيق . ومع ذلك فقد لمح مرة أو مرتين بريق تبر الذهب الحر في وجه هذه الفتاة ، يتألق خلال الضباب الذي حجبت به أنانيته وغروره عن نظره كل شيء .

– « ألا ترى أن هذه الحياة التي تتحدث عنها لا نفع فيها ، ولا ترجى من ورائها غاية ؟ أما لك من عمل تؤديه في الحياة يمنحك سرورا أكبر ؟ »

فصاح متعجبا :

– « عمل ؟ يا عزيزتي مس ماريان ، أي عمل أشق من ارتداء ملابس السهرة كل مساء ، والقيام بست زيارات كل أصيل ، ووقوع شرطي المرور على سيارتك في كل مفرق طريق ، ليأخذك إلى المحكمة ، إذا أنت تجاوزت سرعة حمار يجر عربة!! اننا نحن العاطلين ، نقوم بأشق عمل في هذا البلد » .

وانتهى العشاء ، وأعطيت النادلة منحة كريمة ، وعاد الاثنان إلى حيث التقيا في ناصية الطريق ، وكانت مس ماريان تجيد مشيتها الآن ، لا يكاد عرجها يبين ، وقالت مخلصة :

– « أشكرك على ما أتحت لي من ساعات لطيفة ، فعلي أن أعود إلى بيتي الآن ، ولقد سعدت كثيراً بهذا العشاء يا مستر تشاندلر »

وصافحها وعلى فمه ابتسامة وقور ، وأشار إلى أنه ذاهب إلى مباراة بريدج في ناديه ، وراح يرقبها لحظة وهي منصرفة عنه في خطو سريع ، ثم ركب عربة تعود به إلى البيت .

وفي غرفته الباردة خلع تشاندلر ملابس السهرة ، ومنحها إجازة

التسعة والستين يوماً المعتادة ، وراح يفكر في ليلته ويحدث نفسه فيقول :

- « يا لها من فتاة مدهشة ، وانها لمهذبة كذلك ، ويحزنني أن أراها تعمل لتعيش ، ولعلني لو قلت لها الحق عن نفسي بدلاً من هذه الأكاذيب لكنا . . ولكن سحقاً لذلك ، لقد كان علي أن أمثل الدور الذي يتطلبه ما أرتدي من الثياب » .

وكذلك حدث نفسه ذلك الرجل الشجاع ، الذي ولد وترعرع في أحضان مانهاتان .

أما الفتاة فانها لم تكد تغادر صاحبها حتى سارت مسرعة إلى قصر هادئ فخم في الحي المواجه لاله المال ومن ورائه الآلهة المساعدين ، فاقتحمت بابه على عجل ، وصعدت إلى غرفة بها فتاة رشيقة ، ترتدي معطفاً بيتياً جميلاً ، وتنظر في قلق من النافذة إلى عرض الطريق .

وصاحت هذه الفتاة الأكبر سناً عندما رأت الأخرى تدخل الغرفة :

- « أين كنت أيتها الطائشة ؟ متى تكفين عن ترويعنا على هذا المنوال ؟ ان لك ساعتين منذ تسربت من البيت بقبعة ماري وثوبك القديم . وقد جزعت لذلك أمنا جزعاً شديد ، وأرسلت السائق بالسيارة ليبحث عنك . . . انك لشريرة حمقاء بلا عقل ولا تفكير! » .

ودقت الفتاة الكبرى جرساً ، فأتت خادم في لحظة ، فقالت لها :

- « ماري قولي لأمي أن ماريان قد عادت » .

وقالت الصغرى :

- « لا تقسي علي يا أختي ، لقد ذهبت إلى الخياطة لأطلب منها أن تبدل الوشي الوردي بآخر بنفسجي ، ولم أكن بحاجة إلى ثياب أكثر من قبعة ماري وهذا الثوب القديم ، وقد حسبني كل من رآني عاملة في متجر على ما أظن »

- « لقد فاتك العشاء يا عزيزتي » .

- « أعرف ذلك ، فقد عثرت في الطريق ، والتوى كعبي ، فشق علي السير ، فطلعت إلى مطعم قريب ، وجلست هناك أستريح ، ومن أجل ذلك تأخرت » .

وجلست الاختان على كنبة بجوار النافذة تنظران إلى أنوار الطريق ، وسيل العربات المتدفق فيه ، ودفنت الصغرى رأسها في حجر أختها ، وقالت وكأنها في غيابة حلم :

– « سنتزوج يوماً ما بطبيعة الحال ، وان لدينا من المال ما يحول بيننا وبين مضايقة الناس! أقول لك أي نمط من الرجال أصبو إليه يا أختاه ؟ »

وقالت الأخرى ضاحكة :

– « افعلي أيتها الخرقاء » .

– إن الرجل الذي أصبو إليه يجب أن تكون له عيون عطوف زرقاء ، وأن يعامل الفتيات الفقيرات برقة واحترام ، وأن يكون أنيقاً ، وطيباً يعف عن الغزل والتشبيب . ولكنني لن أحبه إلا إذا كان له هدف وعمل ومطمح في الحياة . وما يهمني أن يكون أفقر ما يكون ، ما دمت أستطيع أن آخذ بيده في معراج المعالي . ولكن الرجل الذي نلتقي به يا أختاه هو دائماً الرجل الثري العاطل الذي يحيى حياة خاملة بين الأندية والمحافل ، ولن يتفتح قلبي لمثل هذا الرجل حتى لو كانت عيونه زرقاء ، وكان أرق ما يكون لمن يصادفهن في الطريق من الفتيات والفقيرات » .

عالمي في مقهى

كان المقهى مكتظاً في منتصف الليل ، وشاءت مصادفة ما أن تخفى المائدة التي كنت أجلس إليها عن أعين الداخلين ، فبقي عليها مقعدان خاليان ، يمدان أذرعهما في حفاوة مريبة إلى سيل العملاء .

وما هو إلا قليل حتى اقتعد أحدهما مواطن عالمي ، فطربت لذلك ، لأني كنت أعتقد أن الأرض لم تعرف مواطنا عالميا اصيلاً منذ آدم وحواء . إننا نسمع بهم ونرى بطاقات أجنبية على أمتعة كثيرة ، ولكننا نجد سياحا لا مواطنين عالميين .

وها هو ذا منظر المقهى أطرحه تحت أنظاركم : الموائد ذات القمم الرخامية ، صفوف المقاعد المكسوة بالجلد والملتصقة بالجدران ، الجماعة المرحة ، السيدات في أزيائهن نصف المتأنقة ، يتكلمن في جلبة ملحوظة عن الذوق أو الاقتصاد أو الثراء أو الفنون ، الندل في دؤوبهم وغرامهم بجمع الهبات ، الموسيقى التي توزع البهجة بعدالة بين الجميع ، من سطواتها على المؤلفين ، مزيج الأحاديث والضحكات – وان شئتم فالجعة السمراء في كؤوسها المخروطية المائلة على الشفاه ، كالكريز اليانع مهتزاً على الأغصان أمام منقار الطائر المتلصص . ولقد قال لي أحد المثالين أن المنظر كله كان باريسيا بحق .

كان اسم هذا المواطن العالمي أ . رشمور كوجلان ، وستراه مدينة

الملاهي في الصيف المقبل (وان لم يذهب) فقد أسر إلى أنه يزمع انشاء لعبة جديدة هناك تصلح لتسلية الملوك ، ثم راح بعد ذلك يقرع بسنابك حديثه خطوط الطول والعرض من شرق العالم إلى غربه ، وكأنما وضع كرة الأرض الضخمة في راحة يده ، ببساطة واستصغار ، حتى بدت فيها أصغر من بذرة كريز صغيرة في كأس عظيمة من عصير البرتقال . وتحدث عن خط الاستواء بلا كلفة ، وأخذ يثب من قارة إلى قارة ، ويسخر من الأقاليم ، ويجفف بفوطة يده المحيطات . وقد يتحدث إليك مطوحا بيده عن سوق معينة في حيدر آباد ، ثم هوب! ترى نفسك محمولا معه على زلاجة في لايلند بشمال النرويج ، ثم إذا بك فوا . . . راكبا معه أعراف الموج المزبد المتكسر على سواحل هاواي . ثم إذا هو يجرك وراءه في مستنقع من مستنقعات اركنساس ، تاركا اياك لحظة تجفف نفسك على السهول الملحية في مزرعته بولاية ايداهو ، ثم لا يلبث أن يرف بك إلى مجمتع النبلاء في فيينا ، ثم لا يفتأ حتى يخبرك عن برد أصابه في شيكاغو من نسيم بحيرة ميشجان ، وكيف أن اسكاميلا العجوز من سكان بونس ايرس شفته بمنقوع عشبة الشوشولا الساخن . وقد تستطيع في كلمة أن تعنون رسالة بهذا الاسم ا . رشمور كوجلان المحترم . . بالكرة الأرضية ، بالمجموعة الشمسية . . الكون ، ثم تضعها في البريد ، وأنت واثق تمام الثقة أن الكتاب واصل إليه لا محالة .

وأيقنت أني وقعت في النهاية على المواطن العالمي الأصيل منذ آدم ، وأصغيت إلى حديثه الطاوي للعالم بأسره ، مشفقاً أن أعثر فيه على لمحة وطنية محلية لمجرد شخص جواب آفاق ، ولكن آراءه لم تختلج ولم تهن قط ، وتنزهت عن التحيز للمدن والأمم والقارات ، شأنها شأن الريح والجاذبية الأرضية سواء بسواء .

وبينما أ . رشمور كوجلان يثرثر عن كوكبه الصغير ، رحت أفكر بفرح في رجل آخر كاد يكون مواطنا عالميا عظيما ، كتب للعالم أجمع ، وأهدى ما كتب إلى بومباي[1] وقال من قصيدة له : « إن ثمة

---

١ - يعني الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج.

تفاخراً وتنافساً بين مدن الأرض بعضها وبعض ، وان من بين أبنائها من يذرع العالم شمالاً وجنوباً ، ولكنه يتعلق بمسقط رأسه كما يتعلق الطفل بذيل أمه ، وإذا ما مشى في الشوارع الصاخبة المجهولة تذكر وطنه ، بإخلاص وحمق وحنين ، واتخذ من مجرد اللفظ باسمه غلا جديدا يضيفه إلى ما يربطه به من أغلال » وزاد من سروري اني ضبطت كبلنج الجديد مغفيا في سنة من النوم . فقلت لنفسي لقد عثرت برجل ليس مخلوقا من التراب ، رجل لا يزهو ذلك الزهو الأخرق بمسقط رأس أو وطن ، رجل إذا تفاخر - وهيهات - فإنما يفاخر بكرة الأرض سكان القمر وأهل المريخ!!

وإذا كانت هذه الأمور في حاجة إلى توضيح فقد قام بهذا التوضيح أ . رشمور كوجلان بايعاز من شخص إلى آخر شغل المقعد الثالث في مائدتنا ، وسيأتي ذكره بعد قليل . وبينما كان كوجلان يصف لي التخطيط المفصل للبقعة من الأرض التي تمر فيها سكة حديد سيبريا ، كانت الموسيقى تصدح بخليط من الألحان ، وكان ختامها لحن « ديكسى » وهو نشيد وطني ثوري معروف في الجنوب ، فلم تكد أنغامه تقرع الأسماع حتى طغت عليها عاصفة من التصفيق هبت من كل مائدة على التقريب .

ومما يستحق التنويه به في نبذة خاصة أن هذا المنظر العجيب يمكن أن يشاهد كل ليلة في كثير من مقاهي نيويورك ، ولطالما استنفدت فيها أطنان من الجعة على مناقشة مثل هذه النظريات . ويظن البعض أن الجنوبيين في المدينة يسوقون أنفسهم سوقا إلى المقاهي إذا جن الليل . وقد يغمض قليلا تعليل هذا الاقبال على مثل هذا الجو المتمرد . بيد أن هذا الغموض غير مستحيل الايضاح ، فان الحرب مع أسبانيا بسنواتها الطويلة ذات المحاصيل السخية في النعناع والبطيخ ، وبطولاتها القليلة في الرماية الطويلة بسباق نيواورليانز ، وولائمها الباهرة المقامة من سكان انديانا وكنساس الذين يتألف منهم مجتمع كارولينا الشمالية ، جعلت الجنوب أشبه ما يكون بأسطورة في مانهاتان . ولقد تقول لك

غادة المانيكور في لثغتها الحلوة ان سبابتك اليسرى تذكرها بسبابة سيد من ريشموند بفرجينيا! ولكن ما لنا ولهذا ، فكم من سيدة تحتم عليها أن تكسب قوتها بعرق الجبين ، إنها الحرب كما تعلم!

وعندما كانت الموسيقى تعزف نشيد ديكسى ، قفز شاب فاحم الشعر من حيث لا يدري أحد ، وصاح صيحة الفدائيين في الحرب ، وأدار قبعته ذات الحافة الرخوة بهوس ، ثم انفتل خلال سحب الدخان إلى حيث وقع على المقعد الشاغر في مائدتنا ، وقدم لنا سجائره .

وكانت السهرة قد بلغت الحد الذي يذوب عنده كل تحفظ ، وطلب أحدنا من الساقي ثلاث كؤوس من الجعة ، وأقر الشاب الفاحم الشعر تضمينه في الطلب بابتسامة وانحناءة من رأسه ، وبادرت بتوجيه سؤال إليه ، وفي نفسي أن أختبر فيه نظرية لي :

– « هل تتكرم بإخباري عما إذا كنت من . . . »

وردتني إلى الصمت ، قبل أن أكمل سؤال ، قبضة أ . رشمور كوجلان وهي تقرع المائدة بعنف ، وقوله :

– « معذرة فهذا سؤال لا أحب أن أسمعه يطرح أبداً . ماذا يهم أن يكون المرء من هنا أو من هناك ؟ وهل من الحكمة أن تحكم على رجل من عنوانه في البريد ؟ لقد رأيت في حياتي كنتوكيين يبغضون الويسكي ، وفرجينيين لم ينحدروا من أصلاب نبلاء الهنود الحمر ، وأندیانيين لم يؤلفوا روايات ، ومكسيكيين لا يرتدون السراويل المحلاة ثناياها بالدولارات الفضية ، ورأيت انجليز يضحكون ، وأمريكيين يبذرون ، وجنوبيين باردي الدم ، وغربيين ضيقي العقول ، ونيويوركيين ، بلغوا من الانهماك في العمل بحيث لا يقفون ساعة في الطريق يشاهدون صبي بدال يعبئ بذراعه الواحدة الزبيب في أكياس الورق . دعوا الرجل يكن رجلاً بذاته ، ولا تعوقوه بدمغه بالانتماء إلى مكان معين » .

قلت له :

– « عفواً . . فان استطلاعي لم يكن طيشا كله . ولكني أعرف

الجنوب ، وعندما تعزف الموسيقى نشيد ديكسى أحب أن أرقب السامعين . ولقد أصبحت أومن أن الرجل الذي يصفق لهذا النشيد بعنف خاص واخلاص وطني ملحوظ : أما أن يكون قادماً من سيكوكاس بولاية نيوجرسي ، أو من الحي الواقع على نهر هارلم بهذه المدينة ، ولقد كنت على أن أضع نظريتي هذه موضع الاختبار بسؤال هذا السيد ، عندما قاطعتني بنظريتك الأعم ، كما يجب أن أعترف » .

وعندئذ تحدث إلى الشاب الفاحم الشعر ، وتبين أن عقله هو الآخر كان يشطح على هواه عندما قال في غموض :

– ليتني أمسخ حلزونا على ذروة واد من الوديان ، وأغني هناك كما أشاء!

ولقد كان من الواضح أن قوله ممعن في الغموض ، فالتفت إلى كوجلان من جديد فألفيته يقول :

– « لقد طفت حول العالم اثنتي عشرة مرة ، وعرفت فردا من الاسكيمو يشتري ربطات عنقه من سنسناتي ، ورأيت مربي ماشية في أوروجواي يكسب جائزة من حل ألغاز علب الطعام المحفوظ . وهآنذا أؤجر غرفة في القاهرة بمصر وأخرى في يوكوهاما على مدار العام . وثمة « شباشب » تنتظرني بمقهى في شنغهاي . ولست محتاجاً لالقاء أي تعليمات عن تسوية البيض في ريودي جانيرو أو واشنطن . . . انها دنيا متناهية في الصغر ، فما فائدة اللغط بكونك من الشمال أو من الجنوب ، أو من كوخ في الريف أو قصر بالمدينة أو من أي مكان ؟ انه ليكون عالما أفضل لو انصرفنا عن هذا التحامق حول الانتماء إلى مدينة عفنة ، أو عشرة أفدنة من المستنقعات لا لشيء إلا لأن المصادفة شاءت أن نولد هناك . . »

وقلت في اعجاب :

– « يبدو لي أنك مواطن عالمي أصيل ، ولكن من الواضح كذلك أنك تحتقر الوطنية! »

قال كوجلان في حرارة :

– « إنها طلل من أطلال العصر الحجري ، فنحن كلنا أخوة ، الصينيون والانجليز والزولو والبتاجونيون ، وأولئك الذين يعيشون في منعطف نهركو (الهنود الحمر) ، وسيفنى يوماما هذا الزهو السخيف بمدينة ما ، أو ولاية ما ، أو بقعة ما ، أو أمة من الأمم ، وسنصبح كلنا يومئذ مواطنين عالميين كما ينبغي أن نكون . . »

ومضيت فيما كنت أقول :

« ولكنك وأنت تجوب الآفاق ألا تثوب أفكارك إلى مكان ما ، مكان عزيز عليك ، مكان . . . »

وقاطعني أ . ر . كوجلان في اندفاع :

« مالي من مكان مثل هذا قط ، فإن وطني هو هذا الركام الفلكي الترابي الكروي المفلطح قليلا عند قطبيه ، المعروف باسم الأرض .

وكم قابلت في الخارج كثيراً من عبيد الوطن من سكان هذه البلاد ، وكم رأيت رجالا من شيكاغو يركبون زوارق البندقية في الليالي المقمرة ، فلا يحلو لهم الكلام إلا عن مجاري مدينتهم . بل اني عرفت رجلا من الجنوب قدم على ملك انجلترا وصافحه دون أن يتكلف ارخاء جفنيه ، لعلمه أن عمة من عمات جد من أجداده لامه ، كانت قد أصهرت إلى أسرة بركنسيز التي تمت بصلة القربى إلى الأسرة الملكية ، كما عرفت رجلا من نيويورك خطفته عصبة من قطاع الطرق في أفغانستان بغية الفدية ، فافتداه أهله ، فأعادته العصبة مع ممثلها إلى كابول . وقال له الأهالي عن طريق ترجمان : « ليست أفغانستان بالبلد الراكد . أولا تظن ذلك ؟ » فأجابهم : « لا أدري » ثم مضى يحدثهم عن سائق عربة في الشارع السادس وعن برودواى : إن هذه الاتجاهات لا تلائمني ، ولا توجد ثمة رابطة بيني وبين شيء ما يقل قطره عن ثمانية آلاف ميل ، فاعتبرني أ . رشمور كوجلان مواطن الكرة الأرضية ليس إلا » . . .

***

وغادرني مواطني العالمي بكلمة وداع سخية ، إذ خيل إليه أنه يرى بعض معارفه من خلال « الشيش » وسحب الدخان ، وكذلك تركني

وحيداً مع حلزون المستقبل الذي سلبته نشوة الجعة كل قدرة على التعبير عن أمانيه في التغني على ذروة واد من الوديان .

وجلست أتأمل في مواطني العالمي الذي لا ريب فيه! وأعجب كيف ضل عنه الشاعر كبلنج . لقد اكتشفته وآمنت به . على رغم ما قال ذلك الشاعر : «وان من بين أبنائها من يذرع العالم شمالاً وجنوباً ، ولكنه يتعلق بمسقط رأسه كما يتعلق الطفل بذيل أمه» -!

إن أ . رشمور كوجلان لم يكن واحداً من هؤلاء ، فالدنيا كلها تحت أخمص قدميه .

وقطعت تأملاتي ضوضاء عنيفة ، وشجار في ركن من أركان المقهى ، ورأيت من فوق رؤوس الرواد الجالسين أ . رشمور كوجلان مع رجل آخر أجهله ، في معركة حامية الوطيس . لقد كانا يتلاكمان بين الموائد كالعمالقة . وتحطمت كؤوس ، وهوت أجساد وأصحابها يتهيأون للخروج ، وصاحت غادة سمراء تستغيث ، وراحت غادة أخرى شقراء تغني أغنية لا تعاكسني!!

وكان مواطني العالمي يمكن لكبرياء الأرض وسمعتها عندما أطبق الخدم على المتناضلين معا بمهارتهم المعروفة في رمي الأثقال ، فقذفوا بهما إلى الخارج وهما عاكفان على النضال .

وناديت ماكارثي ، وهو أحد الندل الفرنسيين ، فسألته عن علة هذا الشجار ، فقال :

- «إن الرجل ذا ربطة العنق الحمراء (مواطني العالمي) غضب لشوارع بلاده ومياه شربها عندما اتهمها زميله بالقذارة»!

وقلت مبهوتا :

- «ولكن كيف والرجل مواطن عالمي ، وطنه المعمورة ، و . . .»

فقال ماكارثي :

- «لقد قال انه في الأصل من ماتاووم كياج في ولاية مين» وانه لا يمكن أن يحتمل اهانة توجه إلى هذا المكان!»

قصة لم تكمل

لم نعد نجزع أو نحثو على رؤوسنا التراب عندما تذكر أمامنا نيران الجحيم ، فان الوعاظ أنفسهم أصبحوا يتحدثون عن الراديوم والأثير وسواهما من المكتشفات العلمية كما يتحدثون عن الله ، ولعل من بينهم من أصبح يقول ان أخشى ما نخشاه بعد الموت – نحن البشر الخطأة – وهو التحلل إلى هباء . ولقد يسرنا هذا الرأي وإن كانت أرواحنا ما زال يخالجها أثر من ذلك الفزع القديم مما وراء الحياة .

إن ثمة موضوعين اثنين نستطيع أن نطلق لخيالنا العنان في التحدث عنهما بمنجاة من الجدل : أولهما التحدث عن أحلامنا ، والثاني رواية ما تقول الببغاء . فمجال القول فيهما ذو سعة ، لأن إله النوم الطائر المسكين ، كلاهما شاهد لا يصلح للشهادة ، وهيهات أن يجد السامع في حديثك عنهما مطعنا فيما تقول! ومن أجل ذلك احترت أن أجعل من الرؤيا وتهاويلها الزائفة مادة لهذه القصة ، وأستغفر الببغاء اللطيف نادما على اهماله لضيف مجال حديثه المحدود . .

***

رأيت فيما يرى النائم حلما يتعالى على النقد والجدل ، لأنه يتصل بالحشر والحساب رأيت قوما من رجال المال المحترفين يرتدون السواد الحالك ، والبنائق ذوات الأزرار والعرى الخلفية ، وقد نحوا جانباً ، وكأنما

ثمة بعض المتاعب في تحديد منازلهم في الآخرة ، وبدا أننا كلنا عن الجنة مبعدون .

ووقع على شرطي مجنح من شرطة الملائكة ، فقبض على جناحي ، وأشار إلى ثلة أخرى من الأرواح كانت تبدو عليهم مظاهر العز ، وكانوا ينتظرون هم كذلك دورهم في الحساب ، ثم تساءل :

– « ألك بهذه الطغمة صلة ؟ »

وكان جوابي : « من هم هؤلاء . . . ؟ »

قال : « انهم . . . »

ولكن مالي وهذا اللغو غير الملائم الذي يشغل حيزاً كان يجب أن يخصص للقصة .

إن دالسي كانت تعمل في محل تجاري ، تبيع الممبار أو الفلفل المحشو أو السيارات ؟ ؟ أو غير ذلك من التحف الصغيرة التي تباع عادة في الحوانيت . وكانت تتقاضى ستة ريالات في الأسبوع من أجرها ، ويحتفظ لها بالباقي مقيداً في حساب شخص آخر ، شخص معنوي سمه إذا شئت بالطاقة المهيمنة .

وخلال العام الأول من عملها في هذا المتجر ، كانت دالسي تتقاضى خمسة ريالات في الاسبوع . . ولقد يفيد كثيراً لو عرفنا كيف كانت تعيش على هذا الدخل ، ولكن لا تلق بالا إلى ذلك ، فلعلك لا تعنى إلا بحساب الدخل الكبير . وقد كبر دخلها فعلا عندما أصبحت الخمسة الريالات ستة . وسأصف لك كيف عاشت على ستة ريالات في الأسبوع .

حدث في الساعة السادسة ذات مساء أن قالت دالسي لصديقتها سادى العاملة كنادلة في مطعم ، وهي تشبك قبعتها في شعرها بدبوس ، كان بين سنه وبين مخها أقل من ثلاثة سنتيمترات :

– « لقد واعدت بيجى على العشاء الليلة ، فماذا تقولين ؟ »

وصاحت سادى في اعجاب :

« يالك من محظوظة! إنها فرصة لم تتح لك من قبل ، وان بيجى

لشاب عظيم ، وهو لا يدهب برفيقته إلا إلى الأماكن العظيمة ، فقد أخذ بلانش ذات ليلة إلى مطعم هوفمان ، حيث الموسيقى عظيمة ، وحيث ترين طائفة من العظماء! أؤكد لك يا دالسي أنك ستستمتعين بوقت عظيم » .

وأسرعت دالسى إلى البيت ، وعيناها تألقان ، وفي وجنتيها أثر من ذلك الشفق الوردي المبشر بفجر الحياة . وكان اليوم يوم جمعة ، ولم يبق معها من أجر الأسبوع السابق أكثر من نصف ريال .

وكانت الشوارع تزخر بجموع هائلة من الناس ، في أشد الساعات احتشاداً ، وهي ساعة خروج العمال . وكانت أنوار برودواى الكهربائية ساطعة تجتذب الفراش من مئات الأميال في الظلام المحيط ، تدعوها أن تكون أجنحتها على زجاج المصابيح ، وكان رجال مهندمو الثياب ، لهم وجوه كوجوه الصور التي ترسمها أملاح البحر على الصخور الحمراء في مساكن الصيادين ، يتلفتون نحو دالسى ، ويحملقون فيها ، وهي تمر بهم مسرعة لا يعنيها من أمرهم شيء . ان مانهاتان – زهرة الليل الناضرة – كانت شارعة في تفتيح غلائلها الناصعة البياض ذات العطر الفواح .

ووقفت دالسى على حانوت يبيع السلع الرخيصة ، فاشترت وشاحاً مطرزاً بالوشي الزائف ، بالخمسين دانقاً التي كانت تملكها . والتي كان مقدراً لها أن تنفق بأسلوب آخر : خمسة عشر للعشاء وعشرة للفطور وعشرة للغداء ، وعشرة تضيفها إلى مدخراتها التافهة ، وتبدد الخمسة الباقية في شراء قطعة من حلوى عرق السوس ، تلك الحلوى التي تورم خدك كأنك مصاب بخراج في ضرس ، وتدوم في فمك دوام هذا الخراج . إن حلوى عرق السوس كانت بالنسبة لها بذخاً وسفها ، وأقرب ما تكون إلى القصف . ولكن ما هي الحياة إذا خلت من الملذات ؟

وكانت دالسى تسكن غرفة مفروشة ، وثمة فرق بين غرفة مفروشة في بيت ، وبين نظيرتها في نزل ، وذلك أن السكنى في الأولى لا تتيح للناس الفرصة لأن يعرفوا أنك جوعان .

وصعدت دالس إلى حجرتها ، في الجزء الخلفي من الطابق الثالث ،

في منزل بسيط . فأوقدت مصباح الغاز . ويتون لنا العلماء أن الماس أصلب المواد المعروفة ، وهذا ضلال . فإن ربات البيوت يعرفن مادة يعتبر الماس بجوارها عجينا ، وهن يضعنها في أفواه المصابيح الغازية ، فيصعد الساكن على مقعد يجاهد في سبيل اخراجها فتحمر أصابعه وتدمى ، ولكن دون طائل . ودبوس الشعر تستعصي عليه كذلك ، ومن أجل ذلك دعونا نسم هذه المادة بالمادة الراسخة .

وكذلك أوقدت دالسى المصباح ، ولنلق نظرة على الغرفة في ضوئه الذي لا يتجاوز ربع شمعة .

سرير صغير ، وصوان للملابس ومنضدة ، ومغسل وكرسي ، وتهمة تملك هذه الأشياء توجه إلى ربة البيت . فأما ما عداها ، فكان ملكا خالصا لدالسى ، فعلى الصوان صفت ذخائرها وهي عبارة عن أصيص من الصيني المموج بالذهب مهدى إليها من سادى ، وتقويم صادر عن معمل « طرشى » وكتاب في تفسير الأحلام ، وبضع ثمار من الكريز الصناعي مربوطة بشريط وردي .

وأمام المرآة المتجعدة وضعت صورة للجنرال كتشنر وأخرى لوليم مالدون ، وثالثة لدوقة مارلبرو ورابعة لبنفنيوتوسلينى وعلى الجدار علقت لوحة من الجبس لشخص يدعى أو . كالاهان يرتدي فوق رأسه خوذة رومانية . وعلى مقربة منها لوحة زيتية ذات ألوان صارخة لطفل مصفر الوجه ، يعاكس فراشة ثائرة . . وكانت هذه الصور واللوحات هي أسمى ما يصل إليه الفن في رأي دالسى ، وما من شيء أو نقد كان يستطيع زعزعة هذا الايمان .

وكان بيجى على أن يمر عليها في السابعة . فلنتركها تتهيأ للخروج ، ونواجه ناحية أخرى وتمائم أخرى ولكن دون تجريح .

إن دالسى كانت تدفع في غرفتها ريالين كل أسبوع . وكانت تفطر في أيام العمل بعشرة دوانق تكفي لعمل فنجان من القهوة وسلق بيضة ، على لهب المصباح ، وهي ترتدي ثيابها . وفي صباح يوم الأحد كانت تولم وليمة ملكية في مطعم قريب على شرائح اللحم والاناناس تكلفها

خمسة وعشرين دانقاً مضافا إليها عشرة دوانق تنفح بها الخدم . ولما كانت نيويورك تزخر بالفتن التي تغرى بالبذخ والاسراف ، فانها وقت نفسها من هذه الفتن بالتغدي في مقصف الحانوت كل أيام الأسبوع ، حيث لا يكلف الغداء أكثر من ستين دانقاً (ولا يكلف العشاء إلا ريالا وخمسة دوانق) وكانت تنفق على صحف المساء - وأروني واحداً من سكان نيويورك لا يقرأ صحيفة يومية - ستة دوانق ، وتشتري اثنتين من صحف الأحد بعشرة دوانق ، تطلع في احداها على نهر الخصوصيات ، وتقرأ الأخرى ، ومجموع ذلك كله أربعة ريالات وستة وسبعون دانقا . ولما كان على المرء أن يشتري ثياباً . . .

إني أقر بالعجز عن متابعة هذا الحساب ، ولئن كنت أسمع عن صفقات ملائمة في الثياب ، ومعجزات تصنع من الخيط والأبر ، فإني أشك فيها جميعا . وهأنذا أشرع قلمي عبثاً لاضيف إلى حياة دالسى شيئاً من المباهج التي تمنحها للمرأة كل القوانين المقدسة ، الطبيعية ، غير المكتوبة ، غير المعمول بها ، التي شرعتها عدالة السماء . نعم ان دالسى ذهبت إلى مدينة الملاهي مرتين ركبت فيهما الجياد الخشبية ، ولكن بؤساً لحياة تعد مسراتها بمواسيم الصيف بدلا من عدها بالساعات .

ولن يحتاج بيجى لأكثر من كلمات . إن الفتيات عندما يذكرنه ، كن يصمن السلالة النبيلة للخنزير بوصمة لا يستحقها المسكين . وكانت الكلمات المتقطعة التي كان الأطفال يتعلمون فيها التهجي في كتب الهجاء القديمة تلخص تاريخ حياته كله : سمين ، فأر ، خفاش ، قط . . . فقد كانت له من الفأر روحه ، ومن الخفاش عاداته ، ومن القط نخوته . وكان يرتدي أفخر الثياب ، وله خبرة عجيبة بمعرفة آيات الجوع والحرمان . ولقد ينظر إلى الفتاة العاملة نظرة واحدة ، فيحدد لك بالساعة كم مر عليها من الوقت لم تتزود بغير الخبز والشاي . وكان يتسكع في الأحياء التجارية ، ويتجول في الحوانيت ، ومعه دعواته المعدة للعشاء ، محتقراً من أولئك الذين يسيرون في الشوارع وفي أيديهم

أعنة كلابهم ، فقد كان يمثل نمطاً بعينه من الناس ، ولن البث معه طويلا فان قلمي ليس من النوع الذي يصلح له ، فوق اني لست بنجار .

وفي الساعة السابعة إلا عشر دقائق كانت دالسى مستعدة ، ونظرت إلى نفسها في المرآة المتجعدة ، فرضيت عن طيفها . . ان ثوبها الأزرق المنسجم على جسدها دون غضون ، والقبعة بريشتها السوداء ، والقفازات النظيفة إلا من شيات قليلة ، كانت كلها تتسق ونكرانها للذات حتى للطعام .

ومرت لحظة نسيت فيها دالسى كل شيء إلا أنها جميلة ، وأن الحياة توشك أن ترفع لها ركنا من قناعها الغامض لترى من ورائه ما تنطوي عليه من عجائب . انها أول مرة يدعوها فيها رجل ، وها هي ذي مقبلة على لحظة قصيرة من لحظات التجلي والاشراق .

لقد سمعت الفتيات يقلن عن بيجى انه متلاف ، فهي إذن على موعد مع عشاء فخم ، وموسيقى شجية ، ورؤية سيدات يخطرن في ثياب العز ، وألوان من الطعام طالما رأت أفواه الروايات تتلمظ وهن يتحدثن عنها ، وما من شك أن هذه الدعوة ستتكرر .

إنها رأت ذات يوم في معرض حانوت تعرفه حلة حريرية زرقاء ، ولو أنها وفرت عشرين دانقاً في الأسبوع بدلاً من عشرة . . . دعونا نحسب! إن شراءها يستغرق سنين ، بيد أن ثمة حانوتا لبيع الملابس المستعملة حيث يمكن . . .

وسمعت قرعا على الباب ، ففتحته ، فألفت قيمة البيت واقفة تبتسم ابتسامة متكلفة ، وهي تتنسم رائحة الغاز المسروق ، في تحضير القهوة على زبالة المصباح ، وتقول :

– « يوجد تحت سيد يريد أن يراك ، يدعى مستر ويجنس »

وبهذا الاسم كان بيجى معروفا بين أولئك التعيسات اللائي نظرن إليه نظرة الجد ، فخدعن فيه .

ورجعت دالسى إلى الصوان لتأخذ منديلا ، ولكنها وقفت هناك كالصنم ، تعض شفتها السفلى . ونظرت إلى المرآة فوجدت دنيا من

الأحلام ، رأت فيها نفسها أميرة تصحو لتوها من نوم طويل . ونسيت شخصا كان يرقبها بأعين عابسة حزينة جميلة ، شخصاً كان هو الوحيد الذي له حق الرضا أو السخط على كل ما تفعل ، فقد كان الجنرال كتشنر يشخص اليها بعينيه الساحرتين ، من الإطار المذهب على ظهر الصوان ، ومن صورته الرشيقة ذات القامة الطويلة المنتصبة ، وعلى وجهه الحزين الجميل نظرة تأنيب .

ودارت دالسى على عقبيها إلى ربة البيت كأنها دمية تتحرك بزنبرك ، وقالت لها بكآبة :

– « قولي له انني لن أذهب ، قولي اني مريضة ، أو قولي ما تشائين ، أخبريه انني لن أخرج » .

وبعد أن أغلقت الباب بالمفتاح ، استلقت على الفراش ، ساحقة قبعتها ذات الريشة السوداء ، وبكت عشر دقائق . ان كتشنر كان صديقها الوحيد ، وكان مثلها الأعلى لشهامة الفرسان ، وقد بدا على وجهه حزن دفين ، وبدا شاربه الجميل كأنه حلم من الأحلام ، وأشفقت من تلك النظرة العابسة في عينيه وان لم تخل من عطف . وكثيراً ما كانت تتخيل انه سيمر بالبيت يوما ما ، سائلا عنها ، وغمد سيفه يقرع حذاءه العالي ، وقد فتحت نافذتها يوما وتطلعت منها عندما سمعت صليل سلسلة حديدية كان غلام يقرع بها عامود مصباح النور . ولكن أي جدوى وهي تعلم أن كتشنر بعيد عنها في اليابان يقود جيشه ليحارب الأتراك المتوحشين . .! وتوقن انه لن يخرج إليها من اطاره المذهب ، ومع ذلك فان نظرة واحدة منه ألوت ببيجي هذه الليلة . أجل هذه الليلة ليس إلا .

وعندما فرغت دالسى من البكاء نهضت وخلعت أبهى حللها وارتدت قميصها الأزرق القديم . وعزفت عن الطعام ، وتغنت بأغنيتين ، ثم شغلت بهنة حمراء وجدتها على جانب أنفها ، فلما فرغت منها ، جرت مقعداً إلى المنضدة الكسيحة ، وجلست تستطلع حظها في مجموعة من ورق اللعب القديم .

وقالت في صوت مسموع : «هذا الشبح الفظيع السليط . . وما نظرت إليه أو نطقت أمامه بكلمة تجعله يفكر فيما ذهب إليه! »

وفي التاسعة أخرجت دالسى من حقيبتها علبة بسكوت ، وزجاجة صغيرة من المربى ، وأقامت لنفسها وليمة . وعرضت على كتشنر قطعة من البسكوت عليها قليل من المربى ، ولكنه لم يفعل شيئاً أكثر من النظر إليها نظرة أبى الهول إلى فراشة تحوم حوله لو أن الفراش عاش في الصحراء .

وقالت دالسى :

- «لا تذقها إذا لم تصادف هواك ، ولا تتكلف كل هذا التكلف ، ولا تزجرني هكذا بعينيك . .! أتراك كنت تتعالى كما تتعالى اليوم وتصعر خدك كما تفعل ، لو أنك كنت تتقاضى ستة ريالات في الأسبوع ؟ »

وإذا أغلظت دالسى القول لكتشنر كان هذا نذيرا بالشر ، فلم تلبث حتى بطحت بنفنيوتوسلينى على وجهه وفي وجهها عبوس شديد ، ولكن عملها هذا لم يكن فوق المعاذير ، فانها كانت تتمثل فيه دائماً هنري الثامن ، ولا تنظر إليه باعجاب .

وفي منتصف التاسعة ألقت دالسى نظرة أخيرة على مجموعة الصور ، وأطفأت النور ، وأوت إلى الفراش ، وانها لمحنة أن يأوي المرء إلى فراشه ، فلا يجد من يتمنى له الأحلام الطيبة سوى الجنرال كتشنر ، ووليام مولدون والدوقة مارلبرو ، وبنفينيوتو سلينى .

***

إن هذه القصة لم تكتمل ، وستحدث نهايتها بعد ، عندما يعود بيجى فيدعو دالسى إلى العشاء مرة أخرى ، وتكون هي شاعرة بمرارة الوحدة ، ويكون كتشنر منصرفاً عنها بنظراته مصادفة ، وعندئذ . . .

لقد رأيت فيما يرى النائم كما قلت من قبل ، اني كنت أقف بجوار ثلة من الملائكة تبدو عليهم سمات العز ، فقبض على جناحي شرطي ، وسألني إن كنت من هذه الطغمة ؟

وسألته بدوري : « من هم هؤلاء ؟ »

فقال : « ألا تعلم ؟ إنهم أولئك الرجال الذين كانوا يأجرون الفتاة العاملة بخمسة أو ستة ريالات في الأسبوع ، لتعيش عليها ، فهل أنت من هذه الطغمة ؟ »

قلت : « أنا ؟ كلا وحق خلودك . اني لم ارتكب في حياتي جرماً أشنع من ايقاد النار في ملجأ للأيتام ، وقتل رجل ضرير ، لأغتصب ما كان معه من نقود » . . .!

في خدمة الحب

إذا أحب المرء فنه فقلما يشق عليه عمل فيه .

هذه مقدمة لقضية منطقية ، وستستخلص من هذه القصة نتيجة ، وستثبت في نفس الوقت أن هذه المقدمة باطلة ، وهو شيء جديد في المنطق ، ولكنه براعة مألوفة في التأليف القصصي قد تكون أعرق في القدم من سور الصين الكبير .

نزح جولارابى من مستنقعات الغربَ الأوسط ، ينبض بالعبقرية في فن التصوير ، فقد قام وهو في السادسة بعمل لوحة لمضخة الماء بالقرية يغذ السير على مقربة منها أحد القرويين ، ووضع اللوحة في اطار ، وعرض الاطار في معرض حانوت بقال ، إلى جوار « كوز » من الذرة لم تتزاوج صفوف الحب فيه كالمعتاد . وفي العشرين سافر إلى نيويورك بربطة عنق منتفشة ، ورصيد مالي ملموم .

وكانت ديليا كاروثرز من أهل قرية عامرة بأحراش الصنوبر ، من قرى الجنوب ، تبهر أقاربها بما تسويه من هوائل في الموسيقى ، فتعاونوا على أن يجمعوا لها صبابة من المال ، لتنزح إلى الشمال وتستكمل هذا النبوغ ، بيد أنهم لم يقدر لهم أن يروا نبوغها يكد . . . ولكن صبرا فهذا جوهر القصة .

تلاقى جوود يليا في متحف ضم طائفة من طلاب الفن والموسيقى ،

يتجاذبون الحديث عن تبادل الأضواء والظلال في الصور ، وعن وجنر ، والموسيقى وأعمال رامبراندت ، واللوحات ، ووالدنتوفل ، وورق الجدران الملون ، وشوان وأولنج .

وتحاب جوودیلیا ، أو قل إذا شئت أحب كل منهما الآخر ، وتزوجا في وقت قصير ، فانه - كما قرأت في مطلع القصة - إذا أحب المرء فنه ، فما من عمل يشق عليه فيه .

وبدأ آل لارابى حياتهما الزوجية في شقة[1] . . . شقة منعزلة انعزال المفتاح الصارخ في أقصى اليسار من لوحة البيان . وكانا سعيدين ، فلكل منهما فنه ، ولكل منهما صاحبه ، واني لأهيب بكل شاب ثري ، أن يبيع ما يملك ، ويتصدق به على الفقراء ويحظى بالسكنى في شقة مثل هذه مع فنه وديلياه .

إن كل نزلاء هذه المساكن يعززون رأيي ان سعادتهم هي السعادة الحقيقية الوحيدة ، فالبيت السعيد ولو كان جحراً لا يضيق بساكنيه . دع خزائن الملابس تنقلب فيه موائد للبليارد ، وطنف الموقد يستحل إلى آلة للتجديف ، والمائدة ذات الأجنحة المتحركة إلى غرفة نوم احتياطية ، وحوض الغسيل إلى بيان «على الواقف» ودع الجدران الأربعة تتعانق - إذا استطاعت - فانك وديليا بين أحضانها سعيدان . أما إذا كان البيت على النمط الآخر ، فليتسع وليمتد ما شاء ، وليكن مدخله الجولدن جيت[2] وليكن مشجب القبعات فيه رأس هاتيراس ، ومشجب المعاطف رأس الرجاء الصالح ، وليكن بابه الخلفي شبه جزيرة لبرادور .

وتتلمذ جو في التصوير على ماجستر العظيم - ولعلك تعرف ماله من ذيوع الصيت . إنه يتقاضى أجورا طنانة على دروس جوفاء ، ومن هذا الطنين الأجوف ملأ صيته الآفاق . وكانت ديليا تتلمذ على

---

١ - الشقة - القطعة المشقوقة من شيء، وقد استعملت هنا ترجمة للكلمة Apartement.

٢ - الجولدن جيت «الباب الذهبي» مضيق في سان فرانسسكو. ورأس هاتيراس رأس ناتئ في جزيرة تواجه ساحل كارولينا الشمالي.

روزنستوك ولا بدانك تعرف شهرته كمقلق أعظم لمفاتيح البيان .

كانا سعيدين سعادة ضافية ، طالت ما بقي معهما فضلة المال . ككل الـ . . . ولكني لن أعمد إلى السخرية . إن أهدافهما كانت محددة وواضحة غاية الوضوح . فجو كان عليه أن يصبح قادراً في أقصر وقت على إخراج لوحات يتلائم في مرسمه على الحظوة بشرائها السادة العجائز أصحاب الشوارب الرفيعة والمحافظ المنتفخة ، وكانت ديليا على أن تحذق الموسيقى ، وتكبر عليها إلى الحد الذي يسمح لها ، بالزوغان من المسرح إذا وجدت المقاصير ومقاعد الصفوف الأولى خالية ، والمضي بزورها الموجع إلى مطعم منعزل تتعشى على الجنبري فيه .

بيد أن أجمل شيء على ما أعتقد كان حياتهما المنزلية في الشقة الصغيرة ، وتلاغيهما الفياض بالمحبة ، والتبسط بعد الفراغ من دروس النهار ، والعشاء اللطيف والفطور الطري الخفيف ، وتقارض المطامع التي يشترط فيها الجمع بينهما ، أو لا توضع موضع الاعتبار ، وتبادل العون والالهام ، و – وعفواً عن قلة الذوق – شطائر الجبن والزيتون المحشو ، في الحادية عشرة من كل صباح .

ولكن الفن لم يلبث أن نكس[1] وهو خليق أن يفعل أحياناً ، ولو لم ينكس رايته ديدبان . كل شيء يذهب وما من شيء يجيء كما يقول الناس .

وأعوزتهما أجور السيد ماجستر والهر روزنستوك ، ولما كان المحب لفنه لا يشق عليه شيء ، فقد قالت ديليا انها ترى لزاما عليها أن تقوم باعطاء دروس في الموسيقى حتى يظل الزيت ينش في المقلاة .

وبقيت يومين أو ثلاثة تتصيد تلاميذ ، وذات مساء عادت إلى البيت مزهوة ، وقالت في ابتهاج : «لقد وجدت تلميذة يا عزيزي جو . انها ابنة الجنرال أ . ب . بكنى في الشارع الحادي والسبعين ويا له من بيت فخم ، يجدر بك أن ترى بابه الأمامي يا جو ، وأحسبك ستسميه بيزنطي الطراز ، أما داخله ، فآها يا جو ، إن عيني لم تقع له قط على نظير» .

---

١ – نكس – بالمبنى للمجهول ضعف وعجز.

« تلميذتي هي ابنته كليمنتينا ، وقد شغفتني حبا مذ رأيتها . إنها تذوب رقة ، وتلبس البياض على الدوام ، وترف سجاياها بساطة وحلاوة . وهي في الثامنة عشرة لا أكثر . وسأعطيها ثلاثة دروس في الأسبوع . وتصور يا جو . . . عن كل درس خمسة ريالات . وما يهمني الأمر البتة ، فعندما أستزيد تلميذاتي اثنتين أو ثلاثة أخريات ، سأستأنف دروسي مع الهرروزنستوك . والآن حل عنك هذا القطوب يا عزيزي ودعنا نستمتع بالعشاء » .

قال جو وهو يغزو علبة البازلاء المحفوظة بسكين تحت مطرقة :

– « لا بأس في هذا من ناحيتك ، ولكن ماذا يكون من أمري أنا ، هل تحسبينني أتركك تجاهدين للقوت وأنا أحلق لاهيا في سماء الفن ؟ كلا وعظام بنفنيوتوسلينى! أظنني قادراً على كسب ريال أو ريالين كل يوم من بيع الصحف أو رصف الطريق » .

فقامت ديليا فتعلقت بعنقه قائلة :

– « جو يا حبيبي انك أحمق . يجب أن تظل في مرسمك . لا تحسبني سأهجر موسيقاي وأشتغل في عمل آخر ، ولكني سأتعلم وأنا أعلم . إنني مع موسيقاي على الدوام ، وسنستطيع أن نعيش في بحبوحة أصحاب الملايين على خمسة عشر ريالا في الأسبوع ، فلا تفكر في ترك السيد ماجستير » .

قال جو وهو يتناول صحن الجنبري والخضر : « ليكن وان كنت أكره لك إعطاء الدروس ، فما فيه من فن ، وهذا لا يمنع أن عملك هذا آية في اللطف والشهامة! »

قالت ديليا : « إذا أحب المرء فنه فما من عمل يشق عليه فيه » .

وقال جو : « إن ماجستير قد أثنى على ألوان السماء في تلك اللوحة التي رسمتها في المتنزه العام . وقد رخص لي تنكل أن أعلق لوحتين في معرضه ، وقد أبيع واحدة منهما ، إذا رآها أبله ثري من النوع المناسب! »

قالت ديليا بنعومة : « ذلك ما أنا على يقين منه ، فدعنا الآن نقم بواجب الشكر للجنرال بكنى وشواء الكندوز! »

وخلال أيام الأسبوع التالي كلها بكر آل لارابى في الافطار ، فقد كان جو متلهفا على رسم بعض مناظر الصبح بالمتنزه الكبير ، وكان على ديليا أن تهيئه للخروج في السابعة ، بطينا مدللا مغمورا بالثناء والقبلات . وكانت السابعة في المساء موعد عودته في أكثر الأيام .

وفي نهاية الأسبوع رمت ديليا رمية الظافر ، وبشيء من الزهو الحلو المشوب بالوهن ، ثلاث أوراق مالية من فئة الخمسة الريالات ، على المائدة ذات الثماني البوصات في العشر ، والقائمة في وسط البهو العاري ذي الثمانية الأقدام في العشرة . ثم قالت في كلال :

– « إن كليمنتينا تضنيني أحياناً ، وأخشى أن تكون قليلة التمرن ، فإني أضطر إلى إعادة نفس الشيء لها عدة مرات ، ثم هي لا تفتأ تلبس الأبيض من الفرع إلى القدم ، فيؤدي ذلك إلى ملالة الشيء الرتيب . بيد أن الجنرال بكنى ألطف عجوز ، وكم أود لو أنك عرفته يا جو ، انه يوافينا أحيانا ونحن على البيان – وهو أرمل كما تعلم – فيقف بجوارنا يشد عثنونه الابيض ، ويتساءل على الدوام : وكيف حال النغمات والارباع والاثمان ؟ »

« وليتك ترى هذا الكنار الخشبي في غرفة الاستقبال يا جو والستائر الاستراخانية على الأبواب . ان كليمنتينا تسعل سعلة رقيقة مضحكة ، وآمل أن تكون أقوى مما تبدو . لقد بدأت في الحق أتعلق بها ، فانها الرقة مجسمة والتربية في أسمى طراز . ولقد كان أخو الجنرال بكنى يوما ما سفيرا لبوليفيا! »

وأخرج جو من جيبه أربع ورقات مالية غضة أصيلة ، واحدة عشرة ، والثانية بخمسة ، والثالثة بريالين والرابعة بريال ، أخرجها كما لو أنه الكونت مونت كريستو ، وضعها بجوار أوراق ديليا وقال في حماسة : « لقد بعت لوحة المسلة ذات الألوان المائية لرجل من بيوريا » .

قالت ديليا : « لا تسخر مني . لا يمكن أن يكون من بيوريا! »

– « منها من الرأس إلى القدم . ليتك رأيته يا ديل . رجل بدين بوشاح من الصوف ، ودبابيس أسنان من الريش . رأى اللوحة في

معرض تنكل ، وظنها لأول وهلة طاحونة هواء ، ومع ذلك فقد أقدم واشتراها على أية حال ، وطلب مني أن أرسم له لوحة زيتية أخرى لمخازن لاكوانا الجمركية ، ليأخذها معه وهو عائد إلى وطنه . . . دروس موسيقية! هيه! أظن الفن ما زال خفاق اللواء ؟ »

قالت ديليا في اخلاص : كم أنا فرحة بمضيك قدما ، انك لخليق بالفوز أيها الحبيب . ثلاثة وثلاثون ريالا . هذه ثروة لم نملك مثلها من قبل . سنأكل الليلة الجندوفلى!

قال جو : وفليتو بالشمبنيون . أين ملقاط الزيتون ؟

***

وفي مساء السبت التالي سبقها جو في الوصول إلى البيت ، فنشر ريالاته الثمانية عشر على المائدة ، وغسل ما بدا على يديه كمقدار مائل من الصباغ الأسود .

ووصلت ديليا بعد نصف ساعة ، ويدها اليمنى ملفوفة في حزمة من الخرق والأربطة .

وسألها جو بعد التحية المألوفة : ماذا حدث ؟

فضحكت ديليا ولكن دون ابتهاج كبير ثم أجابت :

– لقد صممت كليمنتينا على أن تأكل قرصا بالجبن مقلية بعد الدرس . انها لفتاة غريبة الاطوار . قرص مقلية في الخامسة بعد الظهر . وكان الجنرال هناك ، وليتك رأيته يا جو وهو يهرع إلى المقلاة كأن البيت ليس فيه خادم واحد . وكنت أعرف أن كليمنتينا متوعكة مستوفزة الأعصاب . وبينما أقدم لها القرص أراقت على يدي ومعصمي مقدارا كبيرا من الزيت وهو في درجة الغليان . وأي ألم أحسسته يا جو! لقد عبرت الفتاة الغالية عن أسفها الشديد! ولكن الجنرال بكنى ، هذا الشيخ العجوز ، لقد كان يصاب بذهول ، وهبط السلم قفزا فأرسل أحدا ما قيل أنه الفران ، أو لعله شخص آخر في الطابق الأرضي ، إلى صيدلية ليحضر بعض الزيت وأدوات للتضميد ، وقد هدأ ألم الحرق نوعا ما الآن .

وأمسك جو يدها برفق ، وأخذ ينسل بعض الخيوط البيضاء من تحت الضماد ، ثم قال : « ما هذا ؟ »

قالت ديليا : « هذا شيء ناعم نقع في الزيت » ورأت المال على المائدة فقالت : « هل بعت لوحة أخرى يا جو ؟ »

قال جو : « أتظنين ؟ سلى الرجل القادم من بيوريا ، لقد حصل على مخزنه الجمركي اليوم ، وكان مترددا في طلب لوحة أخرى لمنظر على نهر الهدسون . متى حرقت يدك بعد ظهر اليوم يا ديليا ؟ »

قالت ديليا في شجن : « أظن الساعة كانت الخامسة . إن المكواة - أعني القرص المقلية خرجت من النار حول ذلك الوقت . ليتك رأيت الجنرال بكنى يا جو وهو . . . »

قال جو : « اجلسي هنا هنيهة يا ديل » وأجلسها على الكنبة ، وجلس بجوارها ، محيطا كتفيها بذراعه ثم سأل :

- ما الذي كنت تصنعين في الأسبوعين الماضيين يا ديل ؟

وواجهت السؤال بشجاعة لحظة أو لحظتين ، وبعين ممتلئة بالحب والكلال ، وغمغمت جملة أو جملتين عن الجنرال بكنى ، ولكنها سرعان ما طأطأت رأسها ، وانفجرت عن فمها وعينيها الحقيقة والدموع .

وراحت تعترف : « لم أستطع أن أحصل على تلاميذ ، ولم أطق أن أراك تتخلى عن دروسك ، فحصلت على عمل لكي القمصان في تلك المغسلة الضخمة بالشارع الرابع والعشرين ، وأحسبني نجحت في اختراع الجنرال بكنى وكليمنتينا . ألا تظن ذلك يا جو ؟ وعندما وضعت فتاة في المغسلة مكواة محماة على يدي بعد ظهر اليوم ، قضيت الطريق كله في عودتي أزيف قصة القرص المقلية!! انك لست غاضباً مني يا جو ؟ أليس كذلك ؟ إني لو لم أحصل على هذا العمل فلربما كنت فشلت أنت في بيع لوحاتك لهذا الرجل القادم من بيوريا » .

قال جو في تؤدة :

- إنه لم يكن من بيوريا!

- وماذا يهم من أين جاء ؟ ما أذكاك يا جو! قبلني ، وقل لي ماذا أرابك من دروسي الموسيقية لكيمنتينا ؟

وأجاب جو :

- ما خامرني شك سوى الليلة ، ولقد كنت حريا ألا أشك في شيء ، لولا أنني أنا الذي أرسلت هذه النفايات من القطن والزيت ، من غرفة الآلات هذا الأصيل ، لفتاة في طابق علوي حرقت يدها مكواة . لقد كنت وقادا لهذه الآلات خلال الأسبوعين الماضيين!

- كأنك لم . . . ؟

- إن عميلي القادم من بيوريا ، هو والجنرال بكنى ، كلاهما منكرات لفن واحد ، ومن العسير أن تلحقي هذا الفن بالموسيقى أو بالتصوير!!

وضحك كلاهما ثم قال جو : عندما يهوى المرء فنه فما من . . . ؟

ولكن ديليا أوقفت بيدها مجرى الألفاظ من شفتيه وقالت :

- كلا . . . لا يحدث ذلك إلا في الحب »

احكام الطبيعة

رأيت في أحد المعارض أول من أمس صورة بيعت بخمسة آلاف ريال . وكان مصورها شابا تافها قدم من الغرب ، يدعى كرافت ، له طعام مختار ونظرية محبوبة : فأما طعامه فايمان طاغ بأن للطبيعة احكاما فنيا لا يخطئ ، وأما نظريته فتدور حول اللحم المملح بالبطاطس والبيض المسلوق . وكان وراء هذه الصورة قصة ، فعدت إلى البيت ، وتركتها تقطر من القلم . إن كرافت هو صاحب الفكر . . ولكن هذا ليس بداية القصة :

***

منذ ثلاثة أعوام كنا - كرافت وبل جادكنز الشاعر وأنا - نأكل كل أكلاتنا في مطعم سايفر بالشارع الثامن ، فإذا كان معنا نقود «ابتزها» منا سايفر كما كان يحلو له أن يقول ، وإلا دخلنا وطلبنا الطعام وأكلنا ودفعنا أو لم ندفع . وعلى الرغم من ثقتنا بفظاظة سايفر ، وشدته المتناهية ، فقد كنا نؤمن بأن في قرارة نفسه واحدا من ثلاثة : أميرا ، أو مجنونا ، أو فنانا! . كان يجلس إلى درج خشبي مسوس مغطى بأكوام من فواتير الخدم القديمة ، أعتقد أن السفلى منها لابد أن تكون فاتورة الجنبري الذي أكله هنريك هدسون ودفع ثمنه . وكانت لسايفر قدرة ، يشاطر فيها نابليون الثالث والسمك ذا المنظار ، على

تغشية عينيه بغشاء قاتم يحول بين نافذتي روحه وبين النور . وحدث ذات مرة أن أكلنا وتركنا له تلا من الاعذار بدل النقود ، وتلفت خلفي فوجدته يترنح من ضحك لا يسمع خلف نظارته السوداء . بيد اننا كنا ندفع بين الحين والحين ما يتراكم علينا من ديون .

على أن الشيء الجوهري في مطعم سايفر كان «مللي» . وكانت مللي نادلة في المطعم ، تعد مثلا رائعا على نظرية كرافت في الاحكام الفني للطبيعة ، فقد خلقت لهذه المهنة ، كما خلقت منيرفا لفن الحرب ، وفينوس لعلم الغزل العنيف . ولو أنها صبت من برونز ووضعت على قاعدة تمثال ، لوقفت مرفوعة الرأس بجوار أشد أخواتها البطلات عراقة رمزا «للكبد ولحم الخنزير في خدمة العالم» . وقد خلقت لمطعم سايفر دون سواه ، وانك لتتوقع رؤية شبحها في كل لحظة يشرق من بين سحب البخار المتصاعد من مقالي الزيت ، كما تتوقع رؤية الصخور على ضفاف نهر الهدسون من خلال سحب الضباب ، وبين قتار الخضر وبخار أطنان من لحم الخنزير وما يصحبه ، وصليل الشوك والملاعق والسكاكين ، وصياح الطلبات ، وصراخ الجياع ، وصخب الناس الكريه وهم يأكلون ، وما يحيط بذلك من طنين الوحوش المجنحة التي ورثناها عن الفراعين ، كانت مللي تشق طريقها الرائع كباخرة عظيمة تمخر العباب بين زوارق المتوحشين الصارخين .

كانت آلهتنا هذه – الهة الطعام – مخلوقة على طراز من الروعة والفخامة ، دون محاكاته أهوال . وكانت تشمر أكمامها إلى ما فوق مرفقيها على الدوام . وكان باستطاعتها أن تمسك بنا نحن الفرسان الثلاثة في يديها ، وتقذف بنا من النافذة إلى عرض الطريق . وبرغم أنها كانت تصغرنا جميعا في السن ، فقد كانت من البساطة والأنوثة بحيث عاملتنا كأم منذ البداية . ومخازن القوت عند سايفر صبت علينا ميازيبها بسخاء ملكي لا يكترث بثمن أو مقدار ، كأن بيديها قرن الخصب الذي لا يعرف الفناء . وكان صوتها يرن كجرس فضي عظيم ، وابتساماتها المتواترة تنجلي عن عدد كبير من الأسنان ، وكأنها مطلع

الشمس على قمم الجبال ، وما رأيتها مرة قط إلا ذكرت وادي اليوسوميت في كاليفورنيا ، ولكني مع ذلك ولأمر ما لم أكن أستطيع أن أتصورها إلا في مطعم سايفر ، ولا يمكن أن تحيا في أي مكان سواه . ان الطبيعة زرعتها هناك ، فثبت أصلها في الأرض ، وشمخت فروعها في السماء . ولقد بدت عليها السعادة حتى لتقبض دولاراتها القلائل مساء السبت من كل أسبوع بابتهاج الطفل الذي يتلقى هبة لم تكن له في حساب .

وكان كرافت أول من عبر عن الخوف الكامن الذي خامرنا جميعا منذ حين ، وجاء هذا التعبير عفوا بالطبع خلال حديث كنا نتجاذب أطرافه في عالم الفنون ، وقارن واحد منا انسجام سيمفونية هايدن مع « دندرمة » القشدة والفستق بالانسجام العجيب الكائن بين مللي ومطعم سايفر .

وقال كرافت :

– « إن ثمة قدرا ما معلقا فوق رأس مللي ، فإذا وقع عليها فقد ضاعت منا ومن سايفر! »

وتساءل جاد كنز في خوف!

« أتراها تسمن ؟ »

وقاطعت في قلق :

« ألعلها تذهب إلى مدرسة ليلية فتتثقف وتسمو على حياتها الحاضرة ؟ »

قال كرافت وهو يلعب بسبابته في بركة من القوة المراقة :

« الذي أعنيه ما يأتي : لقد ابتلى قيصر ببروتس ، والقطن بالدودة ، والمغنية بالخمر ، ومطلع الصيف بمنبت العشب السام ، والبطولة بنوط كارنيجى ، والفن بمورجان ، والورد بـ . . . »

وقاطعته بقلق أشد :

« تكلم . . لعلك لا تعني أن مللي ستبدأ في التطريز ؟ »

وقال كرافت بهدوء :

« سيأتي يوماً ما إلى سايفر قاطع أخشاب من أصحاب الملايين في ويسكونسن يطلب طبقاً من الفول ، وسيتزوج مللي »

وصحنا جاد كنز وأنا في فزع : « محال! »

وأعاد كرافت في جفوة : « قاطع أخشاب »

وتنهدت يائسا : « وقاطع أخشاب من أصحاب الملايين! »

وزمجر جاد كنز : « ومن ويسكونسن . . ! »

واتفقنا جميعاً على أن هذا القدر المرعب يهددها ، وقل من الأشياء ما كان أدنى من ذلك إلى الاحتمال . فان مللي في قيامها كالغابة البكر الشاسعة من غابات الصنوبر ، خليقة بأن تسبى عين قاطع أخشاب . ثم نحن لم نكن نجهل عادات هؤلاء الوحوش عندما ينهل عليهم الثراء . انهم يطفرون رأسا إلى نيويورك ، فيضعون كل ما يملكون تحت أقدام أول فتاة تقدم لهم الطبق في مطعم فول! ولم لا ، وصحف الأحد لم تضع عناوينها الكبرى إلا لأمثالهم :

« مضيفة حسناء تظفر بقاطع أخشاب مليونير » .

وظللنا حينا نشعر بأن مللي على وشك الضياع منا .

وكان يؤجج فينا هذا الشعور حبنا للطبيعة وأحكامها الفني الذي لا يخطئ ، فما كان في استطاعتنا أن ننزل عن مللي لخشاب ملعون لعنتين : لعنة الغنى ، ولعنة الجهالة! وكنا نحس رعدة كلما تصورناها في صوتها العذب ، واكمامها المرسلة ، تصب الشاي في خيمة قاطع أشجار ، كلا! انها تنتمي إلى سايفر وإلى قتار اللحم ، وعطر الكرنب ، والالحان الشجية الفخمة لرنين الأطباق ، وصليل السكاكين ، وجلجلة الموائد .

وكأنما كانت مخاوفنا من مخاوف الانبياء ، ففي تلك الليلة بالذات قذفت علينا البرارى الرجل الذي حسبنا المقادير عينته لمصادرة مللي ، أي لمصادرة نظرياتنا في الاحكام والنظام ، وأن كانت آلسكا هي التي تحملت عن ويسكونسن عبء توريد الزائر!

وكنا نتعشى على اللحم والتفاح المجفف عندما خب إلى القاعة ،

كأنه يجري في أعقاب صف من الكلاب ، فيتعثر بمائدتنا ، ثم يقرع آذاننا بحرية ساكن الخيام ، زاعماً أنه عرف رجالاً ضاعوا في بيوت من الطين . واحتفينا به حفاوتنا بنموذج فذ ، وفي خلال ثلاث دقائق أصبحنا كأعز الأصدقاء .

كان فظا ملتحيا مغضن الوجه ، وقد وصل لتوه من القطار كما قال ، وتصورت كأني أرى أفواج ثلج آلسكا مازالت على منكبيه . ثم راح يغطى المائدة بقطع من الكعك والطير المحنط ، وعقود الخرز وجلد عجل البحر ، ويلغط بملايينه ، التي قدرها « بمليونين » يضاف إليها كل يوم ألف من حصيلة الزمامات . ثم قال :

– « والآن أريد بعضاً من اللحم والخوخ المحفوظ . إنني لم أبرح القطار منذ بدأت رحلتي ، وقد عضني الجوع ، فإن الطعام الذي يقدمه لك الزنوج في البولمان لا يسمن من جوع ، اطلبوا أيها السادة ما يحلو لكم من الطعام » . . .

وأشرقت طلعة مللي وعلى ذراعها العاري ألوف من الأطباق . أشرقت في ضخامة ، وبياض بحمرة ، وفخامة كفخامة جبل القديس الياس ، وابتسامة كمطلع الفجر في واد عميق . ورمى الرجل ما كان بيده من التحف والجلود كأنها زبالة ، ودلى فكه وحملق فيها حتى كدنا نتخيل تيجان الألماس على جبين مللي ، ونراها ترفل في حلل الديباج الباريسية الموشاة!!

وفي النهاية غزت الدودة القطن ، وزحفت فروع العشب السام (على مطلع الصيف) ، وكاد المليونير الخشاب – المتنكر في ثياب صاحب منجم في آلسكا – يلتهم مللي ، ويقلب الاحكام الطبيعي رأساً على عقب .

وكان كرافت أول من شرع في اتخاذ اجراءات ، فقد نهض ، وصفق ظهر الرجل ، وصاح :

– « تعال ، ولنشرب . . أشرب أولا ثم كل بعد ذلك »

وأمسك جادكنز بأحد ذراعيه وأمسكت بالآخر ، وسقناه في مرح ،

وصخب ، وبلا فرصة للمقاومة ، كالأصدقاء الحميمين المبتهجين ، من المطعم إلى مقهى ، بعد أن ملأنا جيوبه بطيوره المحنطة وكعكه الذي لا يهضم .

وراح يهدر محتجا ولكن في روح طيبة ، ويقول :

« هذه هي الفتاة التي تليق بغناي! سأدعها تأكل من مقلاتي ما عاشت . ولم لا وعيني لم تقع على أجمل منها من قبل! سأعود وأطلب يدها للزواج! وأظنها لن تعود إلى حمل هذا الغثاء عندما ترى ما أمتلك من أكوام التبر » .

وقال كرافت مغرياً إياه بابتسامة شيطان :

« خذ كأساً أخرى من الويسكي باللبن! لقد كنت أحسبكم أهل الريف أعمق روحا رياضية »

ونفد في البار ما كان مع كرافت من مال ضئيل ، فراح يرسل إلي والى جادكنز من عينيه اشارات استغاثة ، حتى أنفقنا آخر دانق معنا في تساقي الانخاب مع الضيف .

وعندما فرغت ذخيرتنا ، ورأينا الرجل ما فتئ ممتلكا بعض وعيه ، لاغطا بمللي من جديد ، همس كرافت في أذنه بسبة مسمومة مهذبة لأولئك البخلاء الذين يكتنزون أموالهم بشح ، فراح الرجل يقذف حفنة بعد حفنة من الفضة والورق ، ويطلب كل ما في الدنيا من خمور ، حتى يدفع عن نفسه هذا الاتهام .

وتم المراد ، واستطعنا بسلاحه هو أن نطرده من الميدان ، ثم بعثناه محمولا على عربة إلى فندق بعيد ، حيث ألقى في السرير مع كعكه ، وتحفه المصنوعة من جلد عجل البحر الصغير!

وقال كرافت :

« إنه لن يعرف طريقه إلى سايفر مرة أخرى ، وسيخطب غدا أول فوطة بيضاء تقع عليها عينه ، في أي مطعم لبن . وهكذا تنجو مللي . . أعني احكام الطبيعة! »

وعدنا إلى سايفر نحن الثلاثة ، ورأينا قلة الرواد ، فشبكنا أيدينا في حلقة ، جعلنا مللي مركزها ، ورحنا نرقص رقصة هندية .

حدث هذا كله كما قلت آنفاً منذ ثلاثة أعوام . وحوالي هذا الوقت هبت علينا نحن الثلاثة نسمة من الحظ الطيب ، واستطعنا أن نأكل طعاماً أغلى من طعام سايفر وان كان أقل جودة ، وضرب بيننا الدهر ، فلم أعد أرى كرافت البتة ، ولم أعد أرى جادكنز إلا لماما .

ولكني رأيت بالأمس كما قلت من قبل صورة بيعت بخمسة آلاف ريال ، وكان عنوانها «الملكة الثائرة» ، وكان المنظر الذي أخذت فيه الصورة في الخلاء . ولكن من بين كل المعجبين الذين وقفوا أمام الصورة مفتتنين بها ، أعتقد أني كنت الوحيد الذي شاقه أن تقفز الملكة الثائرة من اطارها وتحضر لي طبقاً من اللحم والبطاطس والبيض المسلوق .

وحثثت خطاي نحو كرافت ، فوجدت أعينه الشيطانية ما فتئت كما كانت ، وشعره أشد تشعثا مما كان ، ولكن ثيابه خارجة من يدي خياط!!

وقلت له :

«ما كنت أعلم»

قال :

«لقد اشترينا بثمن الصورة بيتاً في برونكس ، وتستطيع أن تزورنا في السابعة من أي مساء»

قلت :

«إذن لم يكن تأليبك لنا على قاطع الأخشاب الألاسكى ، لم يكن مرده كله إلى الاحكام الفني للطبيعة الذي لا يخطئ ؟»

قال كرافت في عبوس :

«أجل لم يكن له كذلك»!!

من مقعد السائق

إن «لعربجي الحنطور» وجهة نظر ، لعلها أشد من مثلها في أية مهنة أخرى ، وحدة في الهدف ، فهو ينظر من مقعده المتأرجح العالي إلى اخوانه في البشرية ، نظرته إلى الهباء المنثور ، لا قيمة له إلا بمقدار ما يتسلط عليه من شهوات الطواف والانتقال . انه سائق وأنت بضاعة ليس إلا! لتكن رئيس الجمهورية أو صعلوكا من الصعاليك ، فأنت لست في نظره إلا حملا ، يتسلمك من مكان ثم يفرقع بسوطه ويدق عظامك ، ويسلمك إلى آخر .

وإذا جاء دور الدفع ، وبدر منك ما يدل على معرفتك بتسعيرة الاجور ، أدركت المقصود من كلمات الزراية والاحتقار ، واذا وجدت في هذه الأحوال أنك نسيت دفتر مذكراتك في العربة ، وعدت لتأخذه ، أشعرك بتفاهة خيال دانتى عن الجحيم!!

وليس من النظريات السفيهة أن هذا السائق يستمد وحدة الهدف وتركيز نظرته إلى الحياة من التركيب الخاص للمركبة . فديك الحظيرة هذا يجلس كأنه أبو الآلهة في مقعد عال لا يشاطره فيه أحد ، ممسكا بمصيرك بين عنانين من الجلد المتموج ، وتجلس أنت كالفأر الواقع في مصيدة ، مضحكا ، سجينا ، معدوم الحيلة ، معتزا كملك الارجواز . . . أنت يا من كان الخدم يتزلفون إليك على الأرض الصلبة! ولكي تعلن عن

رغباتك الهزيلة يجب أن تمد عنقك إلى أعلى ، وتصرخ بما تريد خلال كوة ضيقة في سقف تابوتك الهزاز .

فأنت في الحنطور لست نزيلا ولكنك مجرد «محتويات» . . أنت شحنة في سفينة ، والملاك الجالس في الأعالي - البحار القدسي الأعظم - يعرف عنوانك عن ظهر قلب» .

وحدث ذات ليلة أن تصاعدت أصوات القصفْ والمرح من العمارة الكبيرة ، المبنية بالآجر ، التي لا يفصلها إلا باب واحد عن مقهى ماك جراي للعائلات . وبدا أن هذه الأصوات كان مصدرها مسكن آل وولش . وكان الطريق الجانبي الذي تطل عليه العمارة يعج بأشتات ممن استهواهم الحفل من الجيران ، يفتحون بينهم طريقا بين الحين والحين لرسول يحمل من بضائع ماك جراي ما يقتضيه المرح والسرور ، وكان أولئك المتجمهرون يتجاذبون أطراف الحديث دون أن يحاولوا استجلاء ما وراء هذه الوليمة من زفاف نورا وولش .

وفي الموعد المضروب تدفق المحتفلون إلى الشارع ، فأحاط بهم الضيوف غير المدعوين وتخللوهم ، ومزقت سكينة الليل صيحات الفرح والتهاني والضحكات ، والجلبة المشوشة التي بعثتها قرابين ماك جراي في هيكل الزفاف .

ووقفت بجوار الطوار عربة جيرى اودونوفان ، وكان يدعى بصقر الليل . وما من عربة قط مثل نظافة عربته ولمعانها ، غلقت أبوابها على طاقة بنفسج وعروس في ثوب الزفاف . وحصان جيرى ، وياله من حصان! إنني لا أتجاوز الواقع إذا قلت لكم أنه كان متخوما بالقرطم إلى الحد لو رأته عجوز من أولئك العجائز اللائي يتركن أطباقهن دون غسيل ، ويهرعن إلى الطريق ليغازلن صبيان المحال . . لابتسمت ، ابتسمت نعم ، عند رؤيتها إياه .

ومن خلال الحشد المتحرك النابض الصارخ ، كان يمكن رؤية قبعة جيرى العالية التي هلهلتها الرياح والأمطار عدة سنين ، وأنفه الشبيه بجزرة تحيفها الرياضيون المتأنقون من ذرية أصحاب الملايين والمتمردين

من الركاب . وسترته الخضراء ذات الأزرار النحاسية التي كانت موضع اعجاب جيران ماك جراي . وكان من الواضح أن جيرى يتهيأ لممارسة مهنته ، وليحمل « شحنة » ، بل ان هذه الصورة يمكن التوسع فيها ، وتشبيه مركبته في هذه الحالة بعربة خبز ، إذا قبلت شهادة ذلك الشاهد الشاب الذي قال أن جيرى كان « يحمل بلحة من بلح الشام »!

ومن بقعة ما وسط الزحام ، أو من بين المشاة على حواشيه ، اندفعت فتاة شابة فوقفت بجوار المركبة ، فتنبهت أعين جيرى - صقر الليل - المدربة ، لهذه الحركة ، فأدار العربة ، دورة ، قلبت ثلاثة أو أربعة من النظارة ، وكاد ينقلب فيها هو نفسه ، لولا أن ثبت قدمه في محبس صنبور حريق في الجدار . وصعد إلى مقعده الرسمي زاحفاً زحف الملاح على سارية سفينته في بحر عاصف ، ولم يكد يستقر به ، حتى تحيرت فيه حميا ماك جراي ، فقد راح يتأرجح هادئا على مؤخرة زورقه كما يرفرف العلم الصاعد على ساريته فوق ناطحة سحاب . وقال جيرى وهو يقبض على أعنة جواده :

« ادخلي يا سيدتي »

ودخلت السيدة وانصفق عليها الباب ، وفرقع الصوت في الهواء ، وتفرق الجمهور ، ومضت العربة في طريقها قدما تذرع المدينة .

ولم يكد الحصان المتخوم بالقرطم يستجمع قواه للركض ، ويتغلب على حرونه الأول حتى فتح جيرى كوة العربة ، ونادى السيدة في صوت كصوت مكبر الصوت المشروخ ، حاول أن يتلطف فيه ما يستطيع :

« إلى أين تريدين الذهاب ؟ »

وجاء الجواب رخيما مشبعا بالرضى :

« حيثما شئت »

وقال جيرى لنفسه :

« إنها نزهة إذن »

ثم اقترح عليها كأمر واقع :

« قومي بدورة حول المتنزه العام يا سيدتي ، واستمتعي بنسيمه البارد اللطيف »

وقالت الراكبة في انشراح :

« كما تريد »

وسارت العربة نحو الافينو الخامس ، فقطعت هذا الطريق الجميل مسرعة ، وجيرى في مقعده يتأرجح مزهوا ، ولكن حميا ماك جراي ما لبثت أن تقلقت في بطنه وأرسلت إلى رأسه مددا جديدا من الأبخرة ، فراح يغني أغنية قديمة ويلوح بسوطه كأنه عصا فنانٌ .

وجلست الراكبة على وسائد المركبة منتصبة القامة ، ناظرة إلى الأبنية والمصابيح على اليمين والشمال ، وسطعت عيناها حتى داخل المركبة المظلمة كنجمتين في الشفق .

وعندما وصلا إلى الشارع التاسع والخمسين كان رأس جيرى يدور ، وأعنته تسترخي ، ولكن الجواد لف ودخل باب المتنزه ، وبدأ طوافه الليلي المألوف ، وعندئذ استلقت الراكبة على مسند الظهر مفتونة ، وراحت تتنسم الأريج النقي الحلو المتصاعد من الأعشاب والأوراق والزهور . ولما كان الحيوان الحكيم المثبت في عريش المركبة مدركا لالتزاماته ، فقد طامن من خطوه إلى الحد المطلوب ، والتزم الجانب الأيمن من الطريق .

وتغلب جيرى على ميله المتزايد للنعاس بقوة العادة ، وأزاح غطاء سفينته المترجرجة على أعراف الرياح ، وسأل السؤال الذي يسأله كل السائقين في المتنزه :

– « أتحبين الوقوف لحظة على الكازينو يا سيدتي ؟ انك تجدين فيه الشراب المنعش ، وتسمعين الموسيقى . كل إنسان يعرج عليه » .

قالت الراكبة :

« أظنه يسرني أن أفعل » .

ووقفوا على باب الكازينو ، وفتحت أبواب المركبة ، وقفزت الراكبة منها إلى أرض الكازينو رأسا ، فألفت نفسها ، واقعة في شباك موسيقى ساحرة ، مبهورة بمنظر خلاب من الأضواء والألوان . ووضع شخص ما في يدها بطاقة صغيرة مربعة مطبوع عليها رقم ٣٤ ، وألقت على ما

حولها نظرة فوجدت مركبتها على بعد عشرين متراً تأخذ مكانها بين صف من المركبات والعربات والسيارات ، ورأت راقصا عاري الجذع يتقهقر نحوها ، ثم أخذت فأجلست إلى مائدة صغيرة على سياج تسلقت عليه شجرة ياسمين .

وتجلى لها أن ثمة دعوة توجه إليها بلا كلمات لتطلب شيئا ما فاستفتت كيسا صغيرا معها به مجموعة من العملات الصغيرة ، فرخص لها أن تطلب كوبا من الجعة ، وجلست تتنسم وتمتص كل شيء من هذه الحياة الجديدة الألوان والمناظر عليها ، في هذا المكان الخيالي ، في تلك الغابة المسحورة .

وجلس على خمسين مائدة أمراء وملكات ، يرتدون أبهى ما في العالم من حرير ، ويتحلون بأجمل ما فيه من جواهر ، يلقى بعضهم نظرة فضول على عملية جيرى بين الحين والحين ، فيرون فيها شبحا ساذجا يرتدي ثوباً ورديا من ذلك النوع من الحرير الذي يطلق عليه من باب الأدب اسم الفولار ، ووجها ساذجا تشيع فيه نظرة حب للحياة حسدتها عليه الملكات .

ودار العقرب الكبير في الساعة دورتين وهي جالسة ، وراح عدد الملكات يتضاءل في عروشهن شيئا فشيئا ، منصرفات إلى مركباتهن الفخمة ، تحملهن وتمضي مقعقعة مدوية على قارعة الطريق ، وتهاوت الآلات الموسيقية إلى علبها المكسوة بالجلد المبطنة بالصوف ، وراح الخدم يزيلون مفارش الموائد من حولها ، وكأنما يقولون « اياك نعنى » للشبح الساذج الذي كاد يصبح وحيدا هناك .

ونهضت عميلة جيرى ، واقفة ، وأمسكت ببطاقتها المرموقة وقالت في بساطة :

« أثمة جديد وراء هذه البطاقة ؟ »

وأخبرها خادم انها بطاقة مركبتها ، وأن عليها أن تسلمها للرجل الواقف بالباب . وأخذها الرجل ونادى على الرقم ، وكان صف المركبات قد تضاءل إلى ثلاث فذهب أحدهم وأيقظ جيرى النائم في المركبة ،

فتدفقت اللعنات من فمه وصعد إلى منظرة القبطان ، وحرك سفينته إلى الميناء ودخلت عميلته وانسابت المركبة في مسالك المتنزه الباردة متخذة أقصر طريق .

وعندما وصل جيرى إلى باب المتنزه ، ومضت في عقله بارقة ادراك على صورة شك مباغت طاف بوعيه الغائم . وخطر في خاطره شيئان ، فأوقف الجواد ، ورفع غطاء الكوة ، ودلى صوته الآلي من فتحتها كأنه مطمار من الرصاص ، وقال :

- « أريد قبل أن أخطو خطوة أخرى أن أرى أربعة دولارات ، فهل معك النقود ؟ » وضحكت العميلة في نعومة وقالت :

« أربعة دولارات ؟ . . كلا وا أسفاه ؟ كل ما معي دوانق لا تتجاوز ربع ريال »!

وأغلق جيرى باب الكوة وألهب ظهر جواده المتخوم بالسوط . ورغم أن وقع حوافر الحصان غطى على صوت عربدته فانه لم يفرقه تماما ، وراحت اللعنات تتدافع من فمه صارخة ، مزبدة حانقة ، نحو السماء المتلألئة بالنجوم ، وأخذ صوته ينهال على المركبات المارة بجواره في لؤم ، وفمه يوزع الشتائم بذيئة مختلفة الألوان على كل شيء في الطريق ، حتى دارى وجهه حياء سائق عربة نقل كان عائداً إلى بيته ، فسمع بعض ما قال ، وكان جيرى يعرف إلى أي ملاذ يلجأ في هذه الأحوال ، فمضى إليه راكضاً جواده ما استطاع .

ووقف عند بناء يجلل مدخله النور الأخضر ، وفتح باب المركبة على مصراعيه ، وتهاوى إلى الأرض في تثاقل ، ثم صاح في جفاء :

- « هيا انزلي . . أنت! »

وهبطت عميلته وما فتئت على وجهها الساذج تلك الابتسامة الحالمة التي أشرقت عليه في الكازينو ، فقبض جيرى على ذراعها ، وقادها إلى مركز الشرطة . .!!

وقال جيرى في صوته الأحبش العامر بأنغام الشكاة والاستشهاد

« هذه يا شاويش راكبة لا . . . . »

ثم توقف عن الكلام ومسح بيد معروقة حمراء على جبينه ، وراح الضباب المنبعث من حميا ماك جراي ينقشع من عقله رويدا رويدا ، فاستأنف في وجوم :

«هذه راكبة يا شاويش أريد أن أقدمها إليك! إنها زوجتي التي تزوجتها الليلة في بيت أبيها وولش العجوز ، وفي الحق أننا قضينا برهة من الوقت عجيبة . . صافحي الشاويش يا نورا ، وهيا نرجع إلى البيت» . .!

وقبل أن تدخل نورا المركبة تنهدت من أعماق قلبها ، وقالت :

- «جيرى ، كم كنت سعيدة في هذه الساعات!»

الباب الأخضر

هب أنك كنت تتمشى في برودواى بعد العشاء ، ولديك عشر دقائق تستغرقها في تدخين سيجارك ، والمفاضلة بين شهود ذراعك ، فتلفت ، فوقع بصرك على عينين فتانتين في وجه امرأة حسناء ، تتحلى بالماس المتلألئ وتكتسي بالفراء الروسية ، ثم رأيتها تضع في يدك كعكة ساخنة . وتنتضى مقصا صغيرا تقتطع به من معطفك زراره الأوسط ، وتنطق بكلمة واحدة « متوازي أضلاع » ثم تهرول على عجل ، إلى شارع جانبي ، متطلعة إليك من فوق أكتافها بنظرات رهيبة!

لاشك أن هذه تكون مغامرة صريحة ، فهل تتقبلها ؟ كلا ، فما مثلك من يتقبل مثل هذه المغامرات!! ولعل وجهك يحمر من الضيق ، وقد ترمى الكعكة من يدك خائفا ، وتمضي قدما في برودواى ، تتحسس بخجل موضع الزرار المقطوع!! ذلك ما ستصنعه ، ما لم تكن واحدا من أولئك القلائل الموهوبين ، الذين لم تمت فيهم بعد روح المغامرة الخالصة .

إن المغامرين الاصلاء لم يكونوا كثرة في يوم من الأيام ، وأغلب من يقرأ عنهم على أنهم مغامرون ليسوا في الأكثر إلا رجال أعمال ، وفقوا إلى اختراع وسائل جديدة ، لإدراك ما كانوا يطمحون إليه من ذهب أو تصوف أو حب أو كنوز أو تيجان أو جاه . أما المغامر الأصيل فانه يمضي في طريقه بلا هدف ولا حساب ليلقى مصيره المجهول ، ويحييه ، ولعل أروع مثل له هو بطل هذه القصة .

وما أكثر انصاف المغامرين الذين يملأون العين شجاعة ومهابة ، فهم منذ أيام الحروب الصليبية إلى أيام رعاة البقر ، قد أخصبوا فنون التاريخ والقصص وتجارة الأساطير التاريخية ، ولكن كلا منهم كانت له جائزة يجري وراءها ، أو هدف يصيبه ، أو «بلطة» يشحذها أو سباق يسهم فيه ، أو رقم قياسي صغير يصبو إليه ، أو اسم يريد تخليده ، أو مشكل يطمع في حله . . وما من بينهم مغامر أصيل .

وفي هذه المدينة الكبرى قلما تجد الغرام والمغامرة التوأمين ، إلا خارجها باحثين عن عشاق أكفاء ، وان كانا لا يفتآن يرنوان إلينا خفية ونحن نتجول في الطرق ، ويتحديان أرواحنا بشتى الأساليب .

نرفع أبصارنا فجأة ودون وعي إلى نافذة ما ، فنجد فيها وجها كأنه من الوجوه الحبيبة إلينا ، أو نسمع في الزقاق النائم صرخة الألم والفزع من بيت موصد مهجور ، وبدلا من أن ينزلنا سائق المركبة إلى ملاذنا المألوف ، يقف بنا على باب غريب ، يفتحه لنا شخص يبتسم ويدعونا للدخول ، وربما تهاوت إلى أقدامنا الورقة المكتوبة نجد فيها موعدا مع الحظ السعيد ، وقد نتبادل لغير ما سبب نظرات المقت أو المحبة أو الذعر مع غرباء يسيرون في الزحام . ويسح المطر سحة فاذا تحت مظلتنا وجه ، كأن البدر أبوه ، وكأن بنى عمه الحور والولدان . وفي كل مكان نجد المغامرات التي تقع في أيدينا مهدرة ، أو موحشة ، أو مذهلة أو خفية ، أو مهلكة! ولكن القليل منا من يقتنصها ويتبعها ، فقد بلد احساسنا ما يلهب ظهورنا من سياط التقاليد ، وتمر بنا الأيام حتى نشرف على نهاية المطاف في حياة آسنة ، ونتلفت وراءنا فاذا كل نصيبنا من دنيا الغرام زوج كأب أو زواجان ، وتذكار في شارة من حرير مخبأ في درج مقفل ، ونضال مع المدفأة البخارية يطول ما طالت الحياة .

***

كان رودلف ستاينر مغامراً أصيلا ، وقلما مرت عليه ليلة لم يغادر فيها غرفته باحثا عما يهول ولا يتوقع ، وكان يخيل إليه أن أجمل شيء في الحياة قد يطالعه من وراء أول منعطف في الطريق . وكثيرا ما قادته

رغبته في مغازلة المقادير ، إلى أغرب المسالك . قضى الليل كله في احدى المحطات مرتين ، وطالما وجد نفسه ألعوبة في أيدي محتالين مرتزقة أذكياء! وأضاع ذات مرة ساعته ونقوده في مجازفة شاقة ، ولكن حماسته لم تفتر قط من التقاط كل قفاز ترميه في طريقه المغامرات الحلوة .

وذات مساء كان رودلف يتمشى في طريق بحي من الأحياء القديمة بالمدينة ، وقد امتلأ الطواران بسيلين من الناس ، سيل العائدين إلى منازلهم سراعا ، وذلك السيل القلق من تاركي منازلهم بحثا وراء الحفاوة الخداعة للمطاعم الرخيصة المتوهجة بالنور .

كان المغامر الشاب في مظهره الرائع ، يتمشى بوقار وانتباه ، ولقد كان يعمل نهاره بياعا في متجر للبيانو ، وكان يلبس ربطة عنق ، بدلا من أن يشبكها بدبوس أحاطها بحلقة من الكهرمان ، وكتب ذات مرة إلى محرر مجلة يقول له ان كتاب « محنة جيونى الغرامية » كان الكتاب الذي أثر في مجرى حياته!

وسمع من وراء صندوق زجاجي على الطوار صوت أسنان تصطك بعنف ، وخيل إليه لأول وهلة أن الصوت (الذي أحس له بغشيان في نفسه) قادم من المطعم الذي وضع أمامه الصندوق ، ولكن النظرة الثانية كشفت له عن الأحرف الكهربائية للافتة طبيب أسنان تعلو الباب التالي للمطعم ، وعن زنجي عملاق يرتدي معطفاً أحمر موشى بصور غريبة ، وبنطلونا أصفر ، وقلنسوة عسكرية ، يوزع بطاقات على أولئك الذين يتقبلونها من الجمهور .

وكانت هذه الطريقة من طرق الاعلان عن طبيب أسنان مألوفة لرودلف ، وكثيراً ما مر به دون أن ينقص شيئا من ذخيرته ، ولكن الزنجي في هذه الليلة دس بطاقة في يده بشيء من الدهاء لم يسعه معه إلا أن يستبقي البطاقة ، ويبتسم لبراعة صاحبها في التوزيع .

ولم يكد يسير بضع خطوات حتى نظر إلى البطاقة دون اكتراث ، فدهش لها ، وقلبها بين يديه ، فوجد أحد وجهيها أبيض ، وعلى الوجه الآخر كلمتان مكتوبتان بالحبر : « الباب الأخضر » ، وعندئذ وجد

رودلف على بعد ثلاث خطوات أمامه رجلا يرمي البطاقة التي أعطاها الزنجي له وهو مار ، فالتقطها رودلف ، فوجد اسم طبيب الأسنان مطبوعا عليها ، هو وعنوانه ، والصيغة المألوفة عن عمل الأطقم ، وتركيب الجسور والتيجان ، والوعود الفخمة بخلع الأضراس دون آلام .

ووقف بياع البيانو المغامر عند الناصية لحظة يفكر ، ثم عبر الشارع ، وارتد مسافة بناء واجتاز الشارع من جديد ، ومشى في غمرة الزحام حتى أتى الزنجي ، ودون أن يظهر أي مبالاة أخذ البطاقة التي قدمت إليه ، وراح يتفحصها بعد عشر خطوات ، فوجد مكتوباً عليها بنفس الخط الذي كتبت به البطاقة الأولى «الباب الأخضر» ، ووجد ثلاث بطاقات أو أربعا مبعثرة على الطوار متخلفة عن مارة يسبقونه أو يلونه في الطريق ، وكانت صفحاتها البيضاء هي الظاهرة ، فقلبها رودلف ، فوجد على كل منها الأسطورة المطبوعة عن عيادة طبيب الأسنان .

لقد كان من النادر أن تشير جنية المغامرة الداهية إلى رودلف ستانير ، تابعها الاصيل ، مرتين ، ولكنها في هذه المرة قد فعلت ذلك ، فبدأ البحث في الحال .

عاد رودلف بطيء الخطا إلى حيث وقف الزنجي العملاق ، بجوار الصندوق الذي ينبعث منه صوت اصطكاك الأسنان ، وفي هذه المرة لم يعطه الزنجي بطاقة . وعلى الرغم من الزي الصارخ المضحك الذي بدا فيه ، فقد تجلى عن الزنجي ترفعه الغريزى وهو واقف حيث وقف يمنح بطاقاته بلطف لمن يشاء ، ويمنعها عمن يشاء ، مترنما كل نصف دقيقة بهمهمة تشبه همهمة قاطع تذاكر الاوتوبيس أو مغنى الأوبرا . وهو لم يضن على رودلف ببطاقة في هذه المرة وحسب ، ولكن خيل لرودلف انه يتلقى من هذا المحيا اللامع الحالك السواد نظرة باردة من نظرات الازدراء .

وأحس المغامر لهذه النظرة بلسعة ، فقد قرأ فيها اتهاما صامتا بالعجز . لقد اصطفاه الزنجي من بين الجمع الزاخر مرتين لتلقى الرسالة التي تنطوي عليها البطاقتان ايا كانت معانيهما الخفية ، وها هو ذا يحكم على روحه وذكائه بالقصور عن حمل هذا اللغز .

ووقف الشاب بنجوة من الزحام يزن بنظرة سريعة البناء الذي أدرك أنه مثوى المغامرة المتوقعة ، فوجده يتعالى إلى خمسة طباق ، فوق طابق أرضي يشغله مطعم صغير .

وبدا أن الطابق الأول - وكان مغلقا حينئذ - يحتله متجر لقبعات السيدات أو فرائهن ، وكان الطابق الثاني عيادة طبيب الأسنان ، كما بدا من الأحرف الكهربائية المضيئة . ومن فوق هذا الطابق ظهر خليط مشوش من اللوحات في عدة لغات ، يعلن عن عرافين وخياطين وموسيقيين وأطباء ، وأعلى من ذلك ظهرت الستائر المزركشة وقوارير اللبن البيضاء على أعتاب النوافذ ، لتنبئ عن مواطن السكنى في البناء .

وبعد أن انتهى رودلف من هذا التحري اندفع إلى السلم الحجري يصعده وثبا إلى داخل البناء ، ثم اجتاز طابقين على الدرج المكسو بالبساط ، ثم وقف على بسطة الثالث فوجد الممشى المؤدى إلى الردهة ينيره قنديلان ضئيلان من قناديل الغاز ، أحدهما وأبعدهما على يمينه وثانيهما وأقربهما على اليسار ، فتطلع نحو القنديل القريب ورأى تحت هالة نوره الشاحب بابا أخضر . وتردد لحظة خيل إليه فيها أنه يرى لمحة الاستهزاء الساخرة منه على وجه الزنجي موزع البطاقات ، فاندفع إلى الباب الأخضر ، ونقر عليه .

ومثل هذه اللحظات التي مرت عليه في انتظار الجواب ، تحدد ماتنجاب عنه المغامرة الاصيلة من تدافع الأنفاس ، فأي هول يستحيل خلف هذه الألواح الزجاجية الخضراء ؟ ألا يمكن أن يكون وراءها مقامرون يلعبون ، أو محتالون يتأنقون في وضع الطعم داخل الختل والخداع ، أو جمال تسبيه الشجاعة فيضع من الخطط ما يجذبها إليه ، أو خطر ، أو موت ، أو غرام ، أو يأس ، أو سخرية ؟ . . ان أي شيء من هذه الأشياء قد يستجيب لنقرة المجازف على الباب .

وسمعت من وراء الباب خشخشة ضئيلة ، تلاها انفتاح الباب ببطء عن فتاة دون العشرين ، ممتقعة اللون ، متهالكة ، لم تلبث أن تراخت قبضتها على أكرة الباب ، وترنحت أعياء . فمدت إحدى يديها تتلمس

العون ، وتلقاها رودلف ، وأرقدها على كنبة رثة بجوار الجدار . ثم أغلق الباب ، وألقى نظرة سريعة على الحجرة تحت ضوء ذبالة راقصة في مصباح من مصابيح الغاز ، وارتد إليه بصره حاملا قصة فقر مدقع ، ولكنه نظيف .

ورقدت الفتاة هامدة كأنها في غاشية اغماء ، وأجال رودلف بصره في الغرفة بقلق باحثا عن برميل ، فان الناس يجب أن يدحرجوا فوق برميل إذا أصيبوا بـ . . . كلا ، كلا ، فانما يكون ذلك للغرقى من الناس . وراح يروح عليها بقبعته ، فأفاد ذلك ، إذ انه أصاب أنفها بحافة القبعة الصلبة ، ففتحت عينيها ، ولم تكد تفعل حتى أحس الشاب ان وجهها كان هو الوجه الناقص في متحف الصور الحبيبة بفؤاده الولهان . هذه العيون السنجابية الصريحة ، هذا الأنف الصغير الاذلف[1] ، هذا الشعر الكستنائي الذي تنعقص جدائله كمدادات الكروم ، هذا كله بدا له كأنه نهاية حلوة ومكافأة طيبة لكل مغامراته الساحرة .

ونظرت إليه الفتاة في هدوء ثم ابتسمت ، وسألته في اعياء :

– ألعلي أغمي علي ؟ ومنذ الذي لا يغمى عليه ؟ حاول أن تعيش ثلاثة أيام بلا قوت من أي نوع كان ، وانظر ما يكون . . ؟ »

وقفز رودلف من مجلسه وهو يقول : « انتظري حتى أعود » .

واندفع من الباب الأخضر كالسهم ، ومنه إلى السلم ، ولم يمض إلا عشرون دقيقة حتى عاد ، يدق الباب ببوز حذائه لتفتح له . وكان يحتضن بين ذراعيه مجموعة أشياء من المطعم والبدال ، وضعها على المنضدة ، من خبز إلى زبدة ، إلى لحوم باردة ، إلى كعك إلى فطائر ، إلى مخللات ، إلى جمبري ، إلى دجاجة مشوية ، إلى زجاجة حليب إلى أخرى ممتلئة بالشاي الساخن .

وقال رودلف هادرا :

« إنه لمضحك ، أن تعيشي بلا طعام . يجب أن تكفي عن عمل رهانات اختيارية من هذا القبيل . هيا إلى العشاء »!

---

١ – ذلف الأنف صغر واستوت أرنبته.

وساعدها على الجلوس في مقعد بجوار المائدة ، وتساءل :

« أثمة كوب للشاي ؟ » فأجابت : « على الرف بجوار النافذة »

وعندما عاد بالكوب ألفاها تقضم بشراهة قطعة من المخلل اصطفتها من الكيس بغريزة المرأة التي لا تخطئ ، فخطفها منها ضاحكا ، وملأ لها الكوب بالحليب ، وقال في لهجة الأمر :

« اشربي هذا أولا ، ثم تشربين بعده قليلا من الشاي ، وتأكلين جناح الدجاجة . وإذا سلكت سلوكا حسنا فستحظين بقطعة مخلل في الغد ، والآن اسمحي لي أن أكون ضيفك وهيا إلى العشاء »!

وسحب كرسيا آخر وجلس عليه . وجلا الشاي أعين الفتاة وأعاد إلى وجنتيها بعض الحمرة ، وراحت تأكل بالشراهة الفاتنة التي تتجلى على وحش محروم . وبدا عليها انها تنظر إلي وجود صاحبها الشاب وعونه اياها كشيء طبيعي ، لا تهوينا من شأن التقاليد ، ولكن عمل شخص يمنحه كربه الحق في تنحية الزيف واطاعة الغريزة ، ولكن عندما عاودتها القوة والرضا ، عاودها معها رويدا رويدا شعورها بأمالي التقاليد ، فراحت تروي له قصتها الصغيرة ، قصة واحدة من آلاف تتثاءب عنهن المدنية كل يوم ، قصة بائعة المتجر ذات الأجر الطفيف ، الذي تهيض منه الغرامات ، لتزيد من أرباح صاحب المتجر ، والوقت الذي يعصف به المرض ، ثم فقدان الوظيفة ، وضيعة الامل ، ثم . . . نقرة المغامر على الباب الأخضر .

لكن القصة بدت لرودلف في روعة الالياذة ، أو « محنة جيونى الغرامية »! فهتف بها :

– « لا أستطيع أن أتصور كيف احتملت كل هذا! » .

قالت الفتاة بهدوء : « لقد كان ذلك أمرا مروعا! »

– « ومالك في المدينة من أقارب وأصدقاء ؟ »

– « كلا على الاطلاق! »

قال رودلف بعد صمت قصير :

– « إنني كذلك وحيد » . .

وردت الفتاة على عجل : « إذ ذلك يفرحني! »

ولأمر ما اغتبط الشاب لسماعه منها أنها فرحة ليتمه في الحياة! وتراخت أجفانها فجأة ، وتنهدت من أعماق قلبها ، وقالت : « إن النوم يغلبني ، وأشعر أني في خير حال » . . .

فنهض رودلف وتناول قبعته وقال :

« إذن أقول لك طاب ليلك ، فانك في حاجة إلى نوم طويل! »

ومد يده إليها فصافحتها وقالت :

– « سعدت مساء! »

ولكن عينيها عبرتا بفصاحة وصراحة وضعف عن سؤال ، أجابها هو عليه باللفظ فقال :

– « أجل . سأقدم إليك غدا لأرى كيف تصبحين . . ان تخلصك مني لن يكون من السهولة بمكان »!

وعندما وصل إلى الباب سألته « كيف حدث أنك قرعت بابي ؟ » كما لو أن مجيئه كان أهم في نظرها من الوجه الذي عليه جاء!

وتطلع إليها برهة تذكر فيها البطاقات ، فأحس لذكراها بلذعة غيرة مباغتة ، وساءل نفسه : « ماذا لو حدث أن وقعت نفس البطاقات في يد لصاحبها من روح المغامرة ماله هو ؟

فقرر على عجل أن يخفي عنها الحقيقة ، وأن يتركها جاهلة إلى الأبد بادراكه لتلك الحيلة الغريبة التي دفعها إليها كربها الشديد ، فقال :

– « إن واحدا ممن نستخدمهم لضبط الأوتار يعيش في هذا البناء فطرقت بابك على أنه بابه »!

وكان آخر شيء رآه في الغرفة قبل أن يغلق عليها الباب الأخضر هو ابتسامتها .

ووقف عند رأس السلم ينظر حائرا إلى ما حوله ، ثم قطع الممشى إلى آخره ، وعاد فصعد في السلم إلى الطابق التالي ليكمل دائرة بحثه الغامض ، فوجد كل باب به مطليا باللون الأخضر .

وهبط إلى الشارع متحيرا فوجد الزنجي الغريب الزي واقفا حيث كان ، فوقف رودلف أمامه وبيده البطاقتان ، وسأله :

– «هل يمكن أن تخبرني لماذا أعطيتني هذه البطاقات ، وما هو المقصود منها ؟»

قال الزنجي وهو يشير عبر الشارع :

– «هذا هو المقصود يا سيدي ، ولكن أظن الفصل الأول قد فاتك الآن!»

وتلفت رودلف إلى حيث أشار الزنجي ، فرأى فوق مدخل مسرح للتمثيل لوحة مكتوباً عليها اسم الرواية بأحرف من نور : «الباب الأخضر» . .!!

واستأنف الزنجي يقول :

«لقد قيل لي انها مسرحية راقصة من أبدع طراز ، وقد منحني مخرجها ريالا لتوزيع بعض بطاقات الاعلان عنها مع بطاقات الاعلان عن الطبيب . هل تريد يا سيدي بطاقة من بطاقات الطبيب ؟»

ووقف رودلف عند قمة الشارع الذي يعيش فيه فشرب كوبا من الجعة في مطعم واشترى سيجارا ، وخرج من المطعم بسيجاره المشتعل ، فزر معطفه ، وأزاح قبعته إلى قفاه ، وقال بجلال يخاطب قائم مصباح الشارع القريب :

– «أنا موقن مع ذلك أن يد المقادير هي التي مهدت لي سبيلي إليها» . . .

ومثل هذا القرار في مثل هذه الظروف يعطي رودلف ستاينر الحق في أن يسلك في سلك العشاق المغامرين عن يقين .

أخوات الرحمة

كانت سيارة الرحلات ذات الطابقين على وشك القيام ، وركابها الاعلون المرحون قد بوأهم مقاعدهم قيم السيارة المهذب ، وكان الشارع الجانبي الذي وقفت فيه السيارة يعج بهواة النزهة ، الذين وقفوا يتطلعون إلى زملائهم ، مبرهنين على صواب القانون الطبيعي الذي يقول أن كل كائن حي على وجه الأرض ، فريسة لكائن آخر .

ورفع الدليل المذياع ، أو قل آلة التعذيب ، وراح باطن السيارة يخب ويوضع كأنه قلب مدمن القهوة! وأخذ الركاب الاعلون يلتصقون بمقاعدهم خشية السقوط ، وصرخت سيدة تطالب بانزالها إلى الأرض . ولكن اليكم – قبل أن تقوم السيارة – ديباجة ستجلو لكم صفحة ممتعة من رحلات الحياة .

إن الرجل الأبيض يتبين الرجل الأبيض بغابات أفريقيا في مثل لمح البصر ، والأم ووليدها يتبادلان التحية الروحية في سرعة وثقة ، والكلب وسيده سرعان ما يتفاهمان عبر الخليج الضيق الذي يفصل بين الإنسان والحيوان! وما أوجز وأذكى تلك الرسائل الخاطفة التي يتبادلها العاشقان! ولكن كل هذه المناسبات لا تبعث إلا تيارا بطيئا متسكعا من التعاطف وتبادل الخواطر ، إذا قيست بمناسبة سترفع سيارة الرحلات عنها الستار ، فستعرف منها (إن لم تكن عرفت بعد) كيف يتواصل في مثل

خطف البرق قلبان اثنان ، من بين قلوب أهل المعمورة ، جمعت بينهما المصادفة وجها لوجه .

***

دق الجرس ، وتحركت السيارة بعظمة ، نحو وجهتها التشقيفية المرسومة .

وجلس في المقعد الخلفي الأعلى جيمس وليامز - من ولاية ميسورى - هو وعروسه .

وأرجوك أيها القارئ أن تمسك بهذه الكلمة الأخيرة ، التي هي الكلمة العليا في ربيع الحب والحياة . فان العروس هي عبير الزهر ، ومجاج النحل ، وأغرودة البلبل ، والقطرة الأولى من طل الربيع ، وشذى قشدة الليمون على كوكتيل الوجود . إن الزوج تقدس ، والأم توقر ، ورفيقة الصيف تستطاب ، ولكن الخطيبة هي بين هدايا الزفاف ، الشيك المضمون الذي ترسله السماء عندما يزف الرجل إلى الفناء!

ومضت السيارة في طريقها ، ووقف ربان هذه النسافة الفخمة على مرقبه ، يصف لركابها مشاهد المدينة الكبيرة من خلال بوقه ، وراحوا يستمعون ، فاغري الأفواه ، مفتوحي الآذان ، لاوصافه وهي تهدر أمام أبصارهم هدير الصواعق ، ثم يستجيبون بأعينهم لتراتيل المذياع ، مذهولين ، حالمين ، مشوقين .

. . . . . .

ولكن دعونا نلقى نظرة على مسز جيمس وليامز ، التي كانت تدعى قبل زفافها هاتى تشالمرز ، وكانت أجمل فتاة في قريتها . فقد ارتدت ثوبا سماويا ، فزانته ، وأعارها الورد حمرة الوجنات ، أما البنفسج ، فشكرا . . . ان عينيها ليست في حاجة إليه . وكان شريط من الحرير مربوطا تحت ذقنها ، كأنما يمسك القبعة في مكانها ، ولكنك تعلم كما أعلم ، أن دبوس القبعة كان يؤدي هذه الوظيفة .

وعلى وجه مسز جيمس وليامز كانت ترتسم مكتبة صغيرة حافلة بأجمل ما في الدنيا من خواطر مكونة من ثلاثة مجلدات ، يحتوي

المجلد الأول منها على اعتقادها في أن جيمس وليامز لا بأس به ، والثاني على مقال عن الحياة كمكان ممتاز ، والثالث يعبر عن يقينها أنهما وهما يجلسان في أعلى مقعد من هذه السيارة الفخمة كانا يقومان بسياحة تجل عن الادراك!!

ولعلك تكهنت بأن جيمس ويليامز كان في الرابعة والعشرين ، وقد يسرك أن تعلم أن تقديرك قد أصاب غاية السداد ، فقد كان عمره ثلاثة وعشرين عاما ، وأحد عشر شهرا ، وتسعة وعشرين يوما ، بالتحديد ، وهو ربع القامة ، نشط ، عريض الفك ، دمث الطباع ، ناجح في عمله ، وفي شهر العسل . . .!

***

أيتها الأقدار العزيزة : لا تمنحينا مالا ، ولا شهرة ، ولا رياسة ، ولا شعرا جديدا في رؤوسنا ، وبدلا من أي منها ، اجعلينا نطوي الزمان القهقرى ، ونستعيد نتفة صغيرة من رحلة عرسنا في شهر العسل ، ولو ساعة منها أيتها الأقدار ، لعلنا نتذكر منظر العشب والشجر ، ونرى من جديد شريط القبعة الحريري تحت ذقن العروس ، حتى لو كان ما يمسك القبعة هو الدبوس . تقولين انك لا تستطيعين ؟ ليكن! وحسبنا أن نتبع هذه السيارة إذن . . .

***

كانت تجلس أمام مسز جيمس ويليامز فتاة ترتدي سترة فضفاضة حمراء ، وقبعة من القش محلاة بالأعناب والورود ، وما أقل ما يتاح لنا الحصول على العنب والورد معا ، والأسفاه ، إلا في حوانيت قبعات السيدات وفي الأحلام . وكانت هذه الفتاة شاخصة إلى المذيع بعيونها الواسعة الغزيرة الزرقاء ، وهو يعلن بصوته الهادر عن رأيه في أن أصحاب الملايين فئة يجب أن نهتم بأمرهم ، فإذا سكت لحظة عمدت إلى نوع من الفلسفة في شكل قطعة من اللبان .

وجلس على يمين هذه الفتاة شاب يقارب الرابعة والعشرين ، ربع القامة ، نشط ، عريض الفك دمث الطباع . ولكن اياك وان تشابهت

الصفات بينه وبين جيمس وليامز ، أن تظنه قرويا مثله ، فأن هذا الرجل ينتمي إلى الشوارع الوعرة ، والنواصي المظلمة ، وينظر حواليه بعين متحفزة ، كأن بينه وبين الأرض التي تطؤها أقدام المارة ثأرا ، وهو يتطلع إليها من مقعده الرفيع .

وبينما ينبح المذياع بما يصف المذيع من مشاهد ، دعوني أهمس في آذانكم ، راجيا أن تستمسكوا جيدا بالمقاعد ، لأن أمورا هامة توشك أن تحدث ، ثم تبتلعها المدينة الضخمة كأنها ورقة من شريط أخبار ذرتها الرياح!!

إن الفتاة ذات السترة الحمراء تلفتت خلفها لترى زملاءها الذين يشغلون المقعد الخلفي الأخير ، فقد فرغت من دراسة كل الركاب الآخرين .

تلاقت عيناها بعيني مسز جيمس وليامز ، وفي مثل ارتداد الطرف تبادلت الاثنتان كل ما مر عليهما في الحياة من تجارب ، وقصص ، وآمال وأوهام . وتذكر أن ذلك كله حدث في تجاوب النظرات لا أكثر ، أو دون ألفاظ ، وفي لمحة لا تسمح لرجلين أن يشهرا فيها سلاحهما للمبارزة ، أو يستعير فيها أحدهما من الآخر عود ثقاب .

وانحنت العروس على زميلتها ، وتبادلتا سيلا متدفقا من الألفاظ ، تحرك فيه اللسانان بسرعة لساني حيتين - والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال - واختتم الحديث بابتسامتين وعدة هزات من الرؤوس .

وفي هذه اللحظة وقف رجل أسود الثياب أمام السيارة في الطريق العام ، وقد رفع يده يستوقفها ، ولحق به من منعطف الطريق رجل آخر . وسرعان ما قبضت الفتاة ذات القبعة المحلاة بالفاكهة على ذراع رفيقها ، وهمست همسة في أذنيه ، فبرهن الشاب على قدرته على التصرف عفو الخاطر ، فقد تضاءل في مقعده ، ثم اختفى . ورآه قرابة ستة أشخاص من ركاب الطابق الأعلى ، وهو يقوم بهذه الحركة ، فدهشوا ، ولكنهم لم يقولوا شيئا ، لانهم حسبوا من اللياقة ألا يبدوا الدهشة مما لعله يكون طريقة عرفية للنزول من السيارة في هذه المدينة المربكة .

وتستر السائح الآبق وراء عربة ، ثم اختفى كورقة جرفها التيار ، بين عربة أثاث ، وعربة زهور .

وعادت الفتاة ذات السترة الحمراء فتلفتت نحو مسز جيمس وليامز ، ونظرت إلى عينيها ، ثم اعتدلت في مجلسها كأن لم يكن شيء ، في الوقت الذي وقفت فيه السيارة عندما رأى السائق بريق شارة الشرطي ، يلمع تحت معطف الرجل الذي وقف في الطريق بملابسه المدنية .

وقال المذيع للشرطي : « ما وراءك ؟ »

قال الشرطي آمرا : « أوقف السيارة دقيقة ، ان على ظهرها رجلا نطلبه ، وهو لص من فلادلفيا يدعى بنكى ماكجواير ، وها هو ذا على المقعد الخلفي » ثم التفت إلى زميله قائلاً : « عليك أن تذهب إلى مؤخر السيارة ، يا دونوفان » .

ومضى دونوفان إلى مؤخر السيارة ، وثبت عينه على جيمس وليامز . ثم قال في انشراح : « هيا أيها المقامر العتيد ، لقد وضعنا أيدينا عليك ، هيا لتعود من حيث جئت ، انها فكرة لا بأس بها أن تختبئ في سيارة رحلات ، وسأتذكر هذه الطريقة في المستقبل . . »

وقال المذيع من مذياعه في صوت لطيف :

– من الخير لك أن تنزل يا سيدي لتشرح موقفك ، فان على السيارة أن تمضي في رحلتها » .

لقد كان جيمس وليامز عاقلا ، فاتخذ سبيله بين الركاب في خطوة وئيدة ، حتى وصل إلى مقدم السيارة فهبط السلم ، وتبعته عروسه ، ولكنها قبل أن تنزل ، تلفتت إلى الخلف ورأت السائح الفار يتسلل من خلف عربة الاثاث ، ويختفى وراء شجرة على حافة المتنزه الصغير وعلى بعد لا يزيد على عشرين مترا . . .

وعندما هبط جيمس وليامز إلى الأرض واجه مطارديه بابتسامة وهو يفكر في القصة الطريفة التي سيقصها على أهل قريته ، عن الاشتباه فيه كلص ، وتريثت السيارة هنيهة واحتراما لرغبة ركابها ، الذين ما كان يمكن أن يشوقهم شيء أكثر من هذا المنظر!

وقال جيمس بهدوء حتى لا يكدر خواطرهم :

اسمي جيمس وليامز وأنا من كلوفرديل بولاية ميسورى ، ومعي رسائل تثبت أن . . . »

وقال الرجل ذو الثياب المدنية :

– « تفضل بمرافقتنا فان أوصاف بنكى ماكجواير تنطبق عليك ؟ انطباق القميص الضيق . ولقد رآك مخبر على هذه السيارة في المتنزه الكبير ، وطلب منا بالتليفون أن نحتجزك ، فان كان لديك دفاع فاحتفظ به حتى نصل إلى المركز » .

وتطلعت إليه عروسه – عروسه التي لم يمض على زفافها إليه اسبوعان – وملء عينيها اشراق صاف عجيب ، وعلى وجنتيها حمرة لطيفة ، ثم قالت له وجها لوجه : « أتبعها في هدوء يا بنكى ، ولعل ذلك يكون في صالحك » .

وعندما تحركت السيارة ، تلفتت إليها ، وأرسلت إلى شخص ما في مقعد من مقاعدها الخلفية قبلة في الهواء . . .

وقال دونوفان :

– « إن زوجتك تمحضك النصح يا ماكجواير ، فهيا بنا الآن » .

وعندئذ جن جنون جيمس ويليامز ، فدفع قبعته إلى آخر قفاه ، وقال في غيظ وحنق :

« إن زوجتي تحسبني لصا ، وما عرفت عنك الجنون قط ، فلابد أن أكون الآن المجنون! ولئن كنت كذلك فلن يصنعوا بي شيئا ان قتلتكما كليكما في ثورة جنون! »

ونشط إلى مقاومة القبض عليه ولجأ إلى العنف ، فانطلقت الصفافير تستغيث ، وتهاوى رجال الشرطة في كل مكان ، بعضهم يقبض عليه والآخرون يفرقون الجمع الحاشد من المتفرجين .

وفي مركز الشرطة ، سأله الجاويش المناوب عن اسمه . وكان جوابه :

« ماك دودل الاحمر ، أو بنكى الشرير فقد نسيت بأيهما

سميت ، وتستطيع أن تثق بأني لص ، واياك أن تنسى ، ويمكن أن تضيف أن القبض على بنكى قد تطلب خمسة من الشرطة ، فان لي رغبة خاصة في أن تظهر هذه الحقيقة في السجلات - » .

ولم تمض إلا ساعة حتى جاءت مسز جيمس وليامز مع عمها توماس المقيم بأحد الاحياء الفخمة في نيويورك ، يركبان سيارة فاخرة ، ومعهما الأدلة الدامغة في براءة البطل ، فالعالم أجمع يحب أن يختتم الفصل الثالث من أمثال هذه المسرحيات العنيفة بسيارة فخمة على الدوام .

وبعد أن وبخ المحقق جيمس وليامز بشدة على تقليده للص مسجل ، وأفرج عنه بأكرم أسلوب يمكن أن يتبع في مركز ، أعادت مسز وليامز القبض عليه ، وانتحت به جانبا ، فنظر إليه جيمس وليامز بعين واحدة ، فقد أغلق دونوفان الأخرى عندما تعلق أحد الشرطة بذراعه اليمنى ، وما كان حتى اليوم قد وجه إليها كلمة زجراو تأنيب . وقال لها في حدة :

- « ألك أن تفسري لي كيف . . . »

فقاطعته قائلة : « استمع إلي يا عزيزي ، إنها ساعة ألم ومحنة لي ولك ، ولكني صنعت ما صنعت من أجلها ، أعني الفتاة التي كلمتني في السيارة . لقد كنت من السعادة بوجودي معك يا جيم بحيث لم أجرؤ أن أضن بالسعادة على امرأة أخرى . جيم انهما تزوجا هذا الصباح ، هذين الاثنين ، ورغبت في نجاته ، وعندما كان رجال الشرطة يتعاركون معك ، رأيته يتسلل من خلف الشجرة التي اختبأ وراءها ، ويركض عبر المتنزه على ملأ الأنظار ، وهذا كل شيء يا عزيزي ، فلقد كان لزاما علي أن صنع ما صنعت » .

***

وهكذا تعرف كل عروس أختها الواقفة في مسقط الضوء الذي لا يسطع إلا مرة في حياة المرء ، ولوقت قصير! ان الرجل منا لا يدرك أنه في عرس إلا عندما يرى اكليل الزفاف ، ولكن العروس تعرف أختها في ومضة عين ، فيسرى بينهما تيار من الرضا والتفاهم ، بلغة لا يفقهها رجل ولا تدركها أرملة .

غرام سمسار

سمح بتشر كاتم الأسرار في مكتب هارفى ماكسويل سمسار البورصة ، للمحة من لمحات الاهتمام والدهشة ، أن تشيع في محياه المجرد من كل تعبير ، عندما اقتحم مخدومه المكتب في منتصف الساعة التاسعة ، مصحوباً بكاتبة الاختزال الشابة ، واندفع ماكسويل إلى مكتبه كمن يريد أن يقفز من فوقه ، وهو يقول في اقتضاب ظاهر :

- « صباح الخير يا بتشر » .

ثم ذاب في تل الرسائل والبرقيات التي كانت في انتظاره على المكتب .

لقد كانت السيدة الشابة تشغل وظيفة الكاتبة المختزلة لماكسويل منذ عام ، وكانت جميلة جمالا لا صلة بينه وبين فن الاختزال بالتأكيد! كلا ولم يكن مستمدا من أبهة الزينة أو التجميل! كما كانت تتحلى بقلائد أو أساور أو أقراط . وما كان يبدو عليها هيئة من تتوقع قبول دعوة للغداء . وكان ثوبها الرمادي على بساطته منسجما على جسمها بدقة واخلاص . ومن قبعتها الأنيقة التي تشبه العمامة السوداء ، انتشر جناح ببغاء أخضر مشرب بلون الذهب . وكانت في هذا الصباح بالذات تشع اشعاعا لطيفا بالنضرة والحياة ، وكانت عيناها تبرقان بريق الأحلام ، ووجنتاها مضرجتان بحمرة الخوخ ، وكان محياها يعبر عن سعادة تشوبها حلاوة الذكريات .

ولاحظ بتشر الذي لم يفارقه عجبه بعد ، خلافا بينها اليوم وبينها في أي يوم آخر ، فهي بدلا من أن تمضي رأسا إلى الحجرة المتصلة بحجرته ، والتي كان فيها مكتبها ، ظلت تتباطأ في الردهة ، مترددة ، بل انها اقتربت من مكتب ماكسويل ، كمن تحاول أن تسترعي نظره إلى وجودها .

ولكن الرجل الذي جلس إلى هذا المكتب ، لم يعد بشرا ، ولكنه استحال إلى آلة دائرة مشغولة ، تئز عجلاتها دون توقف .

وسأل مكسويل بحدة :

« حسنا . . . ماذا تريدين ؟ »

وبدت رسائله المفتوحة على المكتب الحافل كأنها جبل من الثلج الزائف على مسرح تمثيل .

وقالت كاتبة الاختزال ، وهي تنصرف عنه باسمه :

« لا شيء »!

واتجهت إلى كاتم الأسرار تقول :

« مستر بتشر . هل ذكر مستر ماكسويل شيئا بالأمس عن استخدام كاتبة جديدة للاختزال ؟ »

وأجاب بتشر :

« أجل لقد فعل ، أنه أمرني أن أحصل على كاتبة جديدة ، وقد اتصلت مساء البارحة بمكتب الاختزال ليرسل بعض نماذج من فتياته هذا الصباح . وها نحن أولاء الآن في العاشرة إلا ربعا ، ولم تظهر قبعة نسائية بعد ، ولا طقطق فم بلبان الاناناس »

قالت السيدة الشابة :

– « إذن أعمل اليوم كالعادة حتى تجيء بديلتي لتملأ الفراغ »

ومضت إلى مكتبها فورا فعلقت على المشجب المألوف قبعتها ذات العمامة السوداء ، والريش الأخضر المذهب ، من جناح الببغاء .

وأولئك الذين لم يروا منظر سمسار بورصة مشغول في مانهاتان ، لا يمكن أن يزعموا أنهم علماء بالأجناس البشرية . إن الشاعر يتغنى

« بالساعة الحافلة في الحياة المجيدة » ، وساعة السمسار ليست حافلة فقط ، ولكن الدقائق والثواني نفسها لا يكون فيها مجال لأي عمل جديد .

وكان هذا اليوم أحفل أيام هارفى ماكسويل بالعمل ، وراح جهاز الأخبار ، ينفض بطقطقته المألوفة أشرطته المكتوبة ، وأصيب تليفون المكتب ، وينادون هارفى من خلف السياج أحيانا في مرح ، وأحيانا في حدة أو خبث أو هياج . وطفق صبيان الرسائل يدخلون ويخرجون حاملين الرسائل أو البرقيات ، والكتبة يقفزون من هنا إلى هناك كبحارة هبت عليهم عاصفة . وحتى بتشر تداعت في عضلات وجهه ملامح كملامح الاحياء .

وكانت البورصة زوابع ، وانهيارات ، وعواصف جليدية وجبال وثلج وبراكين . وهذه الظواهر كانت تنعكس بصورة مصغرة على مكتب السمسار . وأسند ماكسويل ظهر مقعده إلى الجدار ، وراح يدير الأعمال بمهارة شخص يرقص على أطراف قدميه ، يثب من جهاز الأخبار إلى التليفون ، ومن المكتب إلى الباب بخفة البهلوان .

وفي وسط هذا الخضم المتلاطم أحس السمسار فجأة أن على مقربة منه هالة من الشعر الذهبي المعقوص تحت مظلة مائلة من البنفسج وريش النعام ، من تحتها معطف من جلد عجل البحر الزائف ، وعقد من خرز في حجم الجوز ، ينتهي بقلب من الفضة يتدلى حتى يكاد يصل إلى الأرض ، ورأى فتاة شابة تائهة بين هذه الملحقات ، يقدمها له بتشر قائلاً :

– « سيدة من مكتب الاختزال ، ترغب في الحصول على الوظيفة الشاغرة »

ودار ماكسويل في مقعده نصف دورة ، ويداه ممتلئتان بالأوراق وأشرطة الأخبار ، ثم تساءل في عبوس :

– « أية وظيفة ؟ »

قال بتشر : « وظيفة كاتبة الاختزال . لقد كلفتني بالأمس أن أتصل بالمكتب ، وأطلب واحدة لمقابلتك هذا الصباح »

قال ماكسويل :

« ألعلك فقدت صوابك يا بتشر . لماذا أطلب منك هذا الطلب ؟ إن مس ليسلى كانت وما زالت موضع رضاي التام طوال عملها هنا منذ عام . والوظيفة شاغرة هنا يا سيدتي . وأنت يا بتشر عليك أن تسحب من المكتب هذا الطلب ، ولا تدخل علي أحدا منهن بعد الآن » .

وغادر القلب الفضي المكتب ساخطا ، يتآود في مشيته ، ويتخبط عامداً بكل ما يمر به من أثاث . وقضى بتشر لحظة يصف فيها لعامل الأرشيف مدى ما وصل إليه « العجوز » من فقدان للذاكرة ونسيان يزداد على الأيام .

وازداد العمل توترا وشدة وعجلة ، وتبعثرت على الأرض عدة أسهم كان بعض عملاء ماكسويل قد استثمروا كثيرا من أموالهم فيها ، وترددت أوامر الشراء والبيع رائحة غادية من المكتب واليه ، تردد العصافير ، وكثير من أسهمه هو تعرض للبوار ، فراح يعمل كآلة دقيقة قوية جبارة ، تدور في حزم ، وبلا تردد ، وبأقصى ما لها من طاقة ، وأشد ما تستطيعه من سرعة . يقول الكلمة في وقتها ، ويبدي الرأي في أوانه ، ويعمل العمل في ابانه بدقة الساعة . إنها دنيا من المال تزخر بالأسهم والسندات والرهون والقروض والضمانات والفروق ، دنيا لا مجال فيها لنزوات الطبيعة أو عواطف البشر .

وعندما اقترب موعد الغداء كان الهدير قد بدأ يتطامن هونا ما ، وكان ماكسويل يقف بجوار مكتبه عامر اليدين بالمذكرات والبرقيات ، معلقا قلمه على أذنه اليمنى ، مغشى الجبين بخصلات من شعره المهوش ، والنافذة مفتوحة لأن الربيع المحبوب كان قد بدأ يرسل نسيمه الدافئ إلى مراصد الوجود .

ودخل عبر النافذة أريج حائر عطر يكاد يغنى شذاه . . . أريج حلو رقيق مستمد من زهر البنفسج ، ما كاد يشمه السمسار حتى وقف لا يتحرك ولا يريم ، فأن هذا العبق كان عطر مس ليسلى المفضل ، كان عطرها هي من دون الناس .

وكأنما جسدها هذا الشذى أمامه في كل نضرتها ، فلم تلبث دنيا

المال أن استحالت في عينه إلى هباء ، وهي مع ذلك على بعد عشرين خطوة في الحجرة المجاورة .

وقال ماكسويل يخاطب نفسه في صوت مسموع :

« لقد آن الأوان ، وسأخطبها اليوم . ترى كيف لم أفعل ذلك من قبل ؟ »

واندفع بعنف إلى الغرفة الداخلية فوقع على مكتب كاتبة الاختزال .

ونظرت إليه باسمة ، تضرج وجنتيها حمرة حقيقية ، وتمتلئ عيناها عطفا وصراحة . وأسند ماكسويل مرفقه على مكتبها ، وما زالت يداه ممتلئتين بالورق ، والقلم معلقا على أذنه .

وقال في عجلة :

– « مس ليسلى . ليس لدي إلا لحظة أضيعها ، وأريد أن أقول لك شيئا في هذه اللحظة . هل تتزوجينني ؟ انني لم أجد من وقتي فراغا أبادلك فيه الحب كما يفعل الناس ، ولكني أحبك عن يقين . أجيبي بسرعة أرجوك ، فان أصحابنا يتألبون على سل الروح من شركة الاتحاد الباسيفيكي » .

وقالت السيدة الشابة مذهولة وهي تنهض من مجلسها وتحملق فيه : « ما هذا الذي تقول ؟ »

قال ماكسويل في حدة : « ألا تفهمين ؟ أريد أن أتزوج منك . إني أحبك يا مس ليسلى ، وقد كان علي أن أخبرك من قبل ، وهأنذا أسترق دقيقة من وقتي عندما هدأ سيل العمل قليلا . إنهم يدعونني إلى التليفون الآن . استمهلهم لحظة يا بتشر . مس ليسلى ألا تتزوجينني ؟ »

وسلكت كاتبة الاختزال سلوكا عجيبا . فقد بدا عليها أولا أنها غارقة في الذهول ، ثم انهلت الدموع من عينيها الحائرتين ، ثم ابتسمت كما تبتسم الشمس من وراء السحاب ، ثم مدت ذراعا من ذراعيها فطوقت به عنق السمسار في حنان ، ثم ترفقت به وهي تقول :

– « إني أدرك الآن ، انه ذلك العمل المضني الذي ينزع من رأسك في هذه اللحظة كل ما عداه . لقد أرعبتني في البداية . . . ألا تتذكر يا هارفى أننا تزوجنا البارحة في الساعة الثامنة من المساء في الكنيسة الصغيرة القائمة على ناصية الشارع ؟ »

فضولي

ثمة شيئان أو ثلاثة كنت أريد معرفتها . ولما كنت لا أكترث بالمغامرات ، فقد بدأت أتقصى كنه هذه الأشياء .

واستغرقت أسبوعين لمعرفة ما يحمله النساء في حقائبهن ، ثم رحت أسأل عن سبب استعمال حشيتين على السرير ، وقد قوبل هذا السؤال بالشك في البداية ، لأنه بدا كأحجية ، وعرفت في النهاية أن مرد ذلك إلى تخفيف حمل النساء اللائي يعددن الفراش . وبلغ من حمقي أنني رحت ألح ، راجيا أن أعلم لماذا ، ما دام الأمر كذلك ، لا تتساوى الحشيتان في أكثر الأحيان ، فقوبل إلحاحي بالإهمال . .

وكانت الجرعة الثالثة التي كانت نفسي ظامئة إلى احتسائها من معين المعرفة ، هي معرفة المعنى المراد بالفضولى . ان هذه الشخصية نمط من أنماط الناس يدق على فهمه . والواجب يحتم علينا أن نكون فكرة راسخة عن كل شيء ، حتى لو كانت فكرة خيالية ، قبل أن نقول اننا أدركناه .

إن في ذهني صورة واضحة حتى للأشخاص الرمزيين ، ولكن خيالي يخونني عندما أروضه على تصور شخصية الفضولى! وكل ما كنت أتخيله فيه أن له خدا مصعرا وثيابا أنيقة . وسألت عنه مخبرا صحفيا ، فقال لي :

– « إنه نمط من الناس بين السيد والصعلوك ، وبين رواد المحافل الاجتماعية ورواد حلبات الملاكمة . إني حائر كيف أصفه لك بدقة ، ولكنك تراه في كل مكان يدس أنفه في أي عمل . . أجل انه نمط قائم بذاته ، يغير ثيابه كل ليلة ، وينادي كل نادل في المطعم باسمه ، ولكنك لا تراه عادة مع امرأة ، وإنما تراه وحيدا أو مع رجل آخر . . . »

وتركني صديقي المخبر الصحفي ، ومضيت في بحثي قدما . . وكانت أنوار مسرح الريالتو تتألق من ٣١٢٦ مصباحا كهربائيا . . وكان الناس يغدون ويروحون ، ولكن لم يستوقف نظري أحد منهم . نعم ان عيونا مستهترة كانت تحملق في ، ولكن دون ايذاء .

وكان الحشد المؤلف من ذاهبين إلى العشاء أو الشراب ، ومن عاملات ، وقسس ، وشحاذين ، وممثلين ، ولصوص ، وأصحاب ملايين ، وغرباء ، يسيرون من حولي مسرعين ، أو متثاقلين ، أو متجسسين ، أو مترنحين ، أو منفلتين ، فلا ألقى إليهم بالا ، لأني أعرفهم جميعا بسيماهم ، وأقرأ ما في قلوبهم ، وليست لي بهم حاجة ، فقد كنت أبحث عن فضولي ، من هذا النمط الخاص ، وإذا تاه مني في الزحام ، كان هذا خطأ كبيرا . . .

ولكن دعونا نجد في البحث . ان رؤية أسرة تقرأ صحف الأحد شيء سار ، وانك لترى أفراد الأسرة لكل منهم شأن ، فالأب يحملق في الصفحة التي صورت فتاة تقوم برياضتها أمام نافذة مفتوحة ، وهي راكعة . . ولكن ما لنا ولهذا . . ؟ والأم مشغولة بايجاد الحروف المحذوفة في كلمة نيو . . يو . . ك . والبنات الكبار يقرأن الصفحة المالية ، ليبحثن فيها عن أخبار شاب معين ، قيل في صحف الأحد الماضي أنه نال حظا كبيرا في إحدى شركات شراء الأسهم والسندات . والابن الأكبر البالغ من العمر ثمانية عشر عاما والذي يتعلم في إحدى مدارس نيويورك الشعبية ، مغرق في قراءة مقال اسبوعي عن طرق اصلاح القمصان القديمة ، لأنه يطمع في نيل جائزة الخياطة في الامتحان النهائي . .

وكانت الجدة تقرأ في الملحق الفكاهي للجريدة منذ ساعتين . . والرضيعة الحابية تتعثر بخير ما تلقاه من الاثاث . ولقد حاولت أن أطنب في وصف هذا المشهد من القصة ، لأستعيض به عن اغفال مشهد آخر ، يستحسن اغفاله ، لعلاقته بالمسكرات .

فقد ذهبت إلى حانة لا . . . وعندما كانت تمزج ، سألت الرجل الذي يترصد للملعقة الصغيرة التي يقلب بها الويسكي ليدسها في جيبه عندما تفرغ من أداء عملها . . سألته عما يفهم من كلمة فضولي من حيث الاسم والصفات ، والسمات ، فقال في حذر :

– « إنه شخص حازم يعرف كيف يقضي لياليه! . . »

فشكرته وانصرفت ، حتى وجدت فتاة من فتيات جيش الخلاص ، تمس بصندوق التبرعات الذي حملته ، جيب صدارى ، فسألتها :

– « هل صادفك فضولي يوما ما أثناء طوافك . . ؟ »

فأجابت ضاحكة :

– « أظنني أعرف الشخصية التي تشير إليها ، فنحن نصادفها في نفس الأمكنة ليلة بعد ليلة . إن هؤلاء الفضوليين هم حرس الشيطان ، ولو أن جنود أي جيش كان لهم من الحمية والاخلاص ما لهؤلاء ، لكان جيشا ممتازا . اننا نختلط بهم ، فنحول بعض دراهمهم من خدمة الشيطان إلى خدمة الله » .

وهزت صندوقها ثانيا ، فوضعت به درهما .

ولقيت صديقا من أصدقائي يعمل ناقدا ، وهو يهبط من عربة على باب فندق كبير ، وبدا لي أنه غير مستعجل ، فألقيت عليه السؤال ، فأجابني عنه بطلاقة كما توقعت ، إذ قال :

– « ما من شك أن ثمة نوعا من الفضوليين في نيويورك ، فان هذا الاسم مألوف لدي ، ولكن لم يطلب مني قط أن أقوم بتعريفه . ولقد يشق علي أن أصوره لك صورة كاملة . بيد أني أستطيع أن أقول لك بالبداهة انه حالة مستعصية من حالات مرض نيويوركي معين ، هو حب الاستطلاع . ان الحياة تبدأ عنده في الساعة السادسة من كل مساء . .

وهو شديد الاهتمام بتقاليد اللباس والسلوك ، وعندما يدس أنفه فيما لا يعنيه ، يستطيع أن يلقى دروسا في ذلك على الهرة والغراب . وهو الرجل الذي تحدى البوهيميين أنفسهم من أقصى المدينة إلى أقصاها ، فهو على الدوام يتنسم بأنفه أثر شيء جديد ، إنه مزيج من حب الاستطلاع والقحة والوجود في كل مكان . من أجله صنعت العربات الأنيقة ، ومن أجله خلق السيجار ذو الطوق المذهب ، ومن أجله وجدت محنة الموسيقى أثناء العشاء . . ولئن كان عدد المرضى بهذا المرض قلائل ، إلا أنهم يثبتون وجودهم بكل مكان! »

« إني سعيد باثارتك لهذا الموضوع . فقد كنت أحس بأثر هذه الآفة الليلية في مدينتنا . . ولكني لم أفكر في تحليلها من قبل . . وقد كان من الواجب أن يوضع الفضولي في مكانه منذ زمن طويل . إن تجار الخمر والأزياء يهتدون بهديه ، والموسيقيين يعزفون له من الألحان ما يشاء ، وهو يقوم بجولاته كل ليلة في حين أنك أنت وأنا لا نرى الفيل إلا مرة كل أسبوع . . وعندما يهاجم رجال الشرطة حانوت سجائر[1] ، يغمز بركن عينه إلى الضابط عارفا بالأرض التي تحت قدميه ، وينصرف بسلام ، في حين أنك أنت وأنا نبحث بين أسماء الكبراء أو النجوم عن شخص يشفع لنا عند الشرطة » .

ووقف صديقي الناقد عند هذا الحد يلتقط أنفاسه ، ليبدأ سيلا جديدا من الصفات . فانتهزت الفرصة ، وصحت في فرح :

– « لقد وضعت الفضولى في مكانه ، وقد رسمت له صورة حية في متحف الأنماط والشخصيات بهذه المدينة . ولكني أحب أن ألاقيه وجها لوجه ، وأن أعرفه عندما تقع عيني عليه ، فأين ألقاه ، وكيف أتبينه ؟ »

ومضى الناقد فيما كان يقول ، دون أن يبدو على وجهه ما يفيد استماعه للسؤال ، وكان سائق العربة التي جاء فيها ينتظره ليحصل على أجره . .

---

١ – يبدو أن القصة مكتوبة في الوقت الذي كانت الخمر محرمة فيه في أمريكا ، وكانت حوانيت السجائر تستعمل لتهريبها .

- « إنه مثل أعلى لدس الانف في كل شيء ، وهو الخلاصة النقية للمطاط ، وهو الروح الصافية التي لا يمكن ردها ولا تجنبها لحب الاستطلاع . وإن أنفاسه لمفاجآت ، وإذا أحاطت خبرته بموضع ما ، بحث لها عن مجال جديد بلجاجة وإلحاح! »

واعترضته قائلا :

- « عفوا . . أتستطيع أن تدلني على واحد . . ؟ إنه شيء جديد لدي ، ويجب أن أدرسه ، وسأقلب المدينة رأسا على عقب لأجده ، وأكبر ظني أن برودواى هذه هي موطنه المختار » .

قال صديقي :

- « إنني سأتعشى هنا ، فتعال معي ، وإذا وجدت فضوليا فسأدلك عليه ، فاني أعرف أكثر المترددين على هذا المكان » .

فقلت : « شكرا فلن أتعشى الآن ، اني سأجد في أثر طريدتي ولو طفت في كل أرجاء المدينة الليلة » .

وتركت الفندق ، ومشيت في برودواى ، وأجد للحياة أريجا ، وللهواء الذي أتنسمه متعة ، في هذا الطراد لذلك النمط من الناس الذي أبحث عنه . وكنت أحس البهجة بوجودي في مثل هذه المدينة العظيمة ، المتعددة الصور . وظللت أسير على مهل وفي شيء من الخيلاء . . . وقلبي مزهو بأنني ابن لنيويورك الفخمة . . لي نصيب من بهجتها وملذاتها ومكانتها ومجدها الاثيل .

وانعطفت لاجتاز الطريق ، فسمعت شيئا يطن في أذني طنين النحلة ، ثم رحت في غيبوبة ، سبحت فيها مع الملائكة في رحلة ممتعة . وعندما فتحت عيني خيل إلي أني أشم رائحة بنزين ، وقلت في صوت مسموع :

- « أترى الرحلة انتهت ؟ »

ووضعت ممرضة كفها التي لم تكن شديدة النعومة على جبيني الذي لم يكن به أثر للحمى مطلقا ، ثم جاء إلي طبيب شاب فوضع في يدي صحيفة من صحف الصباح ، وقال متمتما في مرح :

- «لعلك تريد أن تعرف كيف وقع الحادث ؟»

وقرأت المقال ، وكان عنوانه يبدأ من حيث سمعت الطنين في أذني الليلة الماضية ، واختتم المقال بهذه الكلمات :

- « . . . إلى مستشفى بلفى حيث قيل أن اصابته ليست ذات بال . ويبدو أنه مثل صريح لذلك النمط من الناس الذين نسميهم الفضوليين » .

بعد عشرين عاماً

كان الشرطي يتمشى في دركه ، بخطو عنيف ، وما كان هذا العنف تظاهرا ، ولكنه عادة ، وما كانت به من حاجة للتظاهر ، والناس ندرة في الطريق ، فقد كانت الساعة العاشرة مساء ، والشوارع تكاد تخلو من روادها تحت لفحات الريح الباردة ، وما فيها من بوادر المطر .

كان يختبر الأبواب وهو يمر بها ، ويهز عصاه في حركات لطيفة معقدة ، ثم يلقى نظرة واعية على الطريق الهادئ بين الحين والحين . . وكان بهيكله القوي واختياله الطفيف ، صورة باهرة لحراس الأمن والسلام . وكان الحي كله من الاحياء التي لا تسهر ، ولقد ترى فيه بين الفينة والفينة نورا ينبعث من حانوت سجائر ، أو مطعم يعمل طوال الليل ، ولكن معظم الأبواب كانت أبواب متاجر أو مكاتب ، مر عليها منذ أغلقت وقت طويل .

وعندما وصل الشرطي إلى منتصف بناء معين اتأدت خطاه فجأة ، فقد وجد في مدخل مظلم لمتجر حدائد ، رجلا يستند إلى الجدار ، ويضع بين شفتيه سيجارا لم يشعل ، ولم يكد الشرطي يتجه نحوه حتى بادره الرجل بالحديث وقال له في لهجة الواثق .

– «اطمئن يا شاويش ، اني أنتظر صديقا واعدته منذ عشرين عاما على هذا اللقاء ، ولقد يبدو ذلك مضحكا كما ترى ، ولكني مستعد

للايضاح إذا شئت أن تطمئن إلى أن كل شيء في أمان . فمنذ ذلك الحين كان في موضع هذا المتجر مطعم » .

قال الشرطي :

– « لقد أزيل منذ خمسة أعوام » . .!

وأوقد الرجل عود ثقاب ، أشعل منه سيجاره ، فبدا في ضوئه وجه أصفر مريع الاشداق ، ذو عيون صارمة ، وندبة صغيرة بيضاء على مقربة من حاجبه الأيمن ، وتألقت ماسة ضخمة من دبوس على ربطة عنقه في وضع غريب ، ثم قال :

– « في مثل هذه الليلة منذ عشرين عاما تعشيت في ذلك المطعم مع جيمي ويلز أخلص أصدقائي ، وأنبل رجل في الوجود . ولقد نشأنا معا في نيويورك ، وكنت في الثامنة عشرة ، وكان جيمي في العشرين ، وكنت على أن أرحل في صبح اليوم التالي مهاجرا إلى الغرب ، باحثا عن الثروة ، أما جيمي فما كانت قوة تستطيع أن تزحزحه من نيويورك إذ كان يراها خير مكان على وجه البسيطة . وتعاهدنا في تلك الليلة على أن نتلاقى بعد عشرين عاما في نفس الوقت ونفس المكان ، أيا كانت ظروفنا ، ومن حيثما شطت بنا الديار . وتوقعنا أننا في غضون العشرين عاما يكون كل منا قد قرر مصيره ، ونال حظه من الثراء ، كيفما كان هذا الحظ والمصير . . » .

وقال الشرطي :

« يا له من شيء مثير ، وان بدا لي ما بين اللقائين كأمد طويل! ألم تسمع قط عن صديقك منذ كان الفراق ؟ »

فقال أجل :

« أجل لقد تراسلنا ولكن إلى حين ، ولم يمض إلا عام أو عامان حتى كان كل منا يجهل عن صاحبه كل شيء . فالغرب كما تعلم تيه هائل ، ظللت أخب جاهدا وأضع فيه ، ولكني واثق أن جيمي سيلاقيني الليلة ان كان على قيد الحياة ، فقد كان دائما أخلص وأوفى صديق على وجه الحياة ، ولن ينسى أبدا . ولقد قطعت ألف ميل لأقف الليلة في مدخل هذا الباب ، وما أبخسه من ثمن إذا جاء الصديق القديم . . »

وأخرج الرجل ساعة جميلة رصع غطاؤها بقطع صغيرة من الماس ، ثم قال :

– «انها الآن العاشرة إلا ثلاث دقائق ، ولقد كانت الساعة العاشرة بالدقيقة عندما افترقنا في نفس هذا الموضع على باب المطعم! »

وسأل الشرطي :

– «لعلك نجحت في الغرب . . ؟ »

– «أجل ، وكل رجائي أن يكون جيمي قد نال ولو نصف ما نلته من توفيق . إنه على طيبته لم يكن من ذلك النوع المجاهد الطموح . وجمع الثروة ليس بالأمر اليسير ، فقد كان علي لأجمع ما جمعت منها أن أنافس قوما يتوقدون ذكاء . ان المرء ليضيع في نيويورك ، في حين أنه يستطيع أن يقهر الغرب ولكن بحد السيف » .

وهز الشرطي عصاه وخطا خطوة أو خطوتين ثم قال :

– «سأمضي لشأني ، وآمل أن يوافيك صاحبك . أتراك ترحل إن لم يحافظ على موعده بالدقيقة ؟ »

فقال الآخر :

«ما أظن ذلك ، وسأنتظره نصف ساعة على الأقل ، وإذا كان جيمي حيا في أي مكان على سطح الأرض فلن يتأخر ، وداعا يا شاويش »

قال الشرطي وهو يستأنف جولته ، ويختبر أقفال الأبواب كما كان يفعل :

– «طبت مساء يا سيدي . . »

وكان المطر الآن ينهل رذاذا ، والريح قد استحالت نفحاتها الباردة ، إلى صرصر عاتية ، وحث المشاة القلائل في الحي خطاهم في صمت وكآبة ، رافعين بنائق معاطفهم ، ودافنين أيديهم في الجيوب ، وفي مدخل متجر الحدائد كان الرجل الذي قطع ألف ميل ليفي بوعد مع صديق صباه ، يكاد تحقيقه يستحيل ، واقفا يدخن سيجارة ، وينتظر . ..!!

وطال انتظاره حوالي عشرين دقيقة ، ثم ظهر شخص مديد القامة يعبر الطريق مسرعا من الجانب الآخر ، ويرتدي معطفا طويلا رفع بنيقته حتى غطت أذنيه ، ويتجه رأسا صوب الرجل المنتظر ، حتى إذا أتاه سأله في شيء من الشك :

- « أهذا أنت يا بوب ؟ »

وقال الرجل الواقف بمدخل الباب :

- « جيمي ويلز ؟ »

فصاح القادم الجديد في تعجب وهو يصافح صاحبه بكلتا يديه :

- « يا لله! انه بوب بعينه ، ماض كأنه سيف القضاء . لقد كنت موقنا أنني سأجدك إذا كنت ما زلت على قيد الحياة . ما أطول حقبة عشرين عاما من عمر الزمان . لقد أمحى المطعم القديم ، وكم كنت أود لو كان باقيا لنتعشى فيه من جديد يا بوب . ترى كيف عاملك الغرب أيها الخل العجوز ؟ »

- « خير ما يستطيع ، لقد أعطاني كل ما سألته . لشد ما تغيرت يا جيمي . ما حسبتك قط بهذا الطول . . ! »

- « لقد ازداد طولي قليلا بعد العشرين »

- « وهل وفقت في نيويورك يا جيمي ؟ »

- « نوعا ما . إن لي مركزا في إحدى مصالح المدينة . والآن هيا بنا يا بوب ، وتعال معي إلى مكان أعرفه ، فنستعيد هناك ذكرى الليالي الخوالي . . ! »

ومشى الرجلان يتأبط كل منهما ذراع صاحبه . وبدأ الرجل القادم من الغرب يروي قصة حياته ، مغرورا بما لقي من نجاح ، والرجل الآخر ينصت إليه وهو غاطس في معطفه ، باهتمام .

وكان على ناصية الطريق مقهى يتلألأ بالأنوار الكهربائية ، فما أن أتياه حتى حملق كل منهما في وجه صاحبه ، وكأنهما في هذه النظرة على ميعاد .

ووقف الرجل القادم من الغرب في مكانه بغتة ، ثم سحب ذراعه من ذراع صاحبه ، وصاح :

- «انك لست جيمي ويلز . ولقد تكون العشرون عاما دهرا طويلا ، ولكنهما مهما طالت لا تغير أنفا رومانيا أشم إلى هذا الأنف المدبب الصغير . .»

قال الرجل المديد القامة :

«بيد أنها تكفي أحيانا لتحويل رجل طيب إلى رجل شرير . انك مقبوض عليك منذ عشر دقائق يا بوب ، وقد أبرقت لنا شيكاغو تقول انك ربما هبطت علينا ، ولها معك حساب . وأظنك ستمضي معي في هدوء ؟ أليس كذلك ؟ ان من الحكمة أن تفعل ، ولكن قبل أن نذهب إلى مركز الشرطة أحب أن أعطيك رسالة طلب مني أن أسلمها إليك . ولك أن تقرأها هنا في ضوء هذه النافذة ، فانها من الشرطي ويلز» .

ونشر الرجل القادم من الغرب الورقة الصغيرة المطوية التي أعطيت له ، وكانت يده ثابتة عندما بدأ القراءة ، ولكنه لم يكد يفرغ من قراءتها حتى ارتعشت يده رعشة خفيفة . وكانت الرسالة قصيرة :

- «بوب : لقد كنت في ملتقانا الموعود في الوقت المحدد ، وعندما أوقدت عود الثقاب لتشعل سيجارك ، رأيت فيك وجه الرجل المطلوب في شيكاغو ، ولأمر ما عز علي أن ألقي القبض عليك ، فانتحيت ناحية ، واستحضرت رجلا في ثياب مدنية يحمل عني هذا الحمل الكئيب»!!

الغرفة المفروشة

كان أكثر سكان ذلك الحي الوضيع من أحياء (الوست أند) المبنى باللبن الأحمر ، مثل الزمان في التقلب والقلق والادبار ، لا بيوت لهم ، ومع ذلك فلكل منهم مائة بيت ، يهاجرون من غرفة مفروشة إلى غرفة مفروشة ، موقوتي المأوى ، والحب ، والتفكير ، يتغنون «بالبيت . . . البيت السعيد » ويضربون في الأرض يحملون في صندوق من الورق المقوى ما يملكون من قوت ومتاع .

ولما كان هذا الحي يقطنه ألف من الناس ، فينبغي أن تكون وراءهم ألف قصة ، وقد يكون أكثرها سخيفا ، وان كان من العجيب ألا يخطر شبح أو آخر بين هذا الموكب من الرحل الهائمين .

وعندما ساد الظلام الحي ذات مساء ، كان أحد الشبان يسير بين تلك «القصور الحمراء » يدق أجراسها واحدا بعد الآخر ، حتى أتى الباب الثاني عشر ، فتخفف من حقيبته الهزيلة ، وراح يزيل عن كفيه وجبهته ما علق بها من غبار ، بينما كان رنين الجرس يسمع صداه الخافت قادما من مكان سحيق ، ولم يلبث حتى فتح الباب ، وظهرت ربة البيت ، فما أن وقع بصره عليها حتى خيل إليه أنه أمام دودة حقيرة منهومة فرغت لتوها من التهام قوقعة لم تبق منها غير الصدف ، ثم انسربت تبحث عن نزيل ميسور تملأ به ما بقي في بطنها من فراغ .

وسألها عما إذا كان لديها غرفة للايجار .

فأجابت ربة البيت بصوت ينبعث من حنجرة مبطنة بالفرو :

« توجد حجرة خلفية بالطابق الثالث ، خلت منذ أسبوع ، أفتريد أن تلقى عليها نظرة ؟ »

وتبعها الشاب في السلم ، وكان به بصيص خافت من النور لا يعرف مصدره ، يطامن من ظلمة الردهات ، وعليه بساط بلغ به سوء الحال حتى لينكره النول الذي نسج عليه ، فقد بدا وبره كأنما استحال إلى عشب . وكأنما بلى هذا العشب وتحلل ، وزحف منه العث والطحلب إلى خشب السلم ، فاستحال إلى مادة عضوية لزجة تغوص فيها الأقدام ، وعند كل منعطف في السلم كانت توجد فجوة في الجدار ، لعلها كانت تستعمل يوما ما قاعدة لأصيص من أصص النبات ، ثم مات النبت في ذلك الجو الآسن العفن ، أو لعلها ، كانت قواعد لتماثيل قديسين ، سطت عليهم الأشباح والشياطين ، فانتزعتهم من قواعدهم في حلك الظلام ، ورمتهم في قبو عفن مفروش . وقالت ربة البيت بصوتها المخملي :

« هذه هي الغرفة . إنها لطيفة وقلما تخلو من نزيل ، وقد استأجرها بعض العلية في الصيف الماضي ، ولم يشعروا فيها بأية مضايقة على الإطلاق . وكان الدفع مقدما وفي أول دقيقة من أول كل شهر . وتجد دورة المياه في نهاية الردهة ، وقد أقامت بها سبراولز وموني طيلة ثلاثة أشهر وأقاما بها عرضا موسيقيا فكاهيا ، ولابد انك سمعت بمس بريتاسبراولز ، فذلك هو اسمها في المحيط الفني . ومن فوق هذا الصوان كان عقد زواجهما معلقا في اطار . وهنا تجد الغاز ، وكما ترى توجد أكثر من خزانة في الجدار . . إنها غرفة تنال اعجاب الجميع وقلما تخلو من ساكن .

وسألها الشاب :

– « هل يتردد على بيتك كثير من الممثلين . . ؟ »

فأجابت ربة البيت :

- إنهم يذهبون ويجيئون . فأغلب عملائي ينتمون إلى الوسط المسرحي . ولعل السيد يعلم أن هذا هو حي المسارح . والممثلون بطبيعتهم لا يصبرون على بيت واحد ولا يمكثون في البيت إلا لأمد قصير . ولا شك أنني أستفيد من ذلك . . نعم انهم يذهبون ويجيئون .

ورضى الشاب عن الغرفة ودفع مقدما ايجار أسبوع ، ورغب في ان يشغلها لساعته ، فقد كان متعبا مكدودا كما قال . وقالت ربة الداران الغرفة على أتم استعداد لا ينقصها شيء ، حتى المناشف والماء . .

وعندما همت بالانسحاب عاد يسألها للمرة الألف ذلك السؤال الذي تعلق بطرف لسانه :

- «هل مرت بك فتاة في مقتبل العمر تسمى مس فاشنر ؟ مس الوازفاشنر ؟ ألا تذكرين مثل هذا الاسم بين نزلائك ؟ انها في الأغلب مغنية مسرح ، وهي جميلة متوسطة الطول ، نحيفة القوام ذهبية الشعر ، في جبينها بجوار الحاجب الأيسر شامة سوداء » قالت ربة البيت :

- « كلا لا أذكر مثل هذا الاسم . ان أهل الفن كثيرا ما يعمدون إلى تغيير أسمائهم بنفس السرعة التي يغيرون بها مساكنهم . انهم يذهبون ويجيئون . كلا لا أتذكر هذا الاسم . .»

***

لا ، ودائما لا . إنه لم ين طيلة خمسة شهور عن البحث والاستفسار ، لا يتلقى إلا نفس الجواب . لقد كان يستغل النهار طوال هذه المدة ، يسأل عنها المدربين ووكلاء المسارح ، ومدارس التمثيل وبين نكرات المغنيات ، ويقضي الليل مندسا بين جماهير النظارة في المسارح على مختلف درجاتها ، ثم ينحدر إلى المراقص الوضيعة ، وأخشى ما يخشاه أن يجد هناك تلك التي فاق حبه لها كل شيء واستيأس من العثور عليها ، رغم يقينه الجازم بأنها تختفي في مكان ما ، لا يعدو نطاق تلك المدينة الضخمة ، التي هي أشبه ما تكون بمستنقع هائل من الرمال الخداعة لا تنفك ذراته تتحرك على الدوام إلى غير قرار ، ما يعلو السطح منها اليوم يندفن غدا في ذلك التيه من الوحل الخاتل الرهيب .

واستقبلت الغرفة آخر نزلائها في كرم زائف ، وحفاوة محمومة شاحبة متكلفة ، كابتسامة عريضة على شفتي بغي . وانعكست عليه أشعة متعة وهمية من الأثاث البالي ، والأغطية المهلهلة على الأريكة والكرسيين العتيقين ، والمرآة الرخيصة المضلعة القائمة بين النافذتين لا يزيد عرضها على قدم ، واطار أو اطارين مموهين بماء الذهب ، وسرير من النحاس الأصفر في ركن من أركان الغرفة .

وجلس الضيف على أحد المقعدين منهكا يستمع إلى همهمة الغرفة التي ازدحمت بالمعاني والمشاعر كأنها خلية من خلايا برج بابل ، وهي تروي له في حديثها المشوش عن روادها المتنافرين .

كانت أرض الغرفة مغطاة ببساط تعددت ألوانه حتى بدأ في وسط الكنار الذي يحيط به من الحصير القذر ، كجزيرة مدارية مستطيلة ، موشاة بالزهر ، في وسط بحر لجي من الأوضار . وعلى الحائط المغطى بالورق الفاقع الألوان ، تدلت تلك الصور التي لا تفتأ تطارد من لا بيوت لهم ، من مكان إلى مكان : عشاق الهيجونوت ، المعركة الأولى ، الفطور ، الروح على حافة الينبوع ، وبدا رف الموقد مثلما بستر وقح ، ينسدل عليه في فوضى ، كزنار راقصات الأمازون . وقد رصت فوقه أشياء أشبه ما تكون بحطام سفينة غرقت في أليم ، وألقى اليم بعض حطامها على الساحل : أصيص حقير أو أصيصان ، صور ممثلات ، قارورة دواء ، بطاقات من ورق اللعب بعثرت في غير ترتيب .

وكما تنضح أحرف الشفرة عندما تحل رموزها ، أخذت المعالم التي تخلفت عن موكب النزلاء على هذه الغرفة تتجلى واحدا أثر واحد ، حتى يتألف منها معنى مفهوم .

فتلك الرقعة من البساط التي تجردت من الوبر أمام خزانة الملابس تتحدث عن عدد كبير من الغانيات الفاتنات . وهذه البصمات الرقيقة على الحائط تشير إلى أولئك الأطفال الصغار الذين تحسسوا طريقهم في هذا السجن بحثا عن الشمس والهواء . وتلك البقع التي تنبعث أشعتها ، كأنها صور لقنابل تنفجر ، تشهد أن كؤوسا أو زقاق خمر قد تحطمت

بما فيها على الجدران . وعلى صفحة المرآة المضلعة نقشت أحرف مهتزة تتكون منها كلمة «ماري» بقلم من الماس ، ويد يترنح صاحبها من السكر . ولم يعد خافيا أن توالى النزلاء على هذه الغرفة ، كثيرا ما جرهم إلى الثورة ، تحت وطأة تلك الكآبة المزدهرة التي تفوق كل احتمال ، فراحوا يصبون نقمتهم صبا على كل ما وجدوه ، ففي قطع الاثاث كسور ورضوض ، والأريكة تداعت زنبركاتها ، واستكانت كثور هائج ، ذبح في ثورة غضب ألوت بحلم ذابحيه ، ولم تسلم صفحة الرخام التي تغطي رَف الموقد من هذا الغضب الشامل ، فانصدع منها جزء كبير . وحتى أرض الغرفة بدت على كل لوح من ألواحها ملامح الاستغاثة المعولة ، من عذاب موبق أصاب كلا منها على حدة ، في وقت أو آخر . ولما لم يكن من المعقول أن يكون كل هذا الحيف والتخريب الذي أحاق بالغرفة ، قد وقع كله عفوا من أولئك الذين آوتهم يوما من الأيام ، فلا بد أن بقية من بقايا غريزة المأوى التي خدعت نفسها ، قد ظلت حية في نفوسهم ، تؤجج حقدهم على هذه الآلهة الزائفة التي تدعى ربة الدار . وما أجمل أن يرى المرء نفسه ربا ولو لكوخ متواضع يكنسه ، ويحبه ، ويرعاه!

ظل الشاب في مجلسه ، يدير في خلده هذه الخواطر ، والبيت من حوله يئز ويعبق بالأصوات والروائح النفاذة منبعثة من الغرف المفروشة . فهذه ضحكات من احداها مائعة ، متأودة ، لا تعرف الحياء . وذلك موشح زجر وتأنيب قادم من غرفة أخرى ، وتلك طقطقة «زهر» في أيدي مقامرين ، ومن غرفة رابعة انبعث صوت أم تغنى طفلها الذي أضناه البكاء . ومن فوقه ينحدر صوت أوتار تصحبه دندنة حالمة . ومن هنا أو هناك صرير أبواب ، وهدير قطارات متقطع ، ومواء حزين يصدر عن قط يجثم على السياج ؛ والأنفاس تدخل إلى صدره محملة بعبق البيت الفياح ، كأنه روائح عفن صادر من أقبية تحت سطح الأرض ، امتلأت بالخرق والأقذار والخشب البالي في الأثاث الطرب المؤوف .

ثم طافت بالغرفة فجأة نفحة من نفحات النرجس الحلوة ، وانتشر عبيرها في قوة وعزم ، فانتفض الشاب صائحا :

«ماذا يا عزيزتي ؟»

نهض من مجلسه يتلفت يمنة ويسرة ، وكأنما يسمع شخصا يناديه ، والعطر السخي لا ينفك يطارده ويحيط به من كل صوب ، فيمد ذراعيه في الهواء في اضطراب ، ولكن كيف يمكن أن يكون للعطر نداء يجزم المرء جزما بأنه يناديه ؟ ألعله صوت - لا عطر - ذلك الذي مسه وعانقه واحتواه ؟

وصرخ مرة أخرى :

- «لابد أنها ترددت على هذه الغرفة . .!»

وراح يبحث عن أثر ما يهديه ، فقد كان واثقا أن أقل هنة منها ، أو شيء لمسته يدها ، سيعرفه لا محالة . إن عطر النرجس الذكي هو عطرها الأثير ، الذي اصطفته لنفسها وفضلته على سواه ، فمتى نفح ، ومن أين جاء ؟ .

إن الغرفة كانت مرتبة ولكن في غير نظام ، فعلى غطاء صوان الملابس الرث تناثرت ستة من دبابيس الشعر ، نحاها عنه ، فما فيها ما يدل على امرأة بعينها ، وهي صواحب كل امرأة ، مشاع بينهن ، تتشابه بلا فارق ، ولا تشير إلى زمان . وانتقل إلى الأدراج فعثر في أولها على منديل صغير مهمل رث ، لم يكد يضعه على أنفه حتى رماه إلى الأرض ، جزوعا من نتنه وسوء مخبره . وعثر على الثاني على أزرار غريبة ، وبرنامج رواية مسرحية ، وصك رهون ، وقطعتين ضالتين من الحلوى ، وكتاب في تأويل الأحلام!!

وفي الدرج الأخير صادف مشطا لماعا أسود مما يصفف به شعر النساء ، فوقف لحظة أمامه مبهوتا كالواقع بين الثلج والنار ، ولكن المشط الأسود اللماع كذلك ، شأنه شأن دبابيس الشعر لا يدل على شيء ، مشاع بينهن جميعا . وأخذ يذرع الغرفة رائحا غاديا ككلب من كلاب الصيد ، يجثو على ركبتيه ويديه ، ويتنسم الجدران والأركان ، لا يترك رفا ، ولا نضدا دون تنقيب ، ولا يسلم من يديه اطار أو ستار ، حتى خزانة الشراب ، ومع ذلك فلم يهتد لها على أثر . انه يتبين

وجودها بجانبه ، وفي ريحه ، وحوله ومن فوقه ، ملاصقة لها ، مدللة إياه ، وللمرة الثانية يجيبها بصوت مسموع : «نعم يا عزيزتي» . ثم يتلفت حوله فلا تقع عينه إلا على هواء ، لأن عبق النرجس الذي تناديه منه هيهات ان يخلق جسدا ولونا ، وهوى ، وأذرعا تشتهي العناق .

وعاود البحث في الشقوق والأركان فوجد بعض سدادات الزجاج ، وبعض أعقاب السجائر ، فنحاها باحتقار ، وعثر في ثنية من ثنايا الحصير على سيجار بقي نصفه ، فدهسه تحت نعله ولسانه يهدر باللعنات . وغربل الحجرة من أولها إلى آخرها ، فلم يجد أثرا لتلك التي أشقاه البحث عنها ، والتي لا يبعد أن تكون سكنت هذه الغرفة ، والتي يبدو أن روحها ترفرف في هذا المكان!

وتذكر ربة البيت فجأة ، فغادر من فوره غرفته المليئة بالأشباح ، واتجه نحو باب ينبعث منه شعاع من الضوء في حجرة ربة البيت ، وطرق الباب ، فخرجت إليه ، فسألها وهو يجاهد في اخفاء انفعاله :

– «هل تتكرم سيدتي بافادتي عمن احتل غرفتي قبلي . . ؟»

– «بالطبع يا سيدي ، وأقولها مرة أخرى . . إن أسلافك هما سبراولز وموني ، وكما قلت من قبل ، كانت مس برتا سبراولز تعرف في المسرح بهذا الاسم ، ولكن اسمها هنا كان مس موني . إن بيتي محترم معروف بطيب السمعة ، ولقد كان عقد زواجهما معلقا في اطاره على مسمار في . . .»

ولم يدعها تكمل ، فقاطعها قائلاً :

– «من أي نوع من أنواع النساء مس سبراولز ، أعني من حيث الشكل بطبيعة الحال ؟»

– «كان شعرها فاحما ، وكانت قصيرة القامة ، ممتلئة . . ذات وجه مضحك . . وقد انصرفت هي وزوجها منذ أسبوع في يوم ثلاثاء . .

– «ومن كان يستأجر الغرفة قبلهما ؟»

– «سيد كان يعيش فريداً أو يشتغل بأعمال النقل ، وتركها مدينا لي بأجر أسبوع ، وسكنتها قبله مسز كراودر وطفلاها الاثنان ، فأمضت

بها أربعة شهور ، ثم المستر دويل ، وكان شيخا يعوله ولداه ، وقضى بها ستة أشهر ، وهذا يردنا إلى عام . . وقبل ذلك لم أعد أتذكر . . »

وشكرها وقفل راجعا إلى حجرته ، وكانت في صمت القبور ، ولم يعد بها أثر لذلك العطر الذي ملأ أرجاءها حياة ، فقد اختفى أريج النرجس تماما ، وحل محله نتن الأقبية الطربة ، وأثاثها البالي المؤوف ، وجوها الآسن المكتوم .

وغيض هذا الفيض من آماله المنهارة ما كان في نفسه من ثقة وايمان ، فارتمى في مقعده شاخصا إلى مصباح الغاز ذي اللهب الباهت . وما لبث أن اتجه إلى السرير ، فمزق ملاءته قطعا رفيعة ، واستعان بنصل مديته على أن يسد بها شقوق النوافذ ، وفروج الباب . فلما استوثق من كل شيء أطفأ اللهب ، ثم فتح الغاز على آخره ، وسجى نفسه قرير العين على السرير .

الفهرس

تمهيد	7
الشرطي والأرغن	11
هدايا المجوس	19
كف توبين : طالع السعد	27
تيلدى تواجه السعادة	37
كيوبيد والساعة وهارون الرشيد	45
هدنة	53
ماجي تدخل الدنيا	61
غرفة المنور	71
حب بالمراسلة	81
اكسير الحب	87
اله المال	95
ربيع تحت الطلب	105
إضاعة الأناقة	113
عالمي في مقهى	121
قصة لم تكمل	129
في خدمة الحب	139
احكام الطبيعة	147
من مقعد السائق	155
الباب الأخضر	163
أخوات الرحمة	173
غرام سمسار	181
فضولي	187
بعد عشرين عاماً	193
الغرفة المفروشة	199

صدر من هذه السلسلة:

١- حي بن يقظان
٢- غابة الحق
٣- الاسلام بين العلم والمدنية
٤- الأمير الصغير
٥- طبائع الاستبداد
٦- مغامرات مونشهاوزن
٧- أطفال غسان كنفاني
٨- كليلة ودمنة
٩ - طوق الحمامة
١٠- تخليص الإبريز في تلخيص باريز
١١- بطل هذا الزمان
١٢- الدين والعلم والمال
١٣- غرائب المكتوبجي
١٤- الأجنحة المتكسرة
١٥- حكايات إيسوب
١٦- حول العالم في ثمانين يوماً
١٧- رحلات جلفر
١٨- مذكرات هدى شعراوي

١٩- البخلاء للجاحظ
٢٠- روائع في المسرح والشعر
٢١- صندوق الدنيا
٢٢- كل الأسماء
٢٣- مذكرات دجاجة
٢٤- حياتي
٢٥- قنديل أم هاشم
٢٦- مذكرات الأميرة جويدان
٢٧- ابراهيم الكاتب
٢٨= بغداد مدينة السلام
٢٩- الحب الأول
٣٠- أرض البشر
٣١- الملايين الأربعة

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN 2-84305-751-5
9 782843 057502

سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

البيان	الإمارات
الأيام	البحرين
الثورة	سورية
السفير	لبنات
القاهرة	مصر
القبس	الكويت
الحياة	السعودية
المدى	العراق